المثل الأعلى في الأنبياء

تأليف
خوجه كمال الدين

عربه
محمود الشريف

قدم له
الدكتور هيكل

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

المثل الأعلى

في الأنبياء

المثل الأعلى
في الأنبياء

ألّفه
خوجة كمال الدين

عرّبه
أمين محمود الشريف

قدّم له
اللورد هدلي

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الكتاب ٣
الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩ م

لبنان - بيروت - ساقية الجنزير، خلف الكارلتون، س . ت ٥١٤٩٧
ص . ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس : FIKR 44316 LE

تقديم

بقلم شوقي أبو خليل

بسم الله، والصلاة والسَّلام على رسول الله، وبعد..

نسخة الطبعة الأولى من هذا الكتاب، وصلتنا من مكتبة الأستاذ الفاضل جواد المرابط، بعد أن أَعد لها مقدِّمة لإعادة نشرها، جاء فيها:

«من الكتب ما عمل المستعمرون عن طريق عملائهم لإخفائها وإتلافها، عدا كون أكبر دور النشر العالمية يعمل فيها أولئك العملاء الَّذين يعملون على منع نشر ما يقف دون أهداف المستعمرين.

أذكر عندما زرت الكثير من البلدان الإسلاميَّة الَّتي كانت مستَعْمَرة، وذلك ما بين سنتي ١٩٥٠ و١٩٧٠، أنني لم أجد في مكتباتها كتاباً واحداً فيه شيء من التَّوعية ضد الاستعمار، وضد التَّحركات الصُّهيونيَّة.

ومن بين الكتب الجديرة بالقراءة ما أُقدِّمه ليعاد نشره، وهو لعالم حرِّ التفكير، له عدَّة مؤلفات قيِّمة، منها هذا الكتاب في سيرة النَّبيِّ الكريم صلىٰ الله عليه وسلَّم. بعد أن اعتنق الإسلام، وتسمَّىٰ باسم خوجة كمال الدِّين، والكتاب يعتبر بحق، من أفضل وأجود ما كُتب عن السِّيرة النَّبويَّة الشَّريفة، يتجلَّىٰ فيه إخلاص المؤلف وسعة اطِّلاعه، وعمق تفكيره.

وزادت قيمة الكتاب مكانة، أنَّه صُدِّر بمقدمة اللورد المسلم هِدْلي.

وهذا الكتاب ما أن طُبع بالانكليزيَّة، وترجم إلى العربيَّة، حتَّىٰ سطت علىٰ نسخه اليد الخفيَّة، الَّتي يحركها المستعمرون، الَّذين لا يريدون أن يكون بين الشُّعوب الإسلاميَّة رابطة من الرُّوح المعنويَّة الَّتي يتقوُّون بها، وتكون لهم بها صحوة تجمع بينهم، لأن البحث الَّذي تناوله المؤلِّف فيه ما تتقوىٰ به أُمَّتنا. لقد وضع محمد صلى الله عليه وسلَّم أساس الوحدة العالميَّة، وأعلن لأَوَّل مَرّة في التَّاريخ أن جميع الأَديان جاءت من عند الله في البداية..

ولا شك أن ما جاء به صفوة الخلق، بما فيه من مثالية واقعية، وواقعية مثالية، هو المثل الأعلىٰ للإنسانيَّة، وهو دافع ليصبح الإنسان على أكمل ما يمكن أن يتحلى به من أخلاق».

هذا جزء يسير من مقدِّمة طويلة صاغها الأُستاذ الفاضل جواد المرابط، جعلها في الكتاب على وريقات، وراح ـ أَمدَّ الله بعمره ـ يفتش عن مؤرِّخ يعلِّق على ما كتبه خوجة كمال الدين ـ البريطاني المسلم ـ موضحاً ومفسِّراً عند الضرورة والحاجة.

ويسعدنا أن نقدِّم (المثل الأَعلىٰ في الأنبياء) بطبعة منقَّحة،بعد أَن أَغنيناه بما هو مطلوب ـ قدر الإمكان ـ تاركين النَّص الأصلي كما هو، وإضافاتنا كانت إمَّا خلال النَّص، فوضعت بين معقوفتين [ ]، وإمَّا في الحواشي، خُصِّصَت لها أَرقام متسلسلة لكل باب، معتمدين الأرقام 1، 2، 3.. تاركين لحواشي المؤلف والمعرِّب استخدام الأرقام ١، ٢، ٣..

فشكراً للأستاذ جواد المرابط، الذي يعود الفضل إليه في ظهور هذا

الكتاب إلى النُّور ثانية، سائلين الله تعالى النفع به، فقيمته في رأينا مصدرها كون المؤلِّف بريطانياً أَسلم، فهو من أَدرىٰ الناس بما في ذهن قومه، وبما أودعته الكنيسة فيه وأَلحَّت عليه، فكان عرضه لسيرة سيد البشر المصطفىٰ (المثل الأَعلىٰ)، عرضاً علمّياً رائعاً، وموضوعياً موثَّقاً يتناسب وما في عقول قومه، وبما ينقض افتراءات، ويرد شبهات الَّذين احترفوا الدَّس والتشويه من مبشِّرين ومستشرقين، مدفوعين بتعصُّب أَعمىٰ، وحقد دفين.

فمع احترام المسلمين للسَّيِّد المسيح عليه السَّلام، نجد عدداً كبيراً من المبشِّرين والمستشرقين يصفون الإِسلام ونبيَّه بأشنع ما يظهره الحقد والكراهية والتَّعصُّب، حتَّىٰ فولتير المعدود من أَصحاب الفكر الحر، ومن الَّذين يكرهون التَّعصُّب الذَّميم، أَلَّف مسرحية عن محمد صلى اللَّه عليه وسلَّم أهداها إلى البابا (بُنْوَا الرَّابع عشر) قائلاً: «فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أَشد النَّاس إعجاباً بالفضيلة، إذ تجرّأ فقدم إلى رئيس الدِّيانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسِّس ديانة كاذبة بربرية (كذا!!)، والحقيقة أستطيع أن أَتوجه بنقدي إلىٰ قسوة نبيٍّ كاذب وأغلاطه، فلتأذن لي قداستك في أَن أضع عند قدمَيك الكتاب ومؤلفه، وإنِّي مع الإجلال العميق، أَجثوا وأُقبِّل قدميك القدسيتين (فولتير ١٧ أُغسطس (آب) ١٧٤٥ م).

ومع ذلك، فالحقيقة أَعظم من الافتراءات والكذب، فلئن أَعمىٰ التَّعصُّب فولتير مثلاً، فقد أَنصفَ أَحرارُ الفكر ـ الَّذين لم يقعوا تحت سلطة الكنيسة ونهجها المعروف والملموس عالمياً ـ الإسلامَ ونبيَّه. فغوتيه الألماني يقول بعد أَن درس الإِسلام بحرية فكر، ونزاهة ضمير: «إذا كان هذا هو الإِسلام، أَفلسنا جميعاً مسلمين[1]؟»، وألفونس دو لامارتين الفرنسي يقول: «إن محمداً فوق البشر ودون الإله، فهو رسول بحكم

(١) Haider Bammate Visages de I, Islam P. 21

العقل ودلالات المعجزات تعضد ذلك، وإن اللُّغز الذي حلَّه محمد في دعوته فكشف فيها عن القيم الرُّوحيَّة، ثمَّ قدمها لأمة العرب ديناً سماوياً، وسرعان ما اعتنقوه، هو أعلىٰ ما رسمه الخالق لبني البشر»(٢).

وإدوارد جيبون الانكليزي يقول: «إن دين محمد خال من كلِّ شيءٍ يشينه، وإن القرآن لأكبـر دليل علىٰ وحدانية اللَّه»(٣).

ووليم موير ـ رغم مواقفه المعادية للإسلام ـ يقول: «محمد في نفسه عظيم، وفي رسالته عظيم، وما عسىٰ أن نتحدث عن سيرة لرجل خلق أُمَّة مترامية، بعد أن كانت خاملة، وإذا بها ذات كيان عظيم»(٤).

وبرنارد شو الذي كان واضعاً فوق مكتبه صوراً لغاندي ولينين وستالين وأبسن وجيرجينسكي قال: لو كانت لمحمد صورة لوضعتها فوق هذه جميعاً(٥)، ومن كلامه: لقد كنت دائماً أكِنُّ غاية الاحترام لدين محمد بسبب حيـويَّته العجيبة، وفي رأيي أن الإسلام هو الدِّين الوحيد الَّذي يملك الاستعداد للتلاؤم، ولتوجيه الحالات المتنوعة، والصور الحياتية المتغيِّرة، ولمواجهة العصور المختلفة، وإنني لأتنبَّأ أنْ دين محمد سيكون محل قبول أُوروبة غداً.

إنَّ رجال الدِّين في القرون الوسطى، قد رسموا لدين محمد صورة قاتمة، فقد كانوا يعتبرونه عدواً للمسيحيَّة لكنني قد اطَّلعت على أمر هذا الرَّجل فوجدته أُعجوبة خارقة، وتوصلت إلى أَنه يجب أن يسمى منقذ البشريَّة، وفي رأيي أنه لو تولى أَمر العالم اليوم لَوُفِّقَ في حلِّ مشكلاتنا بما

(٢) السَّفر إلى الشَّرق، ص: ٤٧.
(٣) الحضارة الشرقية، ص: ٢٧.
(٤) حياة محمد، ص: ٤٢.
(٥) ذكر ذلك د. صفاء خلوصي في مجلة العربي ٢٠٣، أكتوبر ١٩٧٥.

يؤمن السَّلام والسَّعادة الَّتي يرنو البشر إليهما.

وهذا كتاب (المثل الأَعلى في الأَنبياء) الذي هو فريد في نوعه، لن نذكر في هذا التَّمهيد شيئاً عن مضمونه، فمقدِّمة المعرب، وتصدير اللورد هِدْلي يكفيان لتوضيح قيمته وفكرته.

نسأل الله التوفيق والنفع، فهو من وراء القصد، له الحمد أَولاً وآخراً.

شوقي أبو خليل

كلمة المعرب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى جميع المرسلين، وآله وصحبه أجمعين.

لَعَلَّ أصدقَ وصف لهذا الكتاب القيّم الَّذي نقدمه اليوم لقراء العربية أنه فتح جديد في السيرة النبوية الشريفة كما قال عنه اللُّورد هِدْلي[1] ـ الانجليزي المسلم ـ في كلمته التي صَدَّر بها هذا الكتاب.

ولا ريب أن الكتب التي أُلفت في السِّيرة النَّبوية كثيرة، ولكنّ أكثرها يقوم على السَّرد التاريخي، دون تعمق في الفكرة، أو استنباط للعِبرة. أما كتاب اليوم فهو فريد المثال في موضوعه وفي منهاجه. نحا فيه المؤلف نحواً جديداً في كتابة السِّيرة الكريمة، إذ عدل عن المنهج التقليدي الذي جرىٰ عليه المؤرخون من قديم، وعرضها للقراء في أُسلوب جديد مزج فيه بين الفلسفة والتاريخ، وضَمنها مباحثَ دقيقة، ونظرات عميقة، تهدي العقولَ الحائرة إلى نور الإيمان، وتشرح الصدورَ الحرجة لحب الإسلام،

(1) ستمر ترجمة (سيف الرحمن رحمة الله فاروق) هِدْلي في هامش «التَّصدير» من هذا الكتاب.

وتُزجي إلى النفوس العانية بردَ السَّكينة، وتبعث في الأفئدة المضطربة روحَ الطمأنينة.

أَما الهدف الرئيسي الذي يرمي إليه المؤلف، فيستطيع القارىء أن يستدل عليه من عنوان الكتاب، وهو إثبات أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم هو المثل الأَعلىٰ في الأَنبياء، قد جمع الله فيه ما تفرَّق في سائر الأَنبياء من الكمالات. وقد سلك المؤلف في إثبات دعواه سبيل المُحاجّة العقلية، المبنيةِ على المقارنة. متحاشياً بقدرِ الإمكان تلك المقارناتِ البغيضةَ، والمماحكات العقيمةَ، التي يلجأ إليها النظّار من أرباب الجدال، واضعاً نُصبَ عينيه دستورَ الإسلام في الدعوة المنصوصَ عليه في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[2]، مراعياً أدب التعبير، وما تقضي به الأصولُ المقررةُ في فن الجدل والمناظرة.

ولقد أَلَّف المؤلف كتابه رداً على وجوه المطاعن الَّتي انتحلها أعداء الإسلام، وذلك على أثر الكتاب الذي ألفته الآنسة لورا هيلين الإنجليزية، وقرَّظه أسقف لندن، كما تعرض فيه للرد على القائلين بأن خاتم النبيين معناه أفضلهم لا آخرهم، فقرر المؤلف أن النبي صلى الله عليه وسلم هو آخر الأَنبياء، وأن القرآن [الكريم] هو آخر الكتب السَّماوية، لا بل أن النبي صلى الله عليه وسلم «يقف في المقدمة، يُشْرف بنظره على كلِّ القرون، فهو نبيُّ الزَّمان كلِّه، ونبيُّ كافة الشعوب على اختلاف درجتها ثقافةً وعلماً»(١).

هذا والكتاب ـ بعد ذلك ـ قطعةٌ من الأدب الرفيع في أسلوبه وبيانه،

---

(2) وتتمة الآية الكريمة: ﴿وَجَادِلْهُم بالَّتي هي أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. [النَّحل: ١٢٥].

(١) انظر ختام الفصل الثاني للمؤلف.

صاغه المؤلف من ذَوْب نفسه، وعُصارة قلبه. وقد بذلت قُصاراي في نقله للقراء في ثوبٍ عربي قشيب. وأرجو أن أكون قد وُفِّقت في تعريبه بأسلوب يرضي الخاصة، ولا ينبو عن فهم العامة. وأنا أسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله في صحيفتي يوم الدِّين، وأن يكتب به النفعَ للقارئين.

وَمَـالـيَ فيـه سِـوَىٰ أَنّـني أراهُ هَـوىً وافقَ المَـقْصِـدَا
وأَرْجُو الثوابَ بِكَتْب الصَّـلاةِ علىٰ السَّيِّد المُصْطَفى أَحْمَدا

[أمين محمود الشَّريف]

تصدير
بقلم اللورد هِدْلِي(١)

إنَّ مؤلِّف هذا الكتاب القيم، الَّذي يُعدُّ فتحاً جديداً في التَّاريخ الإسلامي غنيّ عن التَّعريف، إذ أن شهرته في الغرب تكاد تضارع شهرته في الشَّرق. ولقد أثنى القراء في جميع أنحاء العالم على روح الإنصاف والاعتدال التي يعالج بها كل موضوع كتب فيه.

(١) هو فخامة اللُّورد هـدْلي الملقب بسيف الرحمن رحمة الله فاروق، رئيس الجمعية الإسلامية البريطانية سابقاً والمتوفى بلندن في يونيه ١٩٣٥عن إحدىٰ وثمانين سنة. تخرَّج في جامعة كمبردج، وحصل على درجته العلمية في الرياضيات، ثم اشتغل بالتعليم والصحافة والهندسة.

وكان اللُّورد هِدْلي في بداية أمره بروتستانتي المذهب، ثم درس الكَثْلَكَة، فضاق ذرعاً بقول أصحاب هذه المذاهب «**أعتقد هذا وإلاّ هلكت**»، ويحدثنا اللُّورد هِدْلي أن الدافع الأكبر لانسلاخه من الديانة المسيحية هو ما لمسه من عدم التسامح الديني بين الطوائف المسيحية، بسبب الخلافات المذهبية. ويقول بصدد إسلامه إنَّه ظل مسلماً أكثر من عشرين سنة «وقد يتوهم بعض أصدقائي أني تأثرت باتصالي بالمسلمين، ولكن الواقع غير ذلك، لأن إسلامي هو ثمرة تفكير دام عدة سنين، والواقع أن اتصالي بأهل العلم من المسلمين لم يبدأ إلا منذ أسابيع قلائل».

وكان اللُّورد رحمه الله رجلاً واسع الأفق، ذكي الفؤاد، حصيف الرأي، عالي الهمة، قوي العزيمة. لم يدخر جهداً ولا مالاً في سبيل نشر الإسلام، حتى لقد قام في سن=

ويتبيَّن للقارىء من هذا الكتاب وغيره من الكتب التي أخرجها المؤلِّف، والتي تبلغ العشرة أو الاثنى عشر عدًّا، أن هذا المؤلف يمتاز بدقة البحث. فهو يحقق كل ما يذكره من الأقوال والروايات، وينسبها إلى أَصحابها من العدول الثقات. وبحسب القارىء أن يطلع على كتابه الأخير المسمَّىٰ (**مصادر المسيحية**)، وجدير بالذكر أن أحداً من النقاد حتَّىٰ الصحف الناطقة بلسان الكنيسة، لم يجرؤ على الطعن في دقة الحقائق التي وردت في هذا الكتاب.

وقد حاول بعضهم منذ أن ظهرت المؤلفات الحديثة في الإسلام، أن يُبين أننا معشرَ المسلمين نحاول أن نصوِّر النبي صلىٰ الله عليه وسلم بصورة تخالف الواقع، وأننا نعرض الإسلام في ثوب جديد، لنحبب النَّاس في الدخول فيه، فعمد المؤلِّف إلى إخراج هذا الكتاب ليُحْبط تلك الجهود

= السبعين برحلات إلى مصر وجنوب افريقية والهند في سبيل الدين.

وفي سنة ١٩٢٣ أزمع الحج مع المؤلِّف إلى بيت اللَّه الحرام، فدعاهما أهل الإسكندريَّة عند مرورهما بالديار المصرية في طريقهما إلى الحجاز إلى حفلة شاي وعشاء تحت رعاية المرحوم الأمير عمر [بن] طوسون(3)، وشهد هاتين الحفلتين الأمير السنوسي ودولة محمد سعيد باشا رئيس الوزراء، وألقى الأمير عمر [بن] طوسون كلمة حيَّا فيها الضَّيْفَين الكريمَيْن، وتوالى بعده الخطباء من أصحاب الفضيلة العلماء، ومنهم الشيخ أمين سرور الذي ألقى قصيدة عصماء مطلعها:

إِذَا كَـرَّمُوا الأَفـرادَ للدِّينِ وَالفضـلِ ... فأنتَ جَدِيرٌ بالكرامةِ يا هِنْدِي
عَـرفْتَ طـريقَ الحقِّ بعـدَ اختبـارِهِ ... فأوْرَدْتَ عَنْ عَقْلٍ وَأَصْدَرْتَ عن فَضْلِ

(3) عمر بن طوسون بن محمد سعيد بن محمد علي (١٨٧٢ ـ ١٩٤٤ م) مؤرِّخ باحث، مولده ووفاته بالإسكندرية، تعلَّم في سويسرة، آزر الحركة الوطنية في مصر بقلمه وماله، غير متقيِّد بتقاليد أُسرته في الانكماش عن الدُّخول في غمار الجمهور، وكان من أعضاء المجْمَعَيْن بمصر ودمشق، (الأعلام من: ٥/٤٨).

التي يراد بها القدحُ في الأساليب الجديدة للدعوة الإسلامية. وإني لواثق أن كلَّ من يتابع قراءة هذا الكتاب حتى نهايته، سيعترف معي بأن المؤلف قد وفق توفيقاً عظيماً في تحقيق غايته.

ولكن الَّذين يرموننا بسهام النَّقد، قد غاب عنهم شيء واحد، غاب عنهم أنَّ الحقائق التَّاريخية الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم هي من الشُّهرة والثُّبوت بحيث لا يتسنىٰ معها اختلاق شيء جديد، فإنَّ لنا معشر المسلمين كتباً ضخمة معترفاً بصحتها، تحتوي علىٰ أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، التي محَّصها الرواة تمحيصاً دقيقاً. ومن هذه الكتب نستمد كلَّ ما نريد أن نكتبه عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم. وقد بنى المؤلف كلَّ ما ذكره علىٰ هذه الكتب الصحاح. وقد بلغ من عناية المسلمين بهذا الأمر، أَنَّهم يضربون عُرْض الحائط بكل ما يقال عنه صلى الله عليه وسلم مما لم يرد له ذكر في كتب السُّنَّة، مهما كان فيه من تمجيده والإشادة بذكره.

وقد أشار المؤلف في هذا الصدد إلى الواقدي [4] بنوع خاص، وهو أحد الرواة الذين جُرِّحُوا لذكره أقوالاً كذبها قوم عدول ثقات كالإمام الشافعي [5] الذي تألق نجمه في صدر الإسلام. وإنه لمن دواعي الأسف أن بعض كتاب الغرب قد احتجوا بأقوال الواقدي هذا، وتتبعوا بالذات تلك الروايات التي جَرَّحها الثقات. وإني لأذكر منهم بهذه المناسبة الأُستاذ

---

(4) محمد بن عمر الواقدي (١٣٠ ـ ٢٠٧ هـ/٧٤٧ ـ ٨٢٣ م). ولد بالمدينة المنوَّرة، وعاش في بغداد أيَّام الرَّشيد، وتوفي فيها، (الأعلام: ٦/٣١١).

(5) محمد بن إدريس الشَّافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ/٧٦٧ ـ ٨٢٠ م)، الإمام الشَّهير، ولد في غَزَّة (بفلسطين)، وتوفي بالقاهرة.

مرغليوث[1] وأذكره بصفة خاصة لأن المقُول عنه أنه عالم ضليع، خبير بدقائق لغة العرب وتاريخهم، ولا بد أنه قرأ ما قاله الإمام الشافعي، وابن خَلِّكان[6] في الواقدي، فابن خَلِّكان يقول فيه «وضَعَّفُوه في الحديث وتكلموا فيه»[7]، والإمام الشافعي يقول «كتبُ الواقدي كلها كذب» ولا مراء في أن الواجب كان يحتم على الأستاذ مرغليوث حين استشهد بالواقدي أن يذكر أيضاً آراء هؤلاء العلماء الأعلام فيه. ولا مراء أيضاً في أنه إذا ثبت أن الأستاذ المذكور لم يكن يعلم أن الإمام الشافعي، وابن خَلِّكان قد أبْدَيا رأياً في هذا الموضوع الهام كان هذا دليلاً على أنه ليس متضلعاً من تاريخ العرب كما يعهد الناس فيه.

وإنه لمن المحزن حقاً، أننا نجد كثيراً من المبشرين، وغيرهم من رجال الدين المسيحي، يتعمَّدون عرض ديننا الحنيف على الناس في صورة مشوَّهة، كم قيل لي في أثناء الحديث: «إنَّكم تعبدون محمداً وتتزوجون أربعاً»، أو: «إنَّكم تعتقدون أن النِّساء ليست لهن أرواح، ولا يباح لهن دخول المساجد»، هذه الأقوال تقال لي بنيَّة حسنة، وقصد بريء،

---

(١) هو داود صموئيل مرغليوث المستشرق اليهودي المتوفى سنة ١٩٤٠ م، كان متخصصاً في دراسة اللغة العربية وتاريخ الإسلام، وأستاذاً للغة العربية بجامعة أكسفورد، والمستشرقون معروفون بالكيد للإسلام، وإثارة الشُّبه الدينية، والترويج للآراء الباطلة، والعقائد الفاسدة والاحتجاج بالروايات الضعيفة.

[دافيد صموئيل مرجليوث David Somuel Margoliouth (١٨٥٨ - ١٩٤٠) مولده ووفاته بلندن، له في لغته كتب عن الإسلام والمسلمين لم يكن فيها مخلصاً للعلم على الرغم من توسعه في معرفة المسلمين وتاريخهم وآدابهم].

(6) أحمد بن محمد بن إبراهيم خَلِّكان (٦٠٨ - ٦٨١ هـ/١٢١١ - ١٢٨٢ م)، ولد في إربيل، ومات بدمشق، صاحب كتاب: «وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان»، وهو من أشهر كتب التَّراجم.

(7) وَفَيات الأعيان: ٤/٣٤٨.

ولكنها تدل أبلغ دلالة علىٰ مدىٰ الدِّعايات المُضَلِّلة، والمفتريات الزائفة الشَّائعة بين الناس، وإنه لمن الخسة والدناءة، أن يحاول المرء عامداً ترويج معتقداته الدينية بافتراء الأكاذيب على دين غيره، ولعل (المبشر المسيحي) كما يقول المؤلف «هو أعظم النَّاسِ وِزْراً في هذا السبيل، حتى إن أنبياءه لم يسلموا من لسانه. وإني لأعترف بالعجز عن فهم عقليته، فبينما تراه يؤمن بنبوَّة كثير من أنبياء بني إسرائيل، إذا به يُعَدِّدُ ما اقترفوا من ذنوب وآثام، وبذلك يقدح عرضاً فيمن قال عنهم الكتاب المقدس: «إنهم يسيرون مع الرب باتضاع وإنهم أبناؤه المولودون منه». فبربِّك حدثني أيُّ إله هذا الذي يؤمن به هؤلاء المبشرون الكاذبون، الذي يصطفي لرسالته أمثال هؤلاء الآثمين الأشرار ليكونوا قدوة للناس؟».

وإنه لمن دواعي السرور أن المؤلف قد جعل رائده في هذا الكتاب الجديد، كغيره من المؤلفات السابقة، ذلك المبدأ الإسلامي السليم ـ مبدأ التَّسامح والموعظة الحسنة ـ مما لا نرى له أثراً ـ ويالـلأسف ـ فيما يكتبه كثير من المسيحيين في شؤون الدِّين. إنَّ هذا التَّسامح من فضائل الإسلام، وبودي لو أن المسيحيين اقتدَوْا بالمسلمين فيه، حرصاً علىٰ سمعة هذه الديانة الشقيقة، وقد قرأت للمؤلف في الصحيفة ٤٤ ما يأتي عن عيسىٰ عليه السلام:

«لقد بدأ المفكرون العصريون من أهل الغرب يرون أن عيسى بشر، فلا هو الله ولا هو ابن الله، وهؤلاء المفكرون يعبرون عن الرأي الذي يساير حركة التقدم العلمي الحديث بوجه عام[8]، إن عيسى عليه السلام رسول

---

(8) انظر مثلاً: العقائد الوثنيَّة في الديانة النَّصرانية لمحمد طاهر التنير.
ودراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة د. موريس بوكاي.
ومحاضرات في النصرانية محمد أبو زهرة.
=

حق من رسل الله، وأحد الأنبياء المسلمين، قد لا يكون المثل الأعلى في الأنبياء، ولكنه شخصية عظيمة بلا شك. طبع على اللُّطف والإيثار والتواضع، وأصيب بالبلاء الذي يصاب به عامة البشر، ولكنه صبر عليه صبر الرجال. كان من طبقة متواضعة في المجتمع، ولكن كانت لديه الشجاعة الكافية للتَّشهير بالنِّفاق السَّائد في الطَّبقات العليا من المجتمع. كان يُشتم ويُضطهد، ولكنه كان يصبر على الأذى ويُغْضي عينَه على القذىٰ. كان يخدم أصدقاءه ويدعو لأعدائه، يأتي بالمعجزات ولكنه لا يفخر بها قط، بل ينسبها إلى (إصبع من أصابع الرحمن)، ولقد كان يذهب إلى حد الاعتراف بأن في مقدور غيره أن يَفْرِي فَرِيَّه[١]. كان[9] نَبِيَّ عصره حقاً. عرف السرطان الاجتماعي الذي كان يَفُتُّ في جسم المجتمع، وينفث السم في دم قومه، فتصدىٰ لعلاجه ولقد قضى حياته ونحبه في خدمة الدين كسقراط وغيره ممن استشهدوا في سبيل الحق، على أنه كان يخص بعطفه مدينة أورشليم وأبناءها. وإن العبرات التي سكبها على قومه لتعد أصدق دليل على ما أشْرِب في قلبه من محبة الناس، فلله دره من رجل كريم على خلق عظيم. كل هذا جميل في حق عيسىٰ عليه السلام إذا اعتبرناه بَشَراً، أمَّا إذا اعتبرناه إلهاً فإن مناقبه ذاتها لا تليق بجلال الألوهية، بل تحط من مقامها الرفيع، وكل ما تنطوي عليه ذاته من عظمة، وجلال، لا يعد شيئاً مذكوراً، بل إذا قيس بعظمة الله صار هباء منثوراً».

وأظنني في حل من أن أنقل للقراء ـ على سبيل المقارنة ـ بعض فقرات

= المسيحية نشأتها وتطورها، د. شارل جينيبير.
مقارنة الأديان د. أحمد شلبي
وقصة الحضارة ول ديورانت. . .

(١) يأتي بمثل ما أتى به.

(9) (كان) عيسى عليه السَّلام.

من كتاب ألفته الآنسة لورا هيلين سوبريدج، عنوانه (أحلام المرأة ورسالتها).

ولما كان هذا الكتاب قد صدر برعاية أسقف لندن الذي وصفه في المقدمة بأنه كُتيّب جميل، يوصي الأُمَّة والكنيسة بقراءته، فإني أفهم أن هذه الفقرات تحظى بقبول طائفة هامة من طوائف الكنيسة الانجليزية على الأقل.

قالت هذه المرأة «انظر إلى هذا التَّهديد الفظيع، والإنذار الرَّهيب؛ إن هلال النبي.. يرفرف على ٢٢٢ مليون[10] من الجنس البشري، ويسعى جاهداً للسيطرة على الأمم ضد صليب المسيح. إن هذا الهلال الذي يشبه السيف المقوس يمثل بحق الروح العالمية التي حملت النَّاس على اتباع الدين بحد السيف، ذلك الدين الذي ينزع إلى حب المادة والشهوات.

انظر إلى القرآن، كتاب النبي... وهو الكتاب الوحيد بين جميع الكتب المقدسة لديانات العالم الذي يزعم أنه جاء ليحل محل (الإنجيل الخالد) وينكره. اسمع إلى هذا الكتاب الذي يرفض بشرى السُّرور العظيم التي أريد أن تعم النَّاس جميعاً». ثم يلي ذلك أقوالٌ أدعى للعجب، وإني لأشعر بأسف عظيم حين أرى أسقف لندن يؤيد مثل هذا الهذر والهذيان.

«وقد كانت المرأة العربية إلى عهد محمد تتمتع بقسط كبير من الحرية الاجتماعية، وكانت علاقاتها بالرجال تقوم على أسس سليمة وصريحة أكثر مما قامت عليه منذ عهد الإسلام» ا. هـ.

ولا أريد أن أقتبس أكثر من ذلك من هذا الكتاب الذي يضم بين

---

(10) هذا الرَّقم يمثل عدد المسلمين مع مطلع القرن العشرين، وهم اليوم قرابة مليار مسلم.

دفتيه مفترياتٍ عن الإسلام، وأقوالاً مجحفة في حق النبيِّ صلى الله عليه وسلم، بل أقول إنها مما يتنافى مع روح المسيحية. وإنه لمن دواعي سروري أن أرى المؤلف قد ردَّ على كل نقطة دون أن يشير إلىٰ مِسْ سوبريدج أو كتابها، وما كنت أنا لأشير إليه لولا أن أسقف لندن قرَّظه ووصفه بأنَّه كتاب جميل.

أما الفقرة الأخيرة التي نقلتها من الكتاب المذكور فأحب أن أوجه النظر بصفة خاصة إلى ما ذكره المؤلف بشأنها في الصحيفة ٧٠ قال:

«ولكن بلاد العرب كانت أشد البقاع ظلاماً في أحلك عصر في تاريخ العالم فقد فشا شرب الخمر، وانتهاك العِرْض، ولعب الميسر، وكان سفك الدماء، ووأد البنات، ونهب الأموال، من دواعي الفخر عندهم ولم يكن لهم وازع خلقي أو ديني أو اجتماعي يكبح من جماحهم. ولم يكن للزواج حدود، ولا للطلاق قيود. وإلى جانب الفوضى العامة في العلاقات الجنسية، كانوا يتهالكون على الزِنا بالمحارم، وكان الأبناء ينكحون ما نكح آباؤهم من النساء. وكانت المُحْصنات من النساء لا يَرَيْن عاراً في مغازلة غير أزواجهن، بل كن يفخرن بعدد ما لهن من خليل في حياه الحليل»، ا. هـ.

وفي الختام أحب أن ألفت نظر رئيس أساقفة كنتربوري إلى أننا معشر المسلمين نكون جزءاً كبيراً من الامبراطورية البريطانية. وقد سمعت حقاً أن رعية جلالته من المسملين أكثر من المسيحيين[11]. فلعل غبطته يؤثر بنفوذه الكريم في هؤلاء الكتاب الحمقىٰ، فيكبح جماح أقلامهم التي تسيل بأقذع المطاعن مما يحول دون الوفاق وحسن التفاهم. .

* * *

(11) لقد كانت الامبراطورية البريطانية تستعمر بقاعاً كثيرة في إفريقية وآسية سكانها مسلمون، مثل: مصر، والسودان، وإيران، والهند. . .

مقدمة المؤلف

دأبت المجلة الإسلامية على أن تنشر بين الفَيْنة والفَيْنة صوراً قَلَمية في وصف المصطفى صلى الله عليه وسلم، فلما قرأها مستر كاش عقَّب عليها في كتابه المسمى (العالم الإسلامي في ثورة)، الذي نشره حديثاً، بأننا نصور النبي صلى الله عليه وسلم بصورة عليها مِسْحة من المسيحية.

والحق أن الغرب لم يعرف الإسلام ورسولَ الإسلام على حقيقتهما إلا منذ عهد قريب جداً. وجُلُّ ما كان يعرفه الغرب عنهما لم يكن سوى أساطيرَ من نسج الخيال حيكت خيوطُها بإتقان، وافتراها قوم لا ضمير لهم ولا وجدانَ. ولكن سرعان ما تجلت صورة الحق في جمالها الطبيعي حتىٰ بهرت أبصار الأعداء، وفضحت زَيف ما كتبوا وسطروا، وهدمت صرح ما بَنَوْا وشيّدوا. وتبدت لهم صورة الحق رائعة ساحرة، تأخذ بمجامع القلوب، وتستأسر أحداق العيون، فلم يستطيعوا أن يجدوا فيها مأخذاً ولا إلى النقد منفذاً، وما كان جوابهم إلا أن قالوا: «صورة محمدية مستعارة من المسيحية». ثم قالوا: لا جدال أن هذه الصورة رائعة الحسن والجمال، فلا يمكن أن يكون مصدرها الإسلام. تلك كانت حجتهم التي وجدوا فيها بعض سلوة وعزاء. ثم بدا لهم من بعد ما رأَوا الآيات أن حجتهم داحضة، وأن

قضيتهم خاسرة، فنكسوا على رؤوسهم، ولاذوا بأذيال دعوى جديدة فقالوا «إسلام جديد ومحمد جديد». تلك هي صيحتهم اليوم. وما كنا لننتظر منهم أكثر من هذا الثناء، وقد قبلنا ما قالوه على هذا الاعتبار(١).

نعم لن يزال ذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم جديداً على أسماع أهل الغرب. مثله في ذلك كمثل زهرة جميلة كأجمل ما أنت راءٍ في زهور الطبيعة. كلما مرت عليها الأيام زادت حَلاوةً وطلاوة، وكلما مرت عليها الأيام زادت غَضَارةً ونضارة. والواقع أن ما يراه الجاهل قبيحاً منفِّراً، يراه العالم جميلاً ساحراً. وكلما أنعم النظر فيه تبدَّت له محاسنهُ.

وإنه لمن دواعي الأسف أنه ليس الجهلُ وحدَه هو الذي حجب أنظار أهل الغرب عن مشاهدة أنوار المصطفى صلى الله عليه وسلم، بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون من افتراء الكذب، وتحريف الوقائع، وكتمان الحقائق.

إن دعواهم «محمد جديد وإسلام جديد» ليست صيحةً جديدةً بل هي صدى للصيحة القديمة التي تتردد في الغرب كلما ظهر في أوروبة أحد المعجبين بالنبي صلى الله عليه وسلم، ممن لا يخشون في الحق لَوْمة لائم. ومن قبلُ ما قالوا عن (جيبون) (1) إنه «كاتب وثني» لأنه أثنى على النبي صلى الله عليه وسلم، وقال كلمة الحق عن حالة المسيحية وقت مبعثه، مما لم يرق في نظرهم.

ولما جاء كارليل(2)، وكشف النقاب عن الجمال المُحَمَّدي وجَلاّه

(١) An Urgent Call للمؤلف.

(1) جيبون (ادوارد): [١٧٣٧ ـ ١٧٩٤] مؤرخ انكليزي، ألَّف «تاريخ تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها» الّذي لقي استحساناً عظيماً.

(2) توماس كارليل: ولد بجنوبي اسكتلاندة سنة ١٧٩٥ م، عاش ستة وثمانين سنة، قضاها=

لأعين الغربيين، هبت في وجهه الصيحةُ القديمةُ بعنف حتى اضطُرّ عميدُ جامعة إدِنْبره[3] أن يذعن لها، واضطر على الرغم من قوة شكيمته أن يخفف من لهجة ثنائه فيما بعد. ولكنه على كل حال فتح أعيناً عُمْياً وآذاناً صُمّاً. وأعقَب كتابه (الأبطال وعبادة الأبطال) ما كتبه هِجْنْز وديفونبرتْ وبوزوِرْث سمِث في انجلترة، وكرهْل وجريمِنس في ألمانيا. أما الكتاب العظيم الذي ألفه كَيْتاني [4] الإيطالي فيرى علماء الغرب أنه هدم الدعاوى المتكررة التي يحتج بها النصارى على الإسلام. وجملة القول أن نظرة الغرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد تغيرت، فلم يعد في نظر الغرب دجالاً بل مصلحاً عظيماً، ولم يعد مصاباً بمرض عصبي، يشكو من الصَّرع، بل رجلاً ذا شخصية عظيمة وعزيمة ماضية. ولم يعد ملكاً مستبداً يسعى وراءَ مآربه الشخصية، بل حاكماً مستنيراً يغمر الرعية بحبه وفضله. ولم يعد رجلاً وصولياً، بل نبياً ذا مبدأ ثابت لا يحيد عنه ولا يتزحزح. كل هذا قد اعترفت به أُوروبة اعترافاً صريحاً[١].

على أن هذا الاعتراف لم يعكِّر من صفو أعداء الإسلام، طالما كان مطوياً في بطون الكتب، لا يعرفه إلا القليل من أهل العلم. ولكن النهضة الحديثة التي عمَّ نورها أهلَ الغرب، وفتحت أعينهم على مزايا الإسلام، هي التي أشاعت الاضطراب في معسكر الأعداء.

ولو أنهم تأملوا الصورة التي جلَوْنا فيها مناقب النبي صلى الله عليه وسلم، ونشرناها في المجلة الاسلامية لَبَان لهم أنها صورة سوية لا شية فيها.

= في وضع التآليف الجليلة بين فلسفة وتاريخ، أشهر مؤلفاته كتاب «الأبطال»، الذي ترجمه إلى العربية محمد السِّباعي، ونشرته: دار الكاتب العربي.

(3) إدِنْبرة: Edinburgh عاصمة اسكتلاندة، عند مصب نهر فورث، مشهورة بجامعتها وكاتدرائيتها وصناعاتها.

(4) كَيْتاني (الأمير ليوني) [١٨٦٩ ـ ١٩٢٦ م]، ولد في رومة، تعلَّم سبع لغات منها العربيَّة.

(١) السيد خوده بَخْش ـ صحيفة المعهد الإسلامي ـ كلكتا.

ولكن يظهر أنها نفذت إلى أعماق قلوبهم بدليل قولهم: إنَّنا نحاول التدليل على أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى للإنسانية من الوجهة الخلقية وأننا لجأنا في سبيل ذلك إلى تصويره في صورة جديدة استعيرت ألوانها من المسيحية(١).

وإني أرجىء الآن الكلام على النبي صلى الله عليه وسلم، لأوجه هذا السؤال إلى المسيحيين بصفة جديدة فأقول: «هل يوجد في المسيحية من الألوان، ما يُسْعف ريشة المصور، في رسم صورة سَوِيَّة تصلح أن تكون مثلاً أعلىٰ للانسانية؟».

الواقع أنني لا أستطيع أن أفهم معنى كلمة «مسيحي» التي يستعملها هؤلاء القوم، لقد أصبحت تلك الكلمة مَرنة، تُطلق على كل شاردة وواردة، حتى أوشكت أن تكون كلمة جوفاء لا طائل تحتها، فترى المبشرين المسيحيين يطلقون هذا اللقب على كل ما يروق في نظرهم، وإن لم يرد له ذكر في كتابهم. مثال ذلك مركز المرأة في المسيحية، لم تكن المرأة في مركز تحسد عليه حين ظهر المسيح عليه السلام، بل كانت تُعد في شريعة اليهود، وما جرىٰ عليه العمل عند هؤلاء القوم الذين انهمكوا في الشَّهوات والملذات، متاعاً من أمتعة البيت، يمكن المقايضة بها وانتقالها من يد إلى يد، ولا يبدو أن المرأة ظفرت بكثير من اهتمام المسيح، أو حظيت بعطفه، ولم تؤثر عنه كلمة واحدة تشير إلى تحسين حالها، ثم جاء القديس بولس وما قاله في المرأة من قوارص الكَلِم أشهر من أن يذكر، أما الآباء المسيحيون الأولون فقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك، وقالوا على المرأة بهتاناً عظيماً. واستمر الحال على ذلك إلى الوقت الحاضر، إذ بدأت المرأة تثبت وجودها، وقد

(١) The Moslem World in Revolution p. 87.

ساعد الاتصال الثَّقافي بين الغـرب والإسلام ولا سيمـا في أيام الحـروب الصليبية، على انتقال نظام الفروسية ومثلها العليا من الشرق إلى الغرب.

ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إنني لم أجد في تعاليم المسيحية ما يشير إلى تحسين حال المرأة. ولا أقصد بالتعاليم المسيحية ما ينادي به الوعاظُ على أعواد المنابر اليوم، فإن الآراء المسيحية السائدة في القرن العشرين تخـالف على خط مستقيم آراء السلف الأول من المسيحيين، «فمـا يـراه المسيحي المتدين اليوم من أن المسيحية دين الفرد، أي أن للفرد أن يعتقد ما يستحسنه من المبادىء كان يُعدُّ في نظر المسيحيين الأول ضرباً من الهُرَاء»(١) كلا! فأنا أقصد بالتعاليم المسيحية تعاليم المسيح نفسه، أو ما يمكن استنباطه عقلاً من أقواله وأفعاله. أما ما سكت عنه، ولم يتعرض له فكـل ما يقـوله الكتاب المسيحيون فيه الآن، لا يجوز أن يُسمى تعليماً مسيحياً. وتـاريخ المسيحية خيرُ شاهد على أن المسيحيين يعاملون المرأة أسوأ معاملة. ومع ذلك قرأت في كتاب (الحياة) الشهير الذي ألفه (دين فارار) أنَّ المسيحية «أعلت من شأن المرأة ورفعت من قدر الرجل، وأحاطت حياة الطفل بهالة من البراءة»، فيا ليت شعري متى وأين حققت المسيحية هذه الأغراض قبل اليوم؟ فمن المعلوم أن الأفكار والمثل العليا الحديثة قد جاءت من مصادر أخرى غير المسيحية.

ولا ريب أن الدين الذي يقرر أن الطفل يولد ملوثاً بدنس الخطيئة، أوْلَى أن يسلبه البراءة من أن يحيطه بهالة منها. جـدير بهؤلاء الكتـاب أن يحترموا التاريخ ويدرسوه بعناية، وجدير بهم أن يـرددوا النظر كَـرَّتَيْن فيما تنطوي عليه مبادىء دينهم قبل أن يقولوا ما يقولـون. إن المبدأ المسيحي

---

(١) Rise of Christianity, by Kalhoff.

القائل بالخطيئة الأصلية، ليس من شأنه أن يُعْلي من قدر الرجل أو الطفل، كما أن مبدأ (الحبل بلا دنس) لا يرفع من قدر المرأة.

ومن الخصال الممقوتة في بعض الكتاب، الذين يتَصَدّون للدفاع عن المسيحية، أنهم يحاولون ـ مع الأسف ـ رفع قدرها على حساب غيرها، ويبيِّضون وجهها بتسويد وجه غيرها، ويحافظون على حقها بغمط الناس حقهم، ويؤلهون ربهم بالطعن في أنبياء غيرهم، ولهم طريقة طريفة في تقرير الوقائع، لأنهم يعلمون أنه لا يمكنهم الاستنادُ إلى حقائق ثابتة في التاريخ، وعندهم أن للتكرار قوة تعادل قوة الدليل، فتراهم يرددون الدعاوى، ويتجاهلون الحقائق التي تدحضها، ويرون ذلك وسيلة كفيلة بإقناع الألوف من السُّذّج. وهكذا اتخذ هؤلاء الكُتَّاب ذلك شرعة لهم ومنهاجاً، يخدعون الجمهور لكي يصلوا إلى الغاية المنشودة، وإليك بيان الطريقة التي دأبوا عليها في نقد الديانات الأُخرىٰ: يشير أحدهم إلى فكرة ما من طرفٍ خفي، ويليه آخر فيقرر أن هذه الفكرة جائزة، ويأتي ثالث فيرفع هذا الجواز إلى مرتبة (النَّظرية)، وأما الرابع فيخلق من النظرية (حقيقة)، وهكذا تتطور الفكرة أربعة أطوار أو خمسة حتى ينتهي بها المطاف إلى أن تصبح حقيقة مقررة، وبخاصة إذا كان الأمر يمس إحدى الديانات أو المدنيات التي يتوفرون على نقدها[1].

---

(١) للأستاذ مرغليوث جولات خاصة في هذا الميدان. وإن كل ما يكتبه هذا الرجل يثير في نفسي الدَّهشة. ولست أشك أنه يجمع بين الجهل وسوء الطَّوِيَّة، فنراه مثلاً يذكر تأييداً لدعواه كلمة «قرزي» (Querazite) بدلاً من قرشي (Qurashite). وقد يكون ذلك زلة قلم أو من قبيل السَّهو. ولكن لما كان هذا التَّحريف يضفي على الرواية التي يحكيها لوناً جديداً لا يسعني إلا أن أقول إنَّه أخطأ أو تعمَّد التَّحريف. وإنَّه لحري بكل مسلم أن يظهر الأستاذ مرغليوث للناس في ثوبه الحقيقي. ولكن ليس هذا هو المقام المناسب لذلك، وحسبي أن أُشير هنا إلى الدور الذي قام به في الدعاية ضد الإسلام على النحو الذي=

على أنه يجب ألا يغرب عن بال المبشرين المسيحيين، أن الفضائل والأخلاق لا يمكن تلخيصها في عبارات قليلة وضعيفة، وأنّ للأخلاق والفضائل الإنسانية نواحيَ لا تشير إليها الأناجيل المدوَّنة، ولست أريد أن أقول أكثر من ذلك في هذا الموضوع، فإن الكلام لا يأتي بفائدة، فضلاً عن أنَّ الآراء الشخصية مهما كانت حقة وعادلة تولِّد الأحقاد في النفوس، كما أن المقارنة بين هذا الدين وذاك، هي دائماً من الأمور المستهجنة. لذلك أريد أن أجادل هؤلاء القوم على النحو التالي:

= أشرت إليه آنفاً، فمنذ شهور قلائل جاء الدكتور منجانا(5) بقصة فحواها أنه عثر على ترجمة سُرْيانية للقرآن الكريم سقط منها بعض أجزائه، يريد بذلك أن يوهم القارىء أنه ربما ضاع شيء من القرآن. وكان منجانا هذا حاول قبل ذلك أن يشكك في صحة القرآن فباء بالفشل الذريع. لذلك تراه الآن يحاذر أن يجازف برأي، بيد أن «وضع العربة أمام الجواد» طريقة طريفة في إقامة البرهان. على أن هذا الأمر لا يعنيني الآن لأني أحب فقط أن أبين للناس عادة هؤلاء الدعاة وطريقتهم الفذة في خلق «قُبَّة من حَبَّة». وقد ضربت المثل بهذين السَّيِّدين بنوع خاص لأنهما فَرَسا رهان في هذا الميدان. يشير الواحد إلى فكرة ما، ولكي يوحي الثقة إلى القارىء الحريص يحاول أن يصوغ فكرته في عبارة تنطوي على الحذر. وهو يعلم تمام العلم أن زميلاً له من حملة الأقلام (إذا جاز هذا التعبير)، سيتقدم ليتمم ما بدأه هو من ابتكار وسيلة تتحول بها إشاراته وتلميحاته الخفية إلى مرتبة الحقائق الثابتة (فيما هو ظاهر)، ولكي أزيد الأمر إيضاحاً أذكر أن الدكتور منجانا نفسه شديد الارتياب في قدم هذه الترجمة السُّريانية المزعومة. وإني أنقل للقارىء ما قاله بنصه وفصه «نحن أشد الناس إدراكاً لخطورة ما أشرنا إليه آنفاً من قدم الترجمة السُّريانية، ونرجو أن يكون ما حرصنا عليه من دقة التعبير رادعاً قوياً كما يقول المثل السُّرياني لكل عالم عربي أو سرياني سواء أكان مسلماً أو مسيحياً يحاول أن يتهمنا بعدم الحذر أو التسرع في الحكم. ونحن الآن أمام نص سرياني لا نعرف على وجه =

(5) ألفونس منجانا Alphonse Mingana: [١٨٨١ - ١٩٣٧]، مستشرق، كان أبوه قسيساً من قساوسة الكنيسة الكلدانية المتَّحدة مع رومة، وتعلَّم من ١٨٩٣ إلى ١٩٠٣ في المعهد السُّرياني الكلداني للدَّعوة في الموصل، سافر إلى لندن سنة ١٩١٠، وعمل في مكتبة جون رايلند الشَّهيرة بمخطوطاتها العربية والسُّريانية، (موسوعة المستشرقين ٣٩٨).

سأصف باختصار في هذه الصفحات أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله، وسأدعِّم أقوالي بالإشارة إلى أعماله وأفعاله التي دُوِّنت في الكتب الصحيحة. ومع أن الكتاب المقدس مطعون في صحته بصراحة، فسأستشهد بما ورد فيه عن السيد المسيح على أنه صحيح، وحينئذ يصبح من الميسور على النقاد أن يحكموا ما إذا كان وصفي للنبي صلى الله عليه وسلم فيه شيء مستعار مما وُصِف به المسيحُ في الكتاب المقدس. وإني أؤكد لهم

= الدِّقة صفته وكنهه، وقد ذكرنا أسباباً تحمل على الاعتقاد بأنه لم يصدر عن بارساليبي (Barsalibi) **ولكنا لا نستطيع الجزم في ثقة بوقت ظهوره بالضبط.**

والآن أنقل للقارىء كلام الأستاذ مرغليوث في مقالته (اختلاف القراءات في القرآن)» قال: «لم نتعرض حتى شهر يناير في هذا العام إلى نقد أية نسخة قديمة للقرآن. وقد عثر الدكتور منجانا على نسخة سريانية **عريقة في القدم** ووصفها في نشرة مكتبة جون رايلاند، فله فضل السبق في هذا الأمر. وقد لفت المؤلف نفسه النظر في كتابه (صحائف من ثلاثة مصاحف قرآنية قديمة)» إلى وجود اختلافات ذات بال في المخطوطات القديمة».

(العالم الإسلامي مجلد ١٥ رقم ٤ ص ٣٣٤)

إن الإنسان ليحار في فهم المعيار الأدبي الذي يتوخاه المؤلف فيما يكتب عن الإسلام. فالأمر الذي يشك في قدمه نفس الشخص الذي عثر عليه يصبح أمراً عريقاً في القدم عند مرغليوث في أقل من عام.

وتعتبر الجملة الأخيرة فيما اقتبسناه من كلام مرغليوث مفتاحاً لسر الموقف الحقيقي، فإن الدعاية التي قامت على تلك الصحائف المزعومة قد تخلى عنها صاحبها لأنه قطع الأمل منها. ولكن ها هو ذا آخر يقوم فيذكرها بعبارات لا لبس فيها ولا إبهام. وإني لأتوقع أن يقوم ثالث يكتفي باقتباس هذه العبارة من كلام مرغليوث (اختلافات ذات بال في المخطوطات القديمة) وبذلك تصبح حجة في التدليل على عدم صحة القرآن كالكتاب المقدس.

هذا هو الأسلوب الذي يلجأ إليه هؤلاء الحذاق في استغلال جهل الجماهير، فليتدبر مرغليوث الأمر قبل أن يقدم على أمر جديد. أليس قد وضع في يد الخصم سلاحاً يحارب به القرآن؟ إن ما كتبه منجانا قد يختفي، ولكن اسمه سوف يحتج به في تأييد هذا الزعم الذي لم يقله. فهل يليق بمرغليوث أن يستعمل عبارة «عريقة في القدم» مع أن الدكتور منجانا نفسه لم يقل ذلك، بل يرى خلاف هذا الرأي؟

أنهم لن يجدوا في الكتاب المقدس عشر ما سيقرؤونه عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الصفحات.

ولست أول من كتب في هذا الموضوع، فإن كثيراً من العلماء من عرب وعجم وهنود في كل العصور، قد أشادوا بفضائل النبي صلى الله عليه وسلم ومناقبه(١). وكل ما صنعته أنني ترجمت بعض ما كتبوه، فمنهم الإمام الغزالي

---

(١) يمكن أن يقال مثل ذلك عن كثير من الأوربيين. وإني أذكر على سبيل المثال دكتور غوستاف وُل ومستر بول. فهل يقول مستر كاش أن هؤلاء أيضاً قد خلعوا على محمد صلى الله عليه وسلم أوصافاً مسيحية؟ جدير به أن ينعم النظر قبل أن يجرؤ على هذا الزعم.

يقول مستر بول: «لقد حباه الله بحظٍ وافر من الرِّقة والحنان، وقسط كبير من الشجاعة وثبات الجنان، حتى ليحار المرء إزاء ما يستولي عليه من شعور الحب والاحترام اللذين تبعثهما في النفس هذه الشخصية الفذة. فهو الذي واجه بشجاعة عداوة قومه عدة سنين. وهو الذي لم يكن لفرط رقته ورحمته ينزع يده من يد من يصافحه حتى يرسلها الآخر. كان يحب الأطفال، لم يمر على جماعة منهم دون ابتسامة رقيقة، ونظرة رائعة، وكلمة لطيفة يزيدها لطفاً ما حباه الله به من صوت رخيم. ولا ريب أن ما كان يتحلى به من الصحبة الصادقة، والسخاء الفياض والشجاعة التي لا تعرف الخوف، والرجاء الذي لا يمازجه اليأس، يحمل عدوه على الإعجاب به. كان شديد الغيرة في الحق شأن عظماء الرجال. تلك الغيرة التي تحمي الإنسان من الموت وهو حي. وكثيراً ما تكون الغيرة مشوبة بالحقد لا سيما في سفاسف الأمور. وما هكذا كان شأن محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد كان شديد الغيرة على الحق حينما تكون الغيرة هي الوسيلة الوحيدة لإيقاظ الشعور والوجدان. وكان عالي الهمة يرنو بعزمه إلى معالي الأمور. وكان من أولئك السُّعداء القلائل الذين يغتبطون أيما اغتباط بتكريس حياتهم للجهاد في سبيل إحدى القضايا الكبيرة. كان [محمد] رسول الله الذي لا إله غيره. لم ينس قط إلى آخر يوم في حياته أنَّه رسول الله. ولم ينس قط تلك الرسالة التي كانت لحمة حياته وسداها، وبلغ الرسالة إلى قومه محتفظاً بعزة نفسه لشعوره بمنصبه الرفيع، وهو مع ذلك جم التواضع لاعتقاده أنه من جنس البشر».

ويقول دكتور وُل:

كان محمد (صلى الله عليه وسلم) أسوة حسنة لقومه. كان خلقه نقياً من كل دنس، مبرأ من كل عيب، وكان ملبسه ومطعمه يمتازان بالبساطة النادرة. وكان متواضعاً يكره الادعاء =

الذي أثنىٰ كتاب الغرب على عبقريته وعلمه وتقواه، على أن ما ذكره الغزالي عن النبي صلى الله عليه وسلم هو في حدِّ ذاته مقتبس من صحيح البخاري ومسلم وغيرهما من كتب الصحاح الستة، وهي الكتب التي لم يتعرض أحد للطعن في صحتها.

وقد ألفت كتب عدة في السِّيرة النَّبويَّة، منها ما ألف في القرون الإسلامية الأولى وفي طليعتها كتب السِّيرة والمغازي. ومع ذلك يجب قبل الرجوع إليها في هذا الموضوع أن يُراجعَ ما فيها على ما ورد في كتب السُّنَّة.

وقد قال بحق الحافظ زين الدين العراقي ـ وهو أحد المحدثين ـ المشهورين في كتابه (الألفية في السيرة):

وَلْيَعْلَمِ الطالبُ أنَّ السِّيَرَا تَجْمَعُ ما صَحَّ ومَا قَدْ أُنْكِرَا

وذلك أن كتب السيرة والمغازي خلت من الدقة في الجمع والتأليف، فتسرب إليها كثير من الأخبار التي لا يعتد بها مما هو من نسج الخيال. ومن جهة أخرى تضم كتب الحديث ما رواه زهاء ١٣٠٠٠ ألف شخص شاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم وخاطبوه، مما دون وانتقل إلينا. وإذا أردنا أن نعرف ما إذا كان أحد الرواة من الثقات العدول، وجب أن نرجع إلى فرع خاص من فروع آداب اللغة العربية يسمى (أَسماء الرجال) أعني أسماء الذين خاطبوا النبي صلى الله عليه وسلم أو رأوه. فهذه الكتب تحدثنا عن سيرة رواة

= فلا يقبل من أصحابه مظهراً خاصاً من مظاهر الاحترام. ولم يكن يسمح لخادمه أن يصنع له شيئاً يستطيع هو أن يصنعه بنفسه. وكثيراً ما رآه الناس في الأسواق يشتري حاجاته بنفسه وكثيراً ما كان يرقع ثوبه في حجرته أو يحلب عنزته في فناء داره. وكان قريباً من الناس في كل وقت، يعود المرضى ويعطف على الجميع، ولم يقف جوده وإحسانه عند حد. وكذلك اهتمامه بأمر المسلمين. وعلى الرغم من الهدايا التي كانت تنهال عليه من كل حدب وصوب لم يترك بعد موته إلاَّ القليل. وحتى هذا القليل كان يعده مُلْكاً للدَّولة.

الأحاديث، ومنها نعرف الجرح والتعديل.

وقد قضى آلاف من المحدثين جميع حياتهم في تحصيل هذا العلم، وتجشموا مشاق الأسفار البعيدة للاجتماع بكل من يعرف شيئاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا يجتمعون بهم ويتحرَّون أخبارهم وصناعتهم، ويسألون: هل هذا الرَّاوي ثقة؟ هل هو ضابط؟ هل هو عدل؟ فإذا لم تتوافر فيه هذه الشروط رفضوا روايته.

أُلِّفت كتبُ الصِّحاح السِّتَّة على هذا النحو من تمحيص الحقيقة، وأصبحت هذه الكتب أساساً لكل ما كتب في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم. أما كتب المغازي فلم تلقَ قبولاً من علماء المسلمين ومحدثيهم، ولم يُعدّ مؤلفوها من العدول الثقات، ومن هؤلاء الواقدي وكاتبه اللَّذان يعتبران في العالم الإسلامي أقلّ الرواة ثقة، وأبعد كتاب السِّيرة عن مراعاة الدقة. ويقول ابن خَلِّكان عن الأول «وضعَّفوه في الحديث وتكلموا فيه» ويقول الإمام الشافعي وهو أحد الأئمة الأربعة[6] عند المسلمين: «كُتُب الوَاقِديِّ كلُّها كَذِبٌ»، ويقول محدثون آخرون مثل هذا القول. ومما يؤسف عليه أن يكون هذا الواقدي هو الحجة الأكبر عند بعض الكتاب الأوروبيين الذين يعالجون الموضوع بروح خبيثة، ولأسباب لا تخفىٰ على أحد، ففي وسعهم أن يجدوا فيما رواه هذا الكاتب الخيالي عن الغزوات مادة يتخذونها سلاحاً للتشهير بالنبي صلى الله عليه وسلم، بعد أن يدخلوا عليها قليلاً من التحريف.

---

(6) الأئمة الأربعة:

محمد بن إدريس الشافعي (٧٦٧ ـ ٨٢٠ م)
أحمد بن محمد بن حنبل (٧٨٠ ـ ٨٥٥ م)
أبو حنيفة النعمان بن ثابت (٦٩٩ ـ ٨٦٧ م)
مالك بن أنس (٧١٥ ـ ٧٩٥ م).

في شهر أغسطس الماضي نشرت بعض الصحف اليومية مقالاً يفتري فيه كاتبه على النبي صلى الله عليه وسلم، واستشهد فيه بالأستاذ مرغليوث، وهذا استشهد بالواقدي، فسألته في ذلك، فكان الجواب ما كنت أتوقعه؛ فذكرت له أن اختياره وقع على كذاب مشهور. وإني لأرجو أن يكفر الأستاذ المذكور عن سيئآته في المستقبل. ولقد قال كاتب بحق في المجلة الاسلامية (مجلد ١٣ رقم ٢) «لقد ولَّى الزمن الذي كان يقول فيه أحدهم شيئاً في أحد أركان المعمورة، فلا يرتفع صوت احتجاج عليه، أما اليوم فالعالم كله أُذُن واحدة».

وقبل أن أختم كلمتي يجب أن أعترف بأني مدين للسيد عبد المجيد الحاصل على درجة أستاذ في الآداب، ومن أعضاء البعثة الاسلامية في ووكنج، والسيد عبد الخالق خان، الحاصل على درجة بكالوريوس في الآداب وعضو الجمعية الآسيوية الملكية بلندن، والمبشر المسلم من جماعة البُهَرَة(7)، لِمَا أسدياه إليَّ من خدمة في ترجمة بعض الأحاديث النبوية من النَّص العربي، وفي قراءة تجارب الكتاب، جزاهم الله خيراً عما أَسدوه إليَّ من معونة قيمة.

وإني لشاكر أيضاً لإخواني المسلمين الذين لبوا ندائي، ومدوا لي يد المساعدة المادِّيَّة، وأتاحوا لي إيصال هذا الكتاب إلى أيدي كل من يهمهم ما يكتب عن الإسلام، وأخص بالذكر حضرة صاحبة السمو البيجوم صاحبة بهوبال(8) التي تمدني بكثير من وجوه المساعدة في إدارة البعثة الإسلامية،

(7) البُهَرَة: طائفة من الاسماعيلية تسكن الهند.

(8) بهوبال: Bhopal مدينة في وسط الهند، في منتصف المسافة بين الله أباد وأحمد أباد تقريباً، شمالي هضبة الدّكن: Decan.

كما أَخص بالذكر كذلك الدكتور سير ميلن محمد شافع، العضو الوطني في مجلس نائب الملك في الهند سابقاً والمحامي في لاهور[9]، فقد مكنني من أن أُرسل عدة مئات من نسخ هذا الكتاب هدية إلى مختلف المكتبات في الغرب.

[خوجة كمال الدِّين]

(9) لاهور Lahore مدينة في باكستان حالياً، على حدودها الشمالية الشرقية مع الهند.

صورة قلميّة

فيمـا يلي صورة قَلَميـة للنبي صلى الله عليه وسلم حسبمـا ورد في صحيح البخاري وغيره[1] لتكون بديلاً من الصورة الشمسية.

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطويل البائن[2] ولا بالقصير المتردد[3]، بل كان ينسب إلى الرَّبعة[4] إذا مشىٰ وحده. ومع ذلك لم يكن يماشيه أحد ممن ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول صلى الله عليه وسلم «جُعل الخير كله في الرَّبْعة».

وأمـا لونـه فقد كـان أزهر اللَّون، ولم يكن بـالآدم[5] ولا بالشـديد البياض. والأزهر هو الأبيض الناصع، الذي لا تشوبه صفرة ولا حمرة، ولا شيء من الألوان، ونعته بعضهم بأنه مُشْرب بحمرة. وللجمع بين القولين

---

(١) كالشمائل للترمذي ومسند الإمام أحمد وصحيح مسلم.

(٢) البائن: فاحش الطول.

(٣) المتردد: المتناهي في القِصَر الداخل بعضه في بعض قصراً.

(٤) الربعة: بين الطول والقصر، [رجل رَبْعة ورَبَعة أي مربوع الخَلْق لا بالطَّويل ولا بالقصير، اللِّسان: ربع].

(٥) الآدم: الأسمر، شديد الأدمة أي السمرة وهي منزلة بين البياض والسواد.

قالوا إنما كان المشرب منه بالحمرة ما ظهر للشمس والرياح كالوجه والرقبة والآذان، والأزهرُ الصافي عن الحمرة ما تحت الثياب منه.

وأما شعرُه: فقد كان رَجَل[1] الشعر حسنَه، ليس بالسَّبْط[2]، ولا بالجَعْد[3] القَطَط[4]، وكان إذا مُشط بالمشط يأتي كأنه حُبُك الرمل[5]. وقيل كان شعره يضرب منكبيه[6]، وأكثر الرواية أنه كان يبلغ شَحْمة أُذنيه[7]، وربما فرق عقيقَتَه[8] فِرقتين: فرقةً عن يمينه، وفرقةً عن يساره، وربما جعل شعره على أذنيه، فتبدو سوالفه[9] تتلألأ، وكان شيبه في الرأس واللحية سبعَ عشرةَ شعرة، ما زاد على ذلك.

وكان صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس وجهاً وأنورَهم، لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر، وكان يُرى غضبه ورضاه في وجهه لصفاء بشرته، وكانوا يقولون هو كما وصفه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث يقول:

أمينٌ مُصْطَفَى لِلخَيْر يَدْعُو ... كَضوء البَدْر زَايَلَهُ الظلامُ

وكان صلى الله عليه وسلم واسعَ الجَبهة أزَجَّ[10] الحاجبين

---

(١) رجل: ليس بسبط ولا جعد.

(٢) سبط: مستسرسل ليس فيه تثن أصلاً.

(٣) جعد: أي فيه التواء وانقباض.

(٤) القطط: شديد الجعودة والشعر القطط شعر الزنج.

(٥) الحبك: تكسر كل شيء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة والماء القائم إذا مرت به الريح.

(٦) المنكب: مجمع العضد والكتف.

(٧) شحمة الأذن: ما لانَ من أسفلها وهو معلق القرط.

(٨) العقيقة: شعر الرأس.

(٩) السالفة: صفحة العنق عند معلق القرط.

(١٠) الحاجب الأزج: المقوس الطويل الوافر الشعر.

سابغَهما(١)، وكان أبلج(٢) ما بين الحاجبين. وكانت عيناه نجلاوين (٣). وكان صلى الله عليه وسلم أَدعج العينين(٤)، أشكل العينين(٥)، وكان أهدب(٦) الأشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها، وكان أَقنى العِرنين أي مستوي الأنف. وكان مفلَّج الأسنان أي متفرقها، وكان إذا افتر ضاحكاً، افتر عن مثل سنا البرق إذا تلألأ. وكان من أحسن الناس شفتين وألطفهم خَتم فم، وكان سهل الخدين صلبهما، ليس بالطويل الوجه، ولا المُكلثَم(٧)، كث اللحية(٨)، يُعفي لحيته، ويأخذ من شاربه. وكان أحسن عباد الله عنقاً، لا يُنسب إلى الطول ولا إلى القصر، ما ظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه إبريق فضة مُشْرَب ذهباً، يتلألأ في بياض الفضة وفي حمرة الذَّهب، وكان صلى الله عليه وسلم أجود الصدر(٩)، عريض الصدر، لا يعدو لحم بعض بدنه بعضاً، كالمرآة في استوائها، وكالقمر في بياضه، موصولَ ما بين لَبَّته(١٠)

---

(١) السابغ: الكامل.

(٢) أبلج: أي بين حاجبيه فاصل لطيف والبلج ضد القرن وهو اقتران الحاجبين بحيث يلتقي طرفاهما.

(٣) العين النجلاء الواسعة. (المعرب)

(٤) أدعج العين: شديد سواد العين.

(٥) أشكل العين: الشكلة حمرة في بياض العين وهي من علامات النبوة كما قال الحافظ العراقي، والأشكل محبوب محمود. قال الشاعر:

ولا عيب فيها غير شكلة عينها ... كذاك عناق الخيل شكل عيونها

(٦) أهدب الأشفار طويل الأشفار وفيه حذف مضاف أي أهدب شعر الأشفار لأن الأشفار هي الأجفان التي تنبت عليها الأهداب.

(٧) المكلثم: المدور.

(٨) كث اللحية أي كثيفها.

(٩) أجود الصدر من الجودة كناية عن خلوه من الحقد والغل.

(١٠) اللبة النقرة التي فوق الصدر أو موضع القلادة منه. (المعرب).

وسُرته بشعر دقيق كالقضيب، لم يكن في صدره وبطنه شعر غيره، وكان عظيم المنكبين أشعرهما، ضخمَ الكراديس أي رؤوس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين، وكان واسع الظهر، ما بين كتفيه خاتم النبوة، وهو مما يلي منكبه الأيمن، فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها من عُرف فرس. وكان عبل[1] الذراعين والعضدين، طويل الزندين[2] رحب الراحتين، سائل الأطراف[3] كأن أصابعه قضبان الفضة، كفه ألين من الخزّ، كأن كفه كف عطار، مسها بطيب أم لم يمسها، وكان عَبل ما تحت الإزار من الفخدين والساق وكان معتدل الخَلْق في السِّمن، بَدُن في آخر زمانه.

وأما مشيه صلى الله عليه وسلم فكان يرفع رجله من الأرض بهمة وقوة، ويمشي في تثبت وأناة، ويميل إلى سَنَن المشي وقصده أي إلى قدام، كالسفينة في جريها. ويمشي الهُوَينىٰ بغير تبختر، والهوينى تقارب الخطى.

وكان صلى الله عليه وسلم يقول أنا أشبه الناس بآدم صلى الله عليه وسلم. وكان أبي إبراهيم صلى الله عليه وسلم أشبه الناس بي خَلْقاً وخُلُقاً[1].

---

(١) عبل أي غليظ.

(٢) طويل الزندين أي الذراعين.

(٣) سائل الأطراف أي طويل الأصابع.

(1) لصفة النبي صلى الله عليه وسلّم، انظر: الطبري ٣/١٧٩ (طبعة دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٢م)، والبداية والنهاية ٦/١١ (كتاب الشّمائل) طبعة المعارف ـ بيروت، والكامل في التاريخ ٢/٢٠٨، طبعة إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٩ هـ، والطبقات الكبرى لابن سعد ١/٤١٠، طبعة دار صادر ودار بيروت ١٣٨٠ هـ/١٩٦٠ م...

الباب الأول

الإله المتجسد لا يصلح أن يكون مثلاً أعلى للبشر

كـان من نتيجة الحـرب العالميـة(1) أَن جعلت الناس أوسـع نـظراً وأصـح حكماً. وذلـك أن الحرب مهـدت سبل الاتصـال بين النـاس من مختلف الملل والنِّحَل، وتفتحت أعين الذين قسموا العالم إلى معسكرين متعارضين؛ مسيحي ووثني، فصاروا يقدرون ما في الأديان الأخرىٰ من محـاسن ومزايـا، وبذلـك اتسع الأفق الـديني لدىٰ الغـربيين، وانتشـرت الأفكار التي كانت وقفاً على الطبقة المفكرة المستنيرة، وانبعث في الغرب شعور ديني جديد، وتغيرت الآراء الدينية تغيراً يكاد يكون فجائياً، وتم في بضع سنين ما كان يحتاج إلى قرون «وصارت الكنيسة مُبَغَّضة إلى القلوب، وخَلَت فيها المقاعد من المصلين»(١)، مما يدل على انصراف الناس عن العبادة وزهدهم في الدين، كما يدل أيضاً على اتجاه المفكرين العصريين. أما عـامة النـاس من غير رجـال الدين فيـودون «لو أن تعـاليم المسيح عليه السلام تجردت من العقائد الدخيلة عليها»(٢) ويـودون لو أن

---

(1) الحرب العالمية الأُولىٰ ١٩١٤ ـ ١٩١٨ م.

(١) رئيس أساقفة يورك.

(٢) هيو والبول (Hugh Walpole).

المسيحية تجرَّدت من «المبادىء الَّتي أُدخلت عليها لغرض خاص، وقد زال الآن[١]» ألا وهو ترويج الدين المسيحي بين الوثنيين. فلهذا الغرض أدخلت في دين المسيح البسيط عقيدة (الإله المُتَجَسِّد) وما يتبعها من الطقوس الدينية، وقد ظلت هذه العقائد الدخيلة حقبة طويلة من الزمن حجاباً كثيفاً يخفي حقيقة الدِّين. أمَا وقد استنفدت هذه العقائد الدَّخيلة أغراضها، فقد أصبحت غيرَ ذات موضوع، فما كان جميلاً بالأمس قد صار قبيحاً اليوم، وصار (بيت الكنيسة) - إذا جاز هذا التعبير - في حاجة إلى إعادة تنظيمه من جديد.

وقد أخذ المجدِّدون من رجال الكنيسة الإنجليزية على عاتقهم القيام بذلك التنظيم، ويبدو أن الجمهور لم ينزعج كثيراً لهذه الحركة، وبذلك تقوض في بضع سنين ذلك الصرح الذي ظل مشمخراً ثمانية عشر قرناً، ومع ذلك فالرجل المسيحي العادي يغدو ويروح إلى عمله هادىء البال، مطمئن النفس، ولم تعد فكرة الإله المعذَّب مثلاً أعلىٰ في نظر المفكرين من غير رجال الدِّين، بل صاروا يرون أن فكرة الإله المصلوب فكرة سخيفة جديرة بأن تستهوي خيال الأطفال، وتستسيغها عقول الذين يحبون أن يتخلصوا من أوزارهم ليطرحوها على كاهل غيرهم. أمّا ما عدا ذلك من العقائد الأُخرىٰ في المسيحية فإنَّ القصة التي جاء بها بولس عن غضب الله على عباده، وتضحية عيسىٰ بنفسه للتكفير عن خطاياهم - هذه القصة قد تسربت إلى المسيحية من الديانات الأخرى القديمة [2].

(١) ربيكا وست (Rebecca West).

(2) يقول السَّيِّد المسيح في إنجيل متَّى ٢٦/٤٦ وفي إنجيل مرقس ١٥/٣٤ حرفياً: «إلُوي إلُوي لَمَا شَبَقتني. الَّذي تفسيرُهُ إلهي إلهي لماذا تركتني؟» أي لِمَ تركتني أُقتل - حسب اعتقاد النصارى - إذن قُتِل بغير إرادته، فهل مات إذن ليكفِّر خطايا البشر؟!

وقد ثبت أن العالم القديم كان فيه كثير من الآلهة المتجسدة[3]، وثبت أن فكرة الإله الَّذي يتحمل الآلام، ويقوم بدور المخلص والوسيط بين الله والناس ظهرت بصور مختلفة في كثير من أنحاء العالم وفي كثير من العصور، فكان يسمى (مِثْرا) عند الفرس و(بَعْل) عند البابليين وفي فريجية كان يسمى (أتيس) وفي سورية (أدونيس) وفي اليونان (باكاس) وفي مصر (هوراس)، وكان قسطنطين يعتقد ذلك في (أبولو)، فلما خلا مكانه أقام مقامه المسيح، وذلك لتحقيق أغراضه السياسية البعيدة.

ويؤخذ من الأساطير القديمة أن (أبناء الله) هؤلاء وُلِدُوا جميعاً من رحم عذراءَ في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر أو حوالي هذا التاريخ، وكلهم جاؤوا بفكرة التضحية، وكلهم ماتوا لإنقاذ الإنسان من الهلاك الأبدي، وكل واحد منهم مات في يوم الجمعة السابق على أحد الفصح، وكلهم دُفنوا إلا أنهم بعثوا بعد يومين، وألفوا طوائف من القديسين تنتظم فيها الأتباع بالتَّعميد، وتقام ولائم العشاء الرباني لتخليد ذكراهم. واليوم يعلم الناس جميعاً أن هذه العقائد كلها كانت مجرد أفكار خرافية أخذت من مذهب عبادة الشمس، وأُدخلت في دين المسيح[١].

ومن الخطأ أن تسمى هذه العقائد بعلم اللاَّهوت، فما هي إلاَّ رجس من عمل الشيطان، كما يقول ترتليان[٢] وجستِنْ مارتر[٣]. على أنه لا يهم

(3) انظر الفصل الرابع عشر (مجيء الآلهة المتجسِّدة إلى هذا العالم ثانية) في كتاب «العقائد الوثنيَّة في الديانة النَّصرانيَّة» لمحمد طاهر التَّنير.

(١) مصادر المسيحية للمؤلف.

(٢) إن الشيطان الذي يعمل لصد الناس عن سبيل الحق يحاكي بدقة الأسرار المقدسة في الطقوس الدينية السرية عند عبدة الأوثان فهو نفسه يعمد البعض أعني أصحابه وأتباعه، ويعدهم بغسل خطاياهم من الحوض المقدس، وبذلك يدخلهم في دين «مثرا» وكذلك يضع علامات على جباه جنوده ويحتفل بتقديم الخبز ويأتي برمز البعث ويكسب التاج =

كثيراً إن كان إبليس سبق الكنيسة إلى تقليد طقوسها كما يقول جستن مارتر، أو كانت الكنيسة أخذت هذه العقائد عن الوثنية، فهي على كل حال من عمل المسيح الدجال سواء أكان هذا المسيح الدجال شيطاناً أم إنساناً، لأنها تخالف روح عيسى الحقيقية، الذي يطلب من كل شخص أن يحمل صليبه الخاص.

يقول السير كونان دويل في مقالة نشرت حديثاً بعنوان (ديني): «لم يدر بخلد أية قبيلة من القبائل الوثنية هذه الفكرة المضحكة التي تزعم أن الإنسان ولد مُلوَّثاً بتلك الوصمة الموروثة التي تدعى الخطيئة الأصلية، وأن هذه الوصمة التي لم يكن الإنسان من جناتها لا بد من تكفيرها، وأن الخالق جل وعلا اضطر أن يضحي بدم ابنه البريء لمحو كل أثر لهذه اللعنة الخفية[1]» ا. هـ.

لقد بدأ المفكرون العصريون من أهل الغرب يرون أن عيسى عليه السلام بشر ـ فلا هو الله ولا هو ابن الله ـ وهؤلاء المفكرون يعبرون

= بحد السيف ويحتم على كهنته أن يقتصروا على زوجة واحدة، بل له في اتباعه طائفة من العذارى والرهبان. Our Sun-God, p. 179.

(٣) تقص علينا الرُّسل في الكتب التي كتبوها بأيديهم والمعروفة باسم الأناجيل أن عيسى قال لتلاميذه ما يلي «وفيما هم يأكلون أخذ يسوع خبزاً، وبارك وكسر، وأعطاهم وقال: خذوا، كلوا هذا هو جسدي، ثمَّ أخذ الكأس وشكر وأعطاهم فشربوا منها كلهم وقال لهم هذا هو دمي» [مرقس ١٤/٢٢ و ٢٣]. وكل هذه أمور يأمر بها الشيطان في الطقوس والرقى الخاصة بدين «مثرا»... لأن الخبز وكأساً من الماء يوضعان ويتلى عليهما بعض العزائم السحرية عندما يراد دخول أحد الأشخاص في هذا الدين كما تقضي بذلك الطقوس السرية. Justin Mariyr Apolii.

(١) الديلي اكسبرس ١٢ سبتمبر ١٩٢٥.

عن الرأي الذي يساير حركة التقدم العلمي الحديث بوجه عام.

إن عيسى عليه السلام رسول حق من رسل الله، وأحد الأنبياء المسلمين قد لا يكون المثل الأعلى في الأنبياء، ولكنه شخصية عظيمة بلا شك. طُبع على اللطف والإيثار والتواضع، وأُصيب بالبلاء الذي يصاب به عامة البشر، ولكنه صبر عليه صبر الرجال. كان من طبقة متواضعة في المجتمع، ولكن كانت لديه الشجاعةَ الكافية للتّشهير بالنفاق السائد بين الطبقات العليا في المجتمع. كان يُشتم ويضطهد، ولكنه كان يصبر على الأذىٰ، ويغضي عينه علىٰ القذىٰ. كان يخدم أصدقاءه ويدعو لأعدائه. يأتي بالمعجزات ولكنه لا يفخر بها قط، بل ينسبها دائماً إلىٰ إصبع الله[1]». ولقد كان يذهب إلى حد الاعتراف بأن في مقدور غيره أن يَفري فَريَّه[2]. كان نبي عصره حقاً، عرف السرطان الاجتماعي الذي كان يَفُتّ في جسم المجتمع وينفث السم في دم قومه، فتصدى لعلاجه، ولقد قضى حياته ونحبه في خدمة الدِّين كسقراط وغيره ممن استشهدوا في سبيل الحق، على أنه كان يخص بعطفه مدينة أورشليم وأبناءها، وإن العبرات التي سكبها على قومه لتعد أصدق دليل على ما أشرب في قلبه من محبة الناس، فللّه دره من رجل كريم على خلق عظيم! كل هذا جميل في حق عيسى عليه السلام إذا اعتبرناه بشراً، أما إذا اعتبرناه إلهاً فإن مناقبه ذاتها، لا تليق بجلال الألوهية، بل تحط من قدرها الرّفيع. وكل ما تنطوي عليه ذاته من عظمة وجلال لا يعد شيئاً مذكوراً، بل إذا قيس بعظمة الله، صار هباء منثوراً. وما أحقر المظهر الّذي تظهر فيه صفات الألوهية! إله! ومع ذلك يتسلط عليه الشّيْطان، ويضطهده الأشرار، ويعذبه أحط مخلوقاته!

(١) لوقا ١١ ـ ٢٠: [ولكن إن كنتُ بإصبعِ اللهِ أُفْرِجُ الشَّياطينَ فقد أَقبلَ عليكم ملكوتُ الله].

(٢) يفري فريه: يأتي بمثل ما أتى به.

يظهر بالعجز أمام أعدائه، مع أنه قادر على أن يقهر الموت، ويُحبط مسعى مضطهديه بأن يحيا من جديد. ومع ذلك يبلغ به الأمر أن يختبىء ويتنكر حتى لا يحكم عليه بالموت مرة أخرى! إله يستطيع أن يأتي بأكثر معجزة في العالم إذا قام من رَمْسه، ومع ذلك يضن بها على من هم في أشد الحاجة إليها، يخشى أن يتجرع كأس المصاب، ولكنه يُضطر أن يشربها حتى الثُّمالة! يبتكر خطة طريفة لإنقاذ البشرية من عواقب ما قدمت يداه[1]، ولكنه تعوزه الشجاعة لمواجهة المصاعب التي تكتنف تنفيذها! إله يُظهر الضعفَ المادي الذي يوصف به عامة البشر حين يذهب إلى الشجرة وقد عَضَّه الجوع مع أن الوقت لم يكن وقت الإثمار، وبذلك يُدلِّل لا على عجزه فحسب، بل على أنه ليست لديه مُسكة من الذكاء، ثم يستشيط غضباً على الشجرة ـ وهي جماد ـ حين لم يتحقق غرضه ـ وهذا يكاد يشبه تماماً ما نفعله نحن حين نرفس الباب بأقدامنا إذا لم ينفتح بسرعة لنا ـ وأخيراً تراه يتجاهل القوى والغرائز التي ركبها هو نفسه في طبائع البشر، فيلقي موعظة على الجبل تتنافى مع الطبائع البشرية، ويكلف الناس خطة لا تستطاع.

والواقع أنه لا يوجد في أفعال عيسى الإنسان وأقواله، ما يدل على أن إله الضمير، وإله الكون، قد ظهر في جسم بشري من لحم ودم في

---

(١) إن عقيدة التكفير هي في نظري غير منطقية ـ فهب أنَّ أباً وضع قوانين للعب، وهو يعلم أن هذه القوانين لا بد أن تخالَف. ثم يضطر الناس إلى أن يلعبوا هذا اللعب ثم يحكم على اللاعبين بالعقاب لمخالفتهم لقوانين اللعب، ولكنه يقبل أن يعذب ابنه بدلاً من عقابهم. أقول إنه لا يصدق ذلك إلا من يرى أن البغضاء هي القانون الذي يسيطر على الحياة. (ربيكا وست Rebecca West)

الوقت المناسب، كما يقول أسقف لندن[١]. بل إن معجزاته بفرض أنه إله لا تعد شيئاً مذكوراً في خلق السموات والأرض. وإذا اعتبرنا أن المعجزات التي صدرت عنه إنما صدرت عن نبيٍّ، فإنها مع ذلك لا تثير دهشة أي دارس للكتاب المقدس، فإن غيره من أنبياء بني إسرائيل، شفوا من الأمراض وأَحيوا الموتى، وفرقوا البحر، وأمروا الشمس والقمر بالكف عن الدوران، وعَرَجوا إلى السماءِ على عربة من نار، وجياد من نار. ومن الجائز في عرف بني إسرائيل أن يطلقوا ابن الله علىٰ الولي والشهيد بطريق المجاز[٢][4].

وإذا كان عيسى إلهاً فليست الصورة التي تقدمها لنا الأناجيل عنه مما يناسب مقام الألوهية، فإن رامشاندا وكرشنا ـ إلهي الهندوس ـ يُنسب إليهما من المجد والعظمة ما يلتئم مع دعواهما، على أنه لا فائدة ترجى من هذه الألوهية لأننا لو سلمنا جدلاً بأنهما إلهان لما كانا يصلحان أن يكونا مثلاً أعلى، أو قدوة لنا، إذ الإنسان لا يستطيع أن يقتدي إلا بإنسان مثله، نشأته كنشأته، بحيث لا تختلف صفاته العقلية والجسمية في كثير أو قليل، وليس شيء أدعى إلى التأسي بالقدوة من علم المرء بأنه من جنسه، قد يثير الأسد أو الفيل فينا شعور العجب، أو الإعجاب، أو الخوف، حسبما تقتضيه الظروف، ولكن ذلك لا يدعونا بحال إلى اتخاذ الأسد أو الفيل مثلاً أعلى لنا، لأنه مهما قويت فينا الرغبة في أن نكون أسوداً أو فِيَلة لا يخامرنا الشك في أن ذلك ضرب من المستحيل، وكذلك نحن لا نستطيع أن نكون آلهة،

---

(١) الديلي إكسبرس ـ عدد ١٥ سبتمبر ١٩٢٥.

(٢) جيبون (Gibbon).

(4) في إنجيل لوقا ٣٨/٣ وفي نهاية نسب السَّيِّد المسيح (.. ابن شيت بن آدم ابن الله) فهل آدم (الله) كالمسيح؟

لأنه يستحيل علينا أن نتخطى عتبة البشرية لنصل إلى مرتبة الألوهية، وإذاً فمن العبث إرسال إله متجسد للناس ليكون مثلاً أعلى لهم. وقد بين الله تعالى هذه الحقيقة في قوله:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً. قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلٰئكةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٤ و٩٥].

يفهم من هذه الآيات أن الله تعالى لا يرسل المَلَك إلَّا لجنسه من الملائكة. ولما كانت النشأة الملائكية تخالف النشأة البشرية لم يصلح المَلَكُ أن يكون مثلاً أعلى للبشر، وإذا كان المَلَك لا يصلح أن يكون مثلاً أعلىٰ، فالإله المتجسد لا يصلح من باب أَوْلى.

خلق الله تعالى الإنسانَ على صورته، وأودع فيه قَبَساً من نوره، ولكن الروح الإنساني إنما هو جذوة ضئيلة من الروح الإلهيٰ، ولكن هذه الجذوة يحجبها ستار كثيف من الشهوات والأهواء النفسية التي يجب التخلص منها لتسير الروح في طريق التَّرقي. ومن ثَمَّ كان الإنسان في حاجة إلى قُدوة من جنسه، له ماله من الفضائل والاحتياجات البشرية، ويجب أن تكون روحه قد تزكت وصفت من شوائب الأهواء التي تعوق عن السير في طريق الكمال والترقي. ويجب أن تكون فيه الميول التي رُكِّبت في طبائعنا، ولكن مع القدرة على التغلب عليها.

ومع أنني لم أقرأ شيئاً في الأناجيل عن المسيح مما لا يجوز أن ينسب إلى بعض البشر، أعتقد أنه عليه السلام من جنس البشر، وأنه جدير بأن يكون قدوة للبشر، وإلا فلماذا نعتقد أنه يلي النبي صلى الله عليه وسلم في المرتبة؟ وأقول مرة أُخرىٰ: إنه لو كان عيسى إلهاً، لما صلح أن يكون قدوة للبشر لاستحالة صيرورتهم آلهة لأن الناسَ بشر، ومثلهم العليا

وأمانيُّهم من جنس ما يصبو إليه البشر. ولذا لا يسعنا إلا الاقتداء بالنبيِّ العربيِّ الذي يقول لنا بلسان القرآن ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم ﴾(١) فهذه الآية بشرىٰ عظيمة للإنسانية لأنه عليه السلام يضع المثل الأعلى على مرأى ومشهد منا، ويفتح لنا باب الآمال المشرقة والآفاق الواسعة. هنا نجد خير إنسان وأعظم إنسان(٢) تحلى بسائر الكمالات التي في طوق البشر يقول لنا ﴿ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم ﴾، قد لا نصل إلى قمة السُّلم التي يقف هو عليها، ولكن كلماته التي تدوِّي في آذاننا تبدد كل شك يساورنا في استعدادنا الفطري لبلوغ ذلك؛ وتفتح أمامنا باب الأمل والنجاح، وهو يؤكد لنا أنه مثلنا، لا فرق بيننا وبينه في القوى والاستعدادات؛ وهذا هو الذي يدفعنا إلىٰ الاقتداء به. أما الإله المتجسد فلا يمكن أن يسأل الناس أو ينتظر منهم الاقتداء به، لأنه إذا أمكنهم الاقتداء به كان معنى ذلك أنه كفء لهم في القوى والاستعدادات، بل كان كل عاص من العصاة حقيقاً بأن يكون ابن الله كما أنه هو ابن الله، ولكن بالمعنى المجازي طبعاً. ولكن إذا كان الإله المتجسد يتصف بالألوهية وكنا نحن لا نتصف بها، بل يستحيل علينا الاتصاف بها، فإنَّه لا يستطيع أن يقول لنا كما يقول لنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيما ذكره القرآن: ﴿ فاتَّبعوني يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُمْ ﴾(٣).

يتضح من ذلك أنه لا سبيل إلى أن يكون الإله المتجسد مثلاً أعلىٰ للبشر، وأنَّى يكون كذلك ولا وجه للشبه بينه وبين البشر في القوى

(١) الكهف: ١١٠.
(٢) انظر الفصل الثاني.
(٣) ﴿قُلْ إن كُنْتُم تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُم واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، [آل عمران: ٣١].

والاستعدادات؟ «والمثل الأعلى هو جِماع المحاسن والكمالات التي توجد عـادة في مختلف الأفـراد مجـردة من شـوائب النقص، مبـرأة من وصمـة الشَّيْن، بحيث يتكون من ذلك مثال أو نموذج من الجنس»[1]، ولا شك أن الإله المتجسد لا يَمُتّ بصلة إلى جنس البشر، إذ أَنه بطبعه وماهيته يختلف عنهم، ولذلك لا يمكن أن يكون مثال الكمال أو الجمال أو الجلال.

---

(١) Fleming. Webster's New International Dictionary.

الباب الثاني

أنبياء الله
يصلحون مُثُلاً عُلْيا للبَشر

مما يبشر بـالخير أن المـواعظ الدينيـة أخذت تحـل محل الأسـرار الخفية، ولا ريب أن ذلك يعد خطوة في سبيل الوحدة العالميَّة، ولن تجد ديناً من أديان العالم يخلو من العظات، وذلك لأن الأخلاق ملك مُشاع بين جميع الأديان. وما موعـظة المسيح على الجبـل إلا صدىً لمـا مضى من العظات. وقد سبق لبوذا وغيره أن أسـدى مثل هـذه العظات لقـومه، وإن كثيراً من الأمثال التي ضربها عيسى عليه السلام لقومه مـا هي إلا ترجمـة للأمثال الموجودة في الآداب البـوذية[1]. على أني أعتقـد أن عيسى عليه السلام لم يرتشف من منهـل المعارف البـوذية، بـل كان يغتـرف من بحر العلوم الإلهية، وسيؤدي هذا التطور الجديد في الأفكار الدينية عند الغرب إلى نشر روح الوفاق والوئام بين مختلف الأَديان. وإذا أنعم النـاس النظر عرفوا حقيقة ما أشار إليه القرآن الكريم من أن جميع الأَديان الكبرى جاءت

(1) انظر الفصل الثامن عشر: (مقابلة النَّص الصريح بين بوذا ويسوع المسيح) في كتـاب: العقائد الوثنيَّة في الديانة النَّصرانية، ومنها:
قال بوذا: اخفوا الأعمال الحسنة الَّتي تفعلونها واعترفوا بذنوبكم علانية.
وقال يسوع: اخفوا الأعمال الحسنة التي تفعلونها واعترفوا بذنوبكم علانية.

من عند الله، وأنها واحدة، وأنَّ عيسى عليه السلام كان نبيًّا من أنبياء الله. وحينئذ سَيُضطر الذين اتخذوا الدِّين تجارة حاضرة أن يرحلوا من أرض الله، ويأخذوا تُرَّهاتهم معهم ويحل محلهم مبشرون كرام يربؤون بأنفسهم أن ينحتوا أَثْلة(١) الناس ويفتشوا عن عيوبهم، بل يكون رائدهم أن يفتشوا عن المبادىء لا عن الأشخاص، ويحترموا الداعِيَ لدعوته لا لشخصه. وإذا وجدوا في أي دين مبادىء تشبه مبادىء دينهم لم يتهموه بالسرقة، بل عَدُّوا ذلك دليلاً على أن هذا الدين من عند الله.

فإذا تحقَّق ذلك، كان هذا هو اليوم الذي تصبح فيه كلمة الله هي الكلمة العليا، ويعلو فيه شأن الإسلام. وقد بث الاسلام هذه الروح في نفوس أتباعه، فمن الواجب على كل مسلم أن يؤمن بأنَّ الأديان الكبرى جاءت من عند الله، وأن الله تعالى بعث في كل أُمة رسولاً، وأن الأنبياء سواء في وجوب الاحترام، لا نفرق بين أحد منهم(2)، وليس من شك في أن هذا الكلام هو عين الصَّواب، كما أنه يتمشى مع منطق العقل، والدليل عليه أن الإنسان مركب من جسم وروح، وقد تكفل الله تعالى بغذاء الأرواح كما تكفل بغذاء الأبدان، وإذا كان الخالق جل وعلا لم يفرق بين الناس في توزيع الأرزاق التي تتطلبها الأبدان، فهل يعقل أن يفرق في الأرزاق التي تتطلبها الأرواح؟ وإذا كانت دعوة عيسى عليه السلام لم تصل إلى أقطار العالم الأربعة، فهل يتصور العقل أن الله تعالى الذي يرزق الناس جميعاً يَضِنُّ بالغذاء الروحي على ملايين البشر الذين لم تبلغهم دعوة المسيح؟ كلا! بل المعقول أنَّه جلت حكمته يرسل رسلاً آخرين

---

(١) نحت أثلته، ذمه وطعن فيه.

(2) ﴿آمنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ من رَّبِّهِ وَالمؤمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَملائكتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ من رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفرانَكَ رَبَّنَا وَإِليكَ المَصيرُ﴾، [البقرة ٢٨٥].

ليبلّغوا رسالاته للناس، وهذا هو الذي يفسر لنا تعدد الديانات في العالم.

أرسل الله تعالى الرسل بالهدى ودين الحق، ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور[3]، وجعلهم هداة قادة لأممهم في امتثال الأوامر الإلهية التي أمروا بتبليغها للناس، ولكن أصحابهم لم يسجلوا إلا القليل من أقوالهم وأفعالهم. وكل ما وصل للناس إنما كان ينتقل بطريق الأفواه والسماع مما أفسح المجال للتَّحريف والتدليس بحيث لم يمر قرن من الزمان حتى تطرق التغيير والتبديل إلى تلك الأديان. وكانت النتيجة أن الأجيال المتتابعة تلقت ديناً جديداً يختلف كل الاختلاف عما جاء به الرسول. وأستطيع أن أقرر أَنَّ المسيحية بالذات دين يختلف عما جاء به عيسى عليه السلام. وقد أدى النزر اليسير الذي دونه أصحاب الرسل إلى مشكلة أخرى، وهي أن الديانات القديمة أصبحت لا تفي بمطالب الزمن، وبذلك، وُكِل الناس إلى أنفسهم، واضطروا إلى الاجتهاد في كثير من الشؤون الحيوية، ولعل الدين المسيحي خير شاهد على هذه القضية، فإننا إذا صرفنا النظر عن الجانب الغامض من العقائد التي لا يقرها العقل في هذا الدين، ألفينا أن المواعِظَ التي تنسب إلى عيسى عليه السلام، وأقواله الأخرى، لا تفي بالغرض، ولا تشفي الغليل وخلاصة ما أُثر عنه ـ حسبما دوّنه أصحابه ـ أن المسيحية دين يقوم على المحبة والشفقة وعلى مبادىء مثالية لا يمكن تطبيقها من الناحية العملية. وليس هذا كل ما في الأمر كما يقول (أرنولد بنت) بحق. فمبادىء المسيحية لا تناسب إلَّا حياة الرُّهبان الَّذين يعيشون بمعزل عن الناس، ولا تتفق مع مقتضيات الحياة الاجتماعية والوطنية والدولية. وفوق ذلك يوجد ضرب من التناقض بين

(3) ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخرِجَكُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُم لرؤوفٌ رَحِيمٌ﴾، [الحديد: ٩].

الأقوال المنسوبة لعيسى عليه السلام، وما سُجل من أفعاله التي لا تبين المراد من أقواله، وأساس العلة في ذلك كلّه أن تلاميذه وغيرهم من معاصريه، لم يدوِّنوا لنا سيرته كاملة. وما حدث في حق عيسى عليه السلام حدث في حق غيره من الأنبياء إذا استثنينا محمداً صلى الله عليه وسلَّم فهؤلاء الأنبياء قد انطمست معالم صورهم الحقيقية بما أُسبغ عليها من ألوان التبجيل والإطراء، أما محمد صلى الله عليه وسلم فهو شخصية تاريخية واضحة المعالم. وكل أفعاله وأقواله قد أحصاها معاصروه في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، بل هو النبي الفذ الذي يمكن أن يسمى شخصية تاريخية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، إذ أَن سيرته معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله لجواره، ولا سيما الفترة التي أدى فيها الرسالة. ولست أغالي إذا قلت إنني أعرفه أكثر مما أعرف أبوي. ثم أليس من العجيب أننا لا نجد فيما أُثر عنه ـ على كثرته ـ إلا كلَّ ما يدعو إلى الاحترام والإعجاب؟ ولست أدري ماذا يكون رأينا في غيره إذا أتيح لنا أن نعرف أكثر ما نعرف عنه، فإن سيرة غيره من الأنبياء مضروب عليها حجاب من الغموض والأساطير، ولا نعرف من حياتهم اليومية إلا القليل. وما يحكى عنهم يشبه كلام الكهان، حتى لا يتصور العقل أنَّهم أشخاص حقيقيون. ولكن تاريخ النَّبي صلى الله عليه وسلم معروف أكثر من أية شخصية أُخرىٰ في التاريخ. وإنه لمن دواعي العجب أن العدو لا يجد وجهاً للنقد فيما روي عنه ـ وهو كثير ـ إلا ما ندر.

وهنا يظهر فضل النبي صلى الله عليه وسلم على غيره، وهذا أحد الأسباب الكثيرة التي تحملنا على القول بأنه المثل الأعلى في الأنبياء، فسجل أقواله وأفعاله كامل غير منقوص، وسننه القولية والفعلية يتمم بعضها بعضاً، وكأن كل مطلب من المطالب الرُّوحية قد قُدِّر وعُمِل حسابه، فكل

ما يعرض للإنسان مما دقَّ أو جَلَّ يتجلى في مرآة حياته. لا أستطيع أن أقول باعتباري مسلماً إن غيره من الأنبياء لم يؤدوا رسالتهم كاملة، بل كل ما أريد أن أقوله إننا لا نجد في كل ما أثر عنهم إلا القليل مما يفي بحاجة البشر، ولا بد أنهم قد أدَّوا ما أرسلوا به، ولكن مؤرخيهم لم يقوموا بحقهم. ولا يسعني إزاء قلة ما أثر عنهم إلا أن أقول إنه لولا محمد صلى الله عليه وسلم ما استطعنا أن نفهم قدر النبوة، إذ لو كانت وظيفة النَّبي مقصورةً على القول دون العمل، وإلقاءِ بعض العظات دون أن يعمل في حياته شيئاً لرفعة الإنسانية، بل يكرر الدروس التي ألقاها غيره بعبارة أخرى، لما كان هناك معنى للرسالة الإلهية، لأننا نستطيع أن نتعلم هذه الدروس نفسها ممن لم يدَّعِ أنه مرسل من عند الله.

يوجد كتاب هندي قديم باللغة السنسكريتية يسمى (بانشاتانترا) ومعناه (حِكَم على ألسنة الطيور). وهذا الكتاب يحتوي على نصائح في الحكم الصالح، والوطنية الصحيحة. وهو من الكتب الأساسية المقررة التي يجب أن يدرسها الأمراء وأبناء الحكام في الشرق.

وقد عالج هذا الكتاب كل مسائل الأَخلاق ونظم الحكم. ولكنه يحكيها على ألسنة الطيور والحيوانات العجماوات. فالحمامة مثلاً تعلمنا درساً موضوعه «عند الشدائد تُعرف الإخوان» وتوضح لنا هذه الحكمة بما وقع لها مع زميل لها هو الفأر. والبومة تعلمنا خُدْعَة من خدع الحرب، والغراب يوضح لنا حكمة فحواها أنه يجب أَلا ننخدع بما يبدو من حقارة شأن العدو، ويذكر لنا على سبيل المثال كيف أن ثعلباً أغرى أَسداً بالوقوع في شَرَك. ومن المواعظ الأخرى أن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل، وهذا الدرس توضحه لنا قصة الحمار الذي تولى حراسة صاحبه في أثناء نومه، وفي ذات يوم حط الذباب على وجهه، فأزعجه وهو نائم،

فتناول الحمار السيف يطارد به الذباب عن وجه صاحبه، فقتل صاحبه[4].

لا شك أن هذا الكتاب من كتب الحكمة الشيقة. ولكن الرجل المفكر من أهل العصر لا يؤمن بفائدته، لأنه خلو من الحياة كالألوان الزاهية. وخلاصة القول أن الأقوال إذا لم تقرن بالأفعال لا يمكن أن تكون باعثاً على الهداية. وهذا مبدأ سليم يجب الاسترشاد به عند اختيار القدوة، فيجب ألا نسلم قيادنا إليه إلا إذا كانت أفعاله تطابق أقواله، إذ الواقع أنه لا فرق بين الحكمة المكتوبة على الحائط، وبين الحكمة التي لا تجاوز حنجرة القائل.

ولكن قَلَّ من الناس من يعلم بهذا المبدأ لاسيما في أمر الدِّين. وفي الكتب المقدسة كثير من المواعظ والدروس النافعة، ولكنها لا تُحدث التأثير الكافي في النفوس إذا لم يعمل بها صاحب الدِّين في حق نفسه، وإلاَّ وقع الناس في الخطأ والضلال، لجهلهم بالعمل بها على الوجه الصحيح. وحينئذ يلجؤون إلى الاجتهاد والرأي الشَّخصي. وقد يعملون ما عسى أن يكون الشارع لم يقصد إليه قط. ولنضرب لهذا مثلاً: كل من درس الأناجيل يعلم أن هناك تناقضاً صارخاً في الأقوال المنسوبة لعيسى عليه السلام عن استعمال السيف[5]، فلو كانت هناك سُنَن عملية مأثورة عن السيد المسيح توضح المعنى المراد من أقواله لتغير تاريخ المسيحية. ويلاحظ أن منابر الكنيسة كانت ولا تزال خاضعة لرجال السياسة. وأنَّ رجال الدِّين المسيحي يسيرون في ركاب رجال الحكم، بدلاً من أن يكونوا

(4) كما هي الحال في كتاب ابن المقفَّع «كَلِيلَة ودِمْنَة»، الَّذي هو كتاب في تهذيب النَّفس، وإصلاح الأخلاق، والإرشاد إلى حسنِ السِّياسة، جعلوه على أَلْسِنَة الحيوانات.

(5) جاء في إنجيل متّى ١٠/٣٤: «لا تظنُّوا أَنِّي جئتُ لأُلقي سلاماً على الأرض، ما جئتُ لأُلقي سلاماً بل سَيْفاً».

أئمة، والناس لهم تَبع. فإذا أراد رجال السياسة الحرب حرَّضوا الناس على القتال، كما فعل أسقف لندن في سنة ١٩١٨. وإن جنحوا للسَّلم ضربوا على نغمة الموعظة على الجبل[6]. وهم يزعمون أن المسيحية تدعو إلى التواضع والحلم والعفو والصبر، ولكنّ تاريخ المسيحية يقص علينا من الأنباء ما يناقض ذلك تماماً، ففيه صفحات كتبت بمداد الدم المسفوك وفيه صفحات تنبىء عن غلظة الأكباد وقسوة القلوب، فلو أثِرت عن المسيح عليه السلام سنن فعلية إلى جانب سننه القولية، لكان في محبة أَتْباعه ـ على الأقل ـ باعث لهم على اتِّباعه.

ويجب ألاَّ يغرب عن البال أن وجود الشيء بالقوة ليس دليلاً على وجوده بالفعل، وأنَّ الفضائل الخُلقية في حق معلم الأخلاق، لا تعد فضائل على الإطلاق، لأنها لا تحتاج إلى مجهود خاص، وليست فيها فائدة للناس. وإنما تفيدهم المُثُل العملية التي توضح الدُّروس الخلقية. ولا ريب أن في وسع أي إنسان أن يُلقي على النَّاس خطباً رنَّانة في العفو، وعظات طنانةً في الحلم، ولكن ذلك لا يعد دليلاً على اتصافه بهذين الخُلُقَيْن، وإنما الدليل على ذلك أن يكون عاملاً بما يقول. وهل يمكن لإنسان أن يُعلِّم غيره ما لم يمارسه هو بنفسه؟ «وهل يعرف الشوقَ إلا من يُكابدُه؟». حقاً إن من يريد أن يلقي على الناس درساً في الحلم والصبر يجب أن يواجه أقسى ضروب البلاء كما فعل محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام. على أن عيسى عليه السلام لم تتهيأ له الأسباب لظهور مقتضيات الأخلاق جميعاً، كما تهيأت للنبي صلى الله عليه وسلم.

---

(6) إنجيل متّى، الإصحاح الخامس: «ولما رأى الجموعَ صعد إلى الجبل، فلما جلس تقدَّم إليه تلاميذُهُ، ففتح فاه وعلَّمهم قائلاً: طوبى للمساكين بالرُّوح...». وفي إنجيل مرقس أيضاً ١٣/٣.

ومن الأخطاء الشائعة كذلك أن الناس قد يُعْجبون بالأقوال المنسوبة إلى أحد الأنبياء، ويبهرهم جمالها الرائع، فتحملهم العاطفة على الاعتقاد بأن هذه الأقوال وقعت بالفعل. ومن هذه الأخطاء أيضاً الحكم على الشخص بأقواله دون أفعاله، والاعتقاد بأن كل من أمر بمعروف، فهو به موصوف. وهذا خَطَل في الرأي(7)، فلكل أمة في الواقع كتابٌ يأمرهم بالأخلاق الفاضلة. وإذا عُدَّت هذه الكتب دليلاً على تحلِّي كاتبيها بما هو فيها، لوجب أن نحسن الظن «باللورد فيريولام»(1) ويجب ألا يتبادر إلى الذهن أن كل شخص يتحلى بالأخلاق الفاضلة التي يأمر بها الناس مهما بلغ من سمو دعواه. أما الأنبياء فنحن معشر المسلمين نرى فيهم ما يختلف عن هذا الرأي، ونؤمن بأن كل نبي فعل كل ما أُمر به، أو كان يفعله لو أتيحت له الفرصة لفعله. وينص ديننا الحنيف على أن دين جميع الأنبياء واحد لا فرق بينهم، وأنَّ الله تعالى بعثهم به وللعمل بأحكامه. يقول تعالىٰ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً واحدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ ﴾، [البقرة: ٢١٣]، وكلمة الحق الواردة في الآية تشير إلى أن الدين الذي جاء به الرُّسل لإرشاد البشر هو دين حقيقي عملي، وليس مجرد أقوال في عالم الخيال. فإذا وجدت بعض الأقوال الخيالية النظرية منسوبةً إلى نبي من الأنبياء تَعَيَّن الحكمُ بأنها ليست من عند الله، بل هي مدسوسة على ذلك النبي.

---

(7) الخَطَل: خِفة وسرعة، والخاطل: الأحمق العَجِل، وخَطِلَ الرَّجلُ في كلامه: أفحش، (اللِّسان: خطل).

(١) هو السير فرانسيس بيكون، الفيلسوف الإنجليزي المشهور. اشتهر ببحوثه في علم الأخلاق. ولكن أخلاقه لم ترتفع إلى مستوى علمه. فقد اتهم بالرشوة ـ وهو قاضي القضاة ـ واعترف بجريمته، وحكم عليه بالسجن. ومن ثم ضرب به المثل للعالم الذي لا يعمل بعلمه.

وإذا نظرنا في حال من تقدم من الأنبياء، وجدنا أنه لا يخلو من أمرين؛ (الأول): أنهم لم يمارسوا جميع أحوال الحياة كما مارسها النبي صلى الله عليه وسلم، لأنهم لم تهيأ لهم الفرصة، ولو تهيأت لفعلوه. ولنضرب مثلاً بالمسيح عليه السلام، كلنا نعلم أن كثيراً من سعادة المرء يتوقف على معاملة أهله بخلق حسن، فلو أن المسيح تزوج لكان مثال الزوج الكامل. ولكنه لم تتح له فرصة الزواج، ولذا فنحن لا نستطيع أن نقتدي به في هذه الناحية.

(الثاني): أن الذين منهم أتيحت لهم الفرصة، وأدوا واجبهم على الوجه الأكمل، لم يصل إلينا من أخبارهم إلا النزر اليسير، وحتى هذا النزر اليسير لا يصور لنا الحقيقة كما هي، بل هو صورة ما انطبع في أذهان أصحابهم الَّذين دوّنوا تاريخهم فكتبوا ما راق لهم. هذان الأمران بالذات هما السبب في أن الإنسان يحاول عبثاً أن يجد قَبَساً من النور والهدى في حياة الأنبياء السَّابقين، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم هو العَلَم الفرد الذي يجد الباحث في تاريخه ما يروي غليله.

ليس كل ما في جَعبة النبي هو الدَّعوات الصَّالحات، وإنزال اللَّعنات، وإلقاء العظات، والإتيان بالمعجزات، بل إن منصب النُّبُوة أسمىٰ من ذلك وأجل. فالنَّبي يُبعث لإحياءِ الإنسانية من الموت العقلي والخلقي والروحي الَّذي حلَّ بها، ويُبعث بالشَّرائع السَّامية ليعمل بها في خاصة نفسه، ويأمر الناس أن يهتدوا بهديه. وبذلك يُحيي أرض القلوب بعد موتها. وخلاصة القول إنَّه يبعث (لتكميل الإنسانية) وهي مشكلة من أعوص المشاكل، لأن للإنسان جوانب متعددة منها النَّاحية الجسمية والناحية العاطفية والشعورية والاجتماعية والخلقية والعقلية والروحية. وهذه النواحي كلها مشتبكة يكمل بعضها بعضاً في وجودها وتطورها، كما

أنها تتعاون في أداء وظائفها. وقد اختلف الناس في شأنها، فمنهم من يذم الغرائز والميول النفسية، ومنهم من يشير بقمعها وسحقها، وهذا مخالف للطبائع البشرية لأن هذه الغرائز قابلة للتطور والارتقاء، وهي أساس الأخلاق العالية، وبذرة الرُّقي الروحي. وواجب النَّبي أن ينظر إليها جميعاً بعين الاعتبار، وأن يرشد إلى وسيلة يمكن بها توجيهُ هذه الغرائز في الطريق القويم، وضبطُ القوى العقلية على الوجه الذي يسمو بالانسانية، ويمكِّن الإنسان من التخلق بالأخلاق الرَّبانية كما أشرت إلى ذلك في مكان آخر في هذه الصفحات.

وقد لخصت في مكان آخر بعض المناقب التي يختص بها النبي صلى الله عليه وسلم دون سواه، واليد البيضاء التي أسداها للإنسانية بوصفه نبياً. وهذه المناقب هي من خصائص الأنبياء، ولا توجد في سيرة غيره من الأنبياء. وأكبر الظن أن مَرَدَّ ذلك إلى السببين اللَّذين سلف ذكرهما. وإذا كنا نحن معشر المسلمين نؤمن بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى في الأنبياء فما ذلك إلا لأنه اجتمع فيه كل ما تفرق في غيره من الفضائل والكمالات. وقد كان كلُّ نبيٍّ من أنبياء الله مثلاً أعلى، وكان قدوةً للناس الذين بعث فيهم، وكان يمكن أن يكون قدوة لمن جاء بعده لو عُرف تاريخ حياته على الوجه الأكمل، وأتيحت له كافة الفرص لإظهار الفضائل التي كان يتحلىٰ بها قطعاً، ولم يتمكن من إظهارها لأنه لم تتهيأ له الظروف المناسبة.

والحقيقة أن النبي صلى الله عليه وسلم هو أكمل الأنبياء، لأنه توافرت[8] فيه جميع مقتضيات النبوة، كما تجتمع فيه كافة الكمالات التي

---

(8) في الأصل: تتوافر.

تفرقت في غيره. وإذا تقرر ذلك، فليس من العسير أن نبين الصفات التي استحق بها أن يكون المثل الأعلى في الأنبياء. وسنتحاشى المقارنة البغيضة ما أمكن، على أنه لا وجه للمقارنة بين اثنين نعرف عن أحدهما كل شيء، ولا نعرف عن الآخر إلا القليلَ النادر. ونحن معشر المسلمين نعتقد أن جميع الأنبياء جاؤوا بخير رسالة من عند الله، وبذلوا جهدهم في أدائها، وكانوا كَمَلة معصومين. وكيف يكون الأمر بخلاف ذلك إذا كانوا «أبناء الرب المولودين منه، والذين يسيرون معه باتضاع»[9] كما يقول الكتاب المقدس؟ وكيف يكون الأمر بخلاف ذلك وقد اجتباهم الله ليكونوا رسله للناس؟ فإذا ثبت أن (أبناء الله) غير جديرين بهذا الاختيار كان ذلك قدْحاً في العلم الإلهي، كما يقول علماء الكلام. ولكنَّ قلةَ ما أثر عنهم تجعلنا نُولِّي وجهنا شطر الجزيرة العربية لنرى إلى أي حدٍّ تحقق ابنها البار الكريم بصفات النبي الكامل. ولسنا بحاجة إلىٰ أَن نسبغ عليه صفات خاصة تعظيماً لشأنه، لأنه في غنى عن تلك الأوصاف المستعارة، فهو صاحب الشخصية التي تناهت في علاها باعتباره بشراً، أقول ذلك عن قصد، وأعترف أنه لا وجه للشبه بينه وبين الإله المتجسد. وهو نفسه لا يدَّعي الأُلوهية.

ومن الواضح أن عيسى عليه السلام لم يكن أول من عُبِدَ من دون الله، ولم يكن ابن الله الوحيد الذي جاء ليغسل بدمه خطايا البشر، وقد حوكم لأنه اتهم بإثارة الفتن والقلاقل. وكم من شخص أعدم بهذه التهمة، فليرفع الدكتور (زويمر)[10] عقيرته[11] ما شاء أن يرفع، زاعماً أن

---

(9) لم نعثر في فهرس الكتاب المقدس على توثيق لهذه الفقرة.

(10) صموئيل زويمر Zwemer [١٨٦٧ - ١٩٥٢] مبشر حاقد، أمريكي الأَصل، محرِّر مجلة العالم الإسلامي، عداؤه ظاهر، وحقده مكشوف، وتحامله معروف.

(11) عقيرة الرَّجل: صوته إذا غنَّى أو قرأ أو بكى (اللسان عقر).

المسيحية انفردت بتقديم الدليل على هذا النوع الغريب من الحب الإلهي، فإنَّه إنَّما يدل على جهله. وأكبر الظن أنه يكتم الحق. وهذه شِنْشِنة معروفة من أَخْزَم[12]، ويصعب عليه أن يدعي أنه منها بريء. ولكن عليه أن يعرف أن الوثنية كان فيها عِدَّةٌ من أبناء الله أرسلهم (الأب) ليقدموا حياتهم فداء للإنسانية، وكان (باخوس) واحداً منهم، وهو أول من قال إنه ألِف العالم ويَاْؤه، وإنه (مخلِّص) الجنس البشري، وقد وضعته أم عذراء في ٢٥ ديسمبر، وضحَّى بحياته في يوم الجمعة السَّابق على أَحد الفصح، وقام في ذلك اليوم المشهود. وقد نقل القديسُ بولس ومن جاء بعده قصة (الآلام) بحذافيرها عن هؤلاء. ومن العجيب أن القرآن الكريم كشف عن هذا السر في وقت أوشك فيه سيل التقليد أن يبلغ الزُّبَى[١].

ولنرجع إلى الموضوع فنقول: إنَّ التَّدليل على أن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أكمل الأنبياء يتطلب عدة أُمور: أولها أن ننظر في كُنْهِ الرسالة التي أُلقيت على عاتقه، ثم في شخصيته، لأن لهذا دخلاً كبيراً في كمال الشخص، ثم في أخلاقه التي يجب أن تكون جِماع الفضائل الإنسانية حتى يكون أنموذجاً كاملاً يحتذيه الناس، ويجب أن يكون مثال

---

(12) في المثل: شِنْشِنَةٌ أعرفها من أَخْزَم، والشنشنة: الطَّبيعة والخليقة والسَّجيَّة، قال أبو أخزم الطَّائي:

إن بني زمَّلوني بالدَّمِ ... شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزم

كان أَخزم عاقّاً لأَبيه، فمات وترك بنين عقُّوا جدَّهم، وضربوه وأدموه، فقال البيت السَّابق (اللسان).

(١) يشير المؤلف إلى قوله تعالى ﴿وَقَالتِ اليَهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ وَقَالتِ النَّصارى المسيحُ ابنُ اللهِ ذلكَ قَوْلُهُم بأفواهِهِم يُضاهِئُونَ قَوْلَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أنّىٰ يُؤفكُونَ﴾ الآية: ٣٠، التوبة. ولا شك أن هذه الآية من دلائل الإعجاز، لأنها تنبىء عن حقيقة تاريخية ثابتة لا يعرفها إلا من درس تاريخ العصور القديمة دراسة دقيقة. (المعرب)

الصَّبر والثَّبات على المبدأ، ورباطة الجأش في وجه الشَّدائد والمحن التي تواجهه، وكذلك النبي الكامل يجب أن يعلّم الناس التعليم الكامل اللازم لارتقائهم، وأن يكون مفسراً ومبيناً كاملاً، ثم يجب أن يكون قدوة كاملة يعمل بما يقول لأن المُثل العملية خير من النصائح القولية، وصوت الأفعال أشد دَوِيًّاً من صوت الأقوال. كل هذه الاعتبارات تحملني على الاعتقاد بأنه خاتِم الأنبياء لا نبي بعده، صلوات الله وسلامه عليه.

وإنك لو أنعمت النظر، في الغرض الأكبر الذي يبعث الأنبياء من أجله، لألفيت أن النبي يبعث لا ليسعى وراء مجد شخصي، ولا ليعبد من دون الله في الأرض، ولا ليقول للنَّاس اتخذوني إلهاً من دون الله، بل يبعث ليبلِّغ الناس ما أنزل عليه من ربه، ويرشدهم إلى طريق الحق، ويبين لهم الشرائع الإلهية قولاً وعملاً، ويتلقى الأوامر الإلهية ليعمل بها في حق نفسه. وهو أول من ينفذ الشَّريعة التي أوحيت إليه، ويرشد الناس إلى الاقتداء به. وعلى ذلك فكلام الله تعالى، وأَفعال النبي التي تبينه، يساعدان الناس على السير في طريق الهداية. وإذا ظل كلام الله وسنة نبيه على حالهما دون تغيير أو تبديل، انتفت الضرورة إلى وحي جديد، وإلىٰ نبيٍّ جديد. ولكن الواقع أن كل ما جاء من عند الله قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، قد دخله التحريف واعتوره التبديل، كما أن حياة الأنبياء الذين بعثوا قبل مجيء الإسلام مضروب عليها حجاب، ولا يعرف منها إلا القليل النادر كما سلف القول. ومن ثَمَّ وجدت الضرورة لنزول القرآن الكريم، وبعثة الرسول المصطفى الأمين. وإذا ظل القرآن محفوظاً لم يتغير عما كان عليه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت أقوال النَّبي وأفعاله ثابتة كاملة، فهل تكون هناك من حاجة إلى وحي جديد، ونبي جديد؟ كلا بل يلزم من ذلك أن يكون القرآن هو آخر الكتب السماوية، وأن

يكون محمد صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء. وبديهي أنه آخر الأنبياء لأن شريعته هي آخر الشرائع الإلهية وأكملها، وأهداها للبشر. والقرآن الكريم يبين لنا الأوامر الإلهية بياناً وافياً ويحتوي على ما يفي بمطالب البشر الخلقية والروحية، فنزول وحي جديد ـ والحالة هذه ـ يُعَدُّ ضرباً من التكرار والعبث.

وأخيراً إنَّ الدين يأتي ليمهد الطريق أمام الإنسان للترقي من البشرية إلى عالم القدس، والسمو من مرتبة الحيوانية إلى مرتبة الروحانية. وإذا تقرر ذلك سهل علينا أن نفهم نهائية الوحي الإلهي؛ إذ المعروف أن هناك طرقاً عدة بين المرتبتين، منها ما هو طويل، ومنها ما هو معوج. ولكن لا شك أن منها ما يُعد أقصرها جميعاً. ومعلوم أن الخط المستقيم هو أقصر بُعْدٍ بين نقطتين. وهنا نلاحظ أن القرآن الكريم يطلق على الدِّين الَّذي جاء به (الصراط المستقيم)، ومعناه الحرفي الطريق المستقيم، فإذا عُلم أن الطريق الذي يرسمه الوحي الإلهي لهداية البشر لا بد أن يكون أقصر الطرق، وأن الطريق المستقيم لا يمكن أن يوجد ما هو أفضل وأكمل منه، أقول إذا علم ذلك، كان القول بأنَّ نبياً مّا بعثه الله صراطاً مستقيماً قضية يؤيدها العقل، ومن ثَمَّ تكون شريعة هذا النبي هي آخر الشرائع. فأنت ترى أن المسألة كلَّها إنَّما تدور حول اعتبار واحد، وهو: هل الطريق الذي يدعو إليه هذا النَّبي هو الطريق المستقيم، وهذا يتضمن التسليم بأنه آخر الأنبياء، وفي هذا أستطيع أن أقول ـ وأنا مطمئن ـ إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء. وهو يقف في المقدمة، يشرف بنظره على كل القرون وهو نبي الزمان كلِّه، ونبي كافة الشعوب على اختلاف درجتها ثقافة وعلماً. وأكبر دليل على ذلك أن العالم الآن مقبل على الأخذ بالمبادىء الحقة التي نادى بها في زمانه. فلتقل الدكتورة بيزانت ما شاءت أن تقول

من أن الوقت قد حان لظهور (نجم الشرق) فإنَّ أنبياء الشرق لم يكونوا عالة قط على من سواهم في الأُمور الدِّينية ولم يكونوا قط تحت وصاية غيرهم في التربية الـدينية. فهـل للدكتورة بيـزانت أن تدلنـا على بعض الحقائق الجديدة التي سيأتي بها الذي هو في حماها مما لم تأتِ به الأوائل!؟ هذا وألفت نظر القراء إلى فصـل في هذا الكتـاب بعنوان (المثـل الأعلى بين معلمي الأديـان). فليتدبـروا المسائـل التي عـالجتهـا في هـذا الفصـل، ويحكموا بأنفسهم هل تفي بمطالب الحضارة والعلم، أمْ هي بحاجة إلى المزيد. ولا ريب أن تدبر الحقائق الثابتة التي بين أيدينا، أجدى وأولى من البحث في أمور ظنية لم تتحقق بعد.

الباب الثالث

حالة العالم قبل البعثة المحمدية

﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ في البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدي ٱلنَّاسِ لِيُذيقَهم بَعْضَ الَّذي عَمِلُوا لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ ﴾، [الروم: ٤١]، ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيي ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنا لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ ﴾، [الحديد: ١٧].

تحدِّثُنا هذه الآيات القرآنية عن الفساد الذي عم البلاد والعباد، قبل البعثة المحمدية، فقد حلَّ الموت العقلي والأدبي والروحي بالجنس البشري، وأرخىٰ الظلام سُدولَه في كل مكان، فسادت الفوضى في العقائد، وتاه الناس في بَيْداء الضلالة. وفقدت اليهوديَّة والهندوسيَّة والبوذيَّة ما كان لها من تأثير في نفوس أتباعها، ودبّ دبيب الفساد في المسيحيَّة خلال القرن السابع الميلادي، وأسرعت إليها الشيخوخة[1]، ومزقتها الخلافات والبدع الدينية كل مُمَزَّق، واستحال دين المسيح عليه السَّلام إلىٰ دين وثني، وتسربت الأفكار الوثنيَّة إلىٰ أذهان الجماهير. وأصبح النَّاس يعبدون أرواح الموتىٰ وآثارهم، ويتوجهون بالعبادة إلىٰ

(١) موير.

التماثيل والصُّور[١]. وكانت حال العالم الاجتماعية والأدبية مما يُرثىٰ له كذلك. ولم يقف أتباع هذه الديانات عند حد التَّخلي عن الفضيلة فحسب، بل صاروا يَعُدُّون الرذيلةَ فضيلةً. وارتكب الناس الموبقاتِ لينالوا الأجر والثواب عند الرب بزعمهم، وتردَّت كلُّ أمة في حَمأة الفساد الخُلقي، وظهر الفساد في البر والبحر[1]، والقارات والجزر. وقد يَدهَش الكثيرون لهذا القول، ولكنه هو الحق. وحَسْبُ القارىء أن يذكر أن هذا الوقت كان أَحلك فترة في العصور الوسطى بأوروبة، وفي العصور المَزْدكية بفارس، والبورانية في الهند. وكانت الفاحشة ترتكب في أثناء أداء الشعائر الدينية، وهي جريمة تلي القتل في نتائجها، وكانوا يرتكبونها على اعتبار أنها فضيلة يُقرّها الدِّين وأما الاعتراف المعروف في المسيحية فكان ما يرتكب فيه من الآثام أكثر مما يُتَطهَّر منه.

وكانت حالة القسطنطينية في عهد جُسْتِنْيان[2]، المشرع المسيحي العظيم، خيرَ شاهد على حالة الفساد والانحطاط اللَّذين سادا المجتمع في

---

(١) «انتكس مسيحيو القرن السابع إلى التشبه بالوثنيين، وهم لا يشعرون. فكانوا يوجهون نذورهم إلى الصور والتماثيل التي دنست معابد الشرق. وسودوا عرش الله بطائفة من الشهداء والقسيسين والملائكة، واتخذوهم أرباباً من دون الله. ونسب الزنادقة الكوليريديون الذين ظهروا في بلاد العرب الألوهية إلى مريم العذراء وأسبغوا عليها أوصافها. وظاهر أن التثليث والتجسيم ينافيان مبدأ وحدانية الله، لأنهم يرون ـ كما لا يخفى ـ وجود ثلاثة آلهة متساوية، وأن عيسى الإنسان هو ابن الله. أما الدِّين المحمدي فهو خال من شبهة الإبهام، والقرآن أصدق ناطق بوحدانية الله». (جيبون)

(1) البر والبحر: المراد بهما هنا ـ وكما جاء في الآية الكريمة ـ البادية والحضر، قال مجاهد: البرُّ القفار، والبحر كلُّ قرية فيها ماء، (اللِّسان).

(2) جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م)، انظر قصة الحضارة ١٢/٢٠٧، وموسوعة تاريخ العالم لوليام لانجر ١/٣٣٧.

أنحاء العالم المسيحي، فلم يكن للفضائل الخاصة والعامة أي وزن عند الناس. وتربَّعت عاهرة على عرش القياصرة، تتمتع بكل ما يتمتع به الإمبراطور من مظاهر الملك والعظمة، وزاولت تيودورا تجارتها علناً في مدينة قسطنطين(3)، وأصبح اسمها مُضْغَةً في أفواه أهل الفسق والفجور من سكان المدينة، وصارت ملكةً يعبدها القاضي الوقور، والأسقُف الورع، والقائد الظافر، والملك الأسير، وكانت فظائعها وصمة عار في جبين الإمبراطورية، ولم يكن لها رادع من دين، أو وازع من ضمير، وقد شاعت في هذا العصر الفتن، والثورات، والاضطرابات الدموية؛ وكان للقسس فيها الحظ الأكبر، ولم يكن يُرَاعىٰ فيها حرمة لقانون شرعي أو وضعي. وكانت جرائم القتل الفظيعة ترتكب داخل الكنائس والمذابح. ولم يسلم مكان ما من السلب والنهب»(١).

أما بلاد فارس فقد شاعت فيها عبادة الفرج عدة قرون. وأول من دعا إليها أَرتكز رسيس مِنيمون شقيق قُبرص؛ وقد بلغت تلك العبادة أشدَّها على عهد مَزْدَك (4)، وكان يدين بمبدأ الشركة في النساء فيما يدين به من المبادىء الممقوتة، كما كان يقدِّس مناظر الفحش التي تقترن بالعربدة والسُّكر. وكانت هذه الشيوعية الفظيعة في النساء منتشرة أيضاً في الهند طبقاً لتعاليم شَكْتكماك (5) التي بلغت عنفوانها في الهند إذ ذاك. وكان من

---

(3) امبراطورة بيزنطة تيودورا Theodora (٥٢٧ - ٥٤٨) زوجة جستنيان، وجون الإفوسي الذي يعرف الامبراطورة حق المعرفة، لا يطعن عليها بأكثر من قوله فيها: تيودورا العاهرة، قصة الحضارة ١٢/٢١٣.

(١) روح الإسلام: للسيد أمير علي، [وانظر قصة الحضارة - عصر الإيمان].

(4) مَزْدَك: عاش في القرن الخامس الميلادي، تبنَّى دعوته قباذ الأوَّل.

(5) لديانات الهند انظر قصة الحضارة الجزء الثالث، وتاريخ الحضارة لجورج حداد، طبعة الجامعة السُّورية ١٩٥٨ م.

حق الكاهن الشكتماكي أن يطلب التمتع بزوجات غيره،فيطاع أمرُه بطيب خاطر. وكانت العَروس تقضي الأسبوع الأول في صحبة كبار الكهنة، ويرون ذلك فضيلة تجلب رضا الرب فيبارك في حياتهم الزوجية. وكانت ليلة الاحتفال بالعيد الهندوكي المسمى بالشِّفْرارتي مظهراً لأفحش ضروب البهيمية فكانوا لا يتورعون عن الزنا بالمحارم تحت تأثير الخمر والنساء، كما كانت الأناشيد المقدسة التي يترنمون بها في تلك المناسبة تُشيد بهذه المنكرات والخبائث. ولما كانت الفضائل في نظر الناس صورةً منعكسة من صفات الإله الذي يؤمنون به (وهذا صحيح لأن الإله في كل زمان ومكان يجمع في ذاته كافة الصفات التي يراها الناس فضائل وكمالات) أمكننا أن ندرك مدىٰ الهوة السحيقة التي تدهورت إليها الأخلاق عند الهنود، لأن حياة آلهتهم كانت طافحة بألوان الفساد الخلقي.

ولكنَّ بلاد العرب كانت أشد البقاع ظلاماً في أحلك عصر في تاريخ العالم، فقد فشا فيهم شرب الخمر، وانتهاك العرض، ولعب الميسر، وكان سفك الدماء، ووأد البنات، ونهب الأموال، من دواعي الفخر عندهم. ولم يكن لهم وازع خلقي أو ديني أو اجتماعي يكبح جماحهم. ولم يكن للزواج حدود، ولا للطلاق قيود. وإلى جانب الفوضى العامة في العلاقات الجنسية، كانوا يتهالكون علىٰ الزنا بالمحارم. وكان الأبناء يَنْكِحُون ما نكح آباؤهم من النساء. وكان المحصنَات من النساء لا يَرَيْن عاراً في أن يغازلن غيرَ أزواجهن، بل كن يفخرن في حياة الحليل، بعدد ما لهن من خليل. وكانوا يئدون البنات أحياء. وكانت المنازعات الدموية شائعة بينهم، وكثيراً ما كانوا يقتلون الرجل لأنْ بدرت منه كلمة طائشة. وكانت روح السَّلب والنهب والقتل والانتقام من القوة بحيث إن النساء لم يكن يهدأ لهن بال حتىٰ يصبغن ملابسهن بدم أعدائهن، ويأكلن

قلوبهم، وإني لا أتصور رذيلة لم يتصف بها العرب في أسوأ صورها في ذلك الوقت. ويقول جيبون عن العرب في تلك الأيام «لم يكن الإنسان يفترق كثيراً عن الحيوان في ذلك المجتمع الذي لا يستحق هذا الاسم، فقد كان أشبه بحال الإنسان البدائي في الانحطاط، فلم يكن يعرف القوانين، ولم يمارس الصناعات، وكانت مداركه العقلية ضعيفة، ولا يكاد يُبِين».

صحيح أنه لم تخلُ حِقبة من الزمان من الشرور والآثام، ولكن أسوأ ما كان يمتاز به هذا العصر هو أن البشرية بلغت الدرك الأسفل من الانحطاط ولئن كان العالم في حاجة قط إلى نبي، لقد كان أحْوجَ ما يكون إليه في ذلك الوقت، وقد جرت سنة الله في خلقه أن يرسل النُّور عقب الظلام، وأن يرسل الغيث عقب الجفاف، كذلك الأنبياء تظهر عَقِبَ فترة من فترات الانحطاط البشري، ولكن الفترة التي سبقت مبعث النبي صلى الله عليه وسلم امتازت بأن العالم جميعه قد غَشِيَته سحابة كثيفة من الكفر والجهل والفجور، واحتجبت فيه شمس الفضيلة، وانقلبت الأوضاع، فصار القبيح حسناً، والحسن قبيحاً.

ولقد بعث الله تعالىٰ من قبل كثيراً من الأنبياء والرسل، ولكن الوقت الذي بعثوا فيه لم يكن مُكْفَهراً كالوقت الذي بُعث فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم تكن مهمة من تقدمه من الأنبياء شاقة، كما كانت مهمته صلى الله عليه وسلم. فقد جاء موسى عليه السلام ليحرر بني إسرائيل من رِبقَة فرعون، ويأخذهم إلى أرض الميعاد [6]. وكان المصريون في ذلك العصر أهل ثقافة وحضارة، لهم باع طويل في الفنون والعلوم، ولهم قوانين

---

(6) كما تدَّعي التَّوراة المحرَّفة، إن كل ما فعله موسى عليه السلام أنه أخرجهم من مصر إلى صحراء التيه (سيناء).

خُلُقية. وكان عندهم طائفة تسمى السَّحرة، يقرأون أسرار الكون، ويمارسون التنويم المغناطيسي. وكذلك ظهر عيسىٰ عليه السَّلام وسط الثقافة والحضارة الرُّومانيَّة، ورأى حوله ثقافة تكاد تضارع ثقافة العصر الحاضر، وكان الرومان يعبدون الأوثان، ولكن قوم عيسىٰ عليه السَّلام كانوا يعرفون التوحيد وكان التمسكُ بالرُّسوم، والوقوفُ عند صور العبادات، والرياءُ، والانغماسُ في الشَّهوات، هي الآفاق المنتشرة في عصره. ولكن دينَ الله وأحكامَه كان معروفاً لقومه. وما كان مجيىء عيسىٰ عليه السَّلام إلا «ليكمِّل النَّاموس والأنبياء نصاً وروحاً»، [لا تَظُنُّوا أني جئتُ لأنقضَ النَّاموسَ أَو الأنبياء، ما جئت لأنقضَ بل لأكمل]، (متىٰ ٥/١٧).

وإذا كانت تلك الحالة اقتضت إرسال موسىٰ وعيسىٰ عليهما السَّلام، فإن الحالة في القرن السادس الميلادي كانت تقتضي إما ظهورَ نبي في كل قطر، وإما ظهورَ نبي عظيم يُعيد الدِّينَ سيرته الأولىٰ في كل مكان، لأن النَّاس خالفوا الشَّرع، وتعدوا حدود الله في كل مكان. ولم تشاهد الأرض قط عصراً أشد ظلاماً من ذلك العصر. ولكن العرب كانوا أسوأ الناس حالاً يرتكبون أَحطَّ أَنواع الآثام، يجاهرون بها ولا يستخفون، وكانوا أجهل أهل الأرض. هذا على الرغم من أَن الله تعالىٰ حباهم بالعبقرية الشعرية النادرة، ولكنهم كانوا يَنْظِمُونَ القَريضَ ليُعدِّدُوا فيه مساوئهم. وإذا كان الأفق الأخلاقي في العالم مكفهراً في ذلك الوقت، فإن الجانب الروحي والديني لم يكن أقل ظلاماً. وكلامي هنا ينصب على المسيحية وحدها، فعيسىٰ عليه السَّلام لم يأت بشريعة جديدة، ولم يأت بدين جديد؛ ولكنه جاء ليصلح شريعة موسىٰ عليه السَّلام[1]، ولكن لم يمضِ علىٰ وفاته قرن

(١) دين إنج (Dean Inge) في مؤتمر رجال الكنيسة العصريين المنعقد بكمبردج في ٩ أغسطس [آب] ١٩١٧.

أو قرنان من الزمان حتىٰ قيل فيه ما قد قيل في غيره. وصار أشبهَ شيء بمعبد يحتفظ بكافة مظاهر الديانات القديمة، ودخلت في دينه الطاهر البسيط كافةُ العقائد الوثنيَّة التي كانت منتشرة في الهند واليونان وفارس ورومية قبل مولده بآلاف السنين. فَدَنَّسُوا اسمه الكريم بأشياء هو منها بريء، وجعلوه بمثابة إله من آلهة الوثنيين، وأنزلوه منزلة إله الشمس، وهو إله وثني معروف في العالم القديم، وأدخلوا في دينه كافة الرُّسوم الخاصة بالعبادات الوثنية، مع أن دينه لم يكن يختلف عن الإسلام في شيء(١).

جاءت المسيحيَّة للقضاء علىٰ الوثنيَّة، فإذا بها تصبح فريسة لها لا حول لها ولا قوة، ولم يكن للفلسفة الزائفة أسوأ الأثر في العالم المسيحي فحسب، إذ أحالت الدين المسيحي إلىٰ دين وثني، بل إن هذه الفلسفة المزعومة التي ظهرت من جديد باسم الأسبينوزية تعدىٰ أثرها إلىٰ الديانات القديمة في الشرق، فانتشرت عبادة الأوثان بين الأجناس السامية في آسيا الوسطى والشرقية، ولذلك كان العالم المعروف علىٰ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ما بين هذه الأجناس السامية والعالم المسيحي، مضافاً إليه القبائل الشمالية في أُوروبة عبارة عن مرتع واسع لعبادة الأوثان الممقوتة. وقد تبين لنا أخيراً أن الأجزاء المجهولة من العالم كانت تدين أيضاً بعبادة الأوثان حتىٰ إن بعض القبائل اليهودية لم تسلم من هذه العدوىٰ، فاشتركت في عبادة الأوثان، وتقديم القرابين للأصنام المنصوبة علىٰ الكعبة(٢).

وعَبِثت يد التَّغيير والتَّبديل بجميع الكتب السَّماويَّة التي أُنزلت من حين إلى حين في جميع الأُمم والأقطار لهداية الناس، وَأَسْدَلَتْ المذاهبُ الوضعيةُ حجابَ الإبهام على الكتب السماوية، وامتدت يد التحريف إلى

---

(١) مصادر المسيحية، [كتاب للمؤلف].

(٢) Pr. J.J. Lane.

الكتب المقدسة عند بني إسرائيل، والفرس، والهندوس، والصينيين، والبوذيين. ولم يَنْجُ الكتاب المقدس من هذا المصير، حتىٰ لا يؤمن اليوم بصحته إلا قليلٌ. ومن المسلم به أنه دَخَلَه كثير من الأقاصيص التي تتناقلها الأفواه. ويعترف كثير من رجال الكنيسة الإنجيلية أنه لا يسعهم الإيمان الصادق بكل ما ورد في الكتاب المقدس، سواء منه العهد القديم أو الجديد، كما لا يسعهم أن يحلفوا اليمين بأنه صحيح[1] لأنهم لا يؤمنون بصحة الكثير مما ورد فيه من العقائد والأساطير.

وإذا كانت تلك حال الكتب المقدسة في القرن السادس الميلادي، وحارت الأفهام في إدراك مراد الحق، كان من الصعب أن نتصور أن الله تعالىٰ يترك الناس وشأنهم، بل كان من المؤكد أن يرسل رسولاً من لدنه، فيوحي بإذنه ما يشاء، ويعيد الدين إلى ما كان عليه من جمال وصفاء. ويشير القرآن الكريم في هذه الآية إلىٰ ضرورة الوحي: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرينَ ومُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بالحَقِّ لِيَحكُمَ بَيْنَ آلنَّاسِ فِيمَا آخْتَلَفُوا فيهِ وَما اخْتَلَفَ فِيهِ إلَّا آلَّذينَ أُوتُوه مِنْ بَعْدِ ما جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَىٰ اللَّهُ آلَّذينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ آلحَقِّ بِإِذْنِهِ واللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾، [البقرة - ٢١٣].

المنطق واضح في هذه الآية، فهي تحدثنا عن عناية الله تعالىٰ

---

(١) في المجلس الأدنى المنعقد في كنتربوري بجلسة ٥ يوليو سنة ١٩١٧، طلب بعض رجال الدين تغيير صيغة السؤال الثالث الذي يوجه إليهم عند تنصيبهم، لأنهم لا يستطيعون الإجابة حقاً وصدقاً، بالصيغة الرسمية المقررة لفقدانهم الإيمان المطلوب.
(السؤال) هل تؤمن حقاً وصدقاً بالكتب المعتمدة في العهد القديم والعهد الجديد؟
(الجواب) أومن بها حقاً وصدقاً.
وقد تغير السؤال بناء على ذلك الطلب.

بخلقـه، وتعريفهم بـه، وأنه أنـزل الكتب السمـاويـة إلىٰ مختلف الأمم، ولكنهم عَصَوْا أمر ربهم، فبعث الله النبيين في كل أمة قبل النبي صلىٰ الله عليه وسلم. ولكن كل أمـة تنكَّبت عن الجادّة المستقيمـة، واحتدم بينهم الخلاف على أصول الدين ولكن الخلاف بلغ أشده في المسيحية، فكان لا بد من أحد أمرين: إما أن يُبْعثَ نبيٌ في كلِّ أمة ليحسم مـادة الخلاف فيها، أو يُبْعث نبيٌ واحد ليفصل في الخلاف الذي دب في الأُمم جميعاً.

ويلخص القرآن الكريم الموقف كله فيما يلي من الآيات، وهو كتاب الله الأخير الذي أنزل ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه:

﴿ تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَـا إلىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْـطَانُ أَعمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم، وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْـكَ الكِتَابَ إلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّـذِي ٱخْتَلَفُوا فِيـهِ وَهُدىً وَرَحْمـةً لِقَوْمٍ يُؤمِنُـونَ ﴾ [سـورة النَّحـل: ٦٣ و٦٤].

هذه الآيات أبلغ من أن تحتاج إلىٰ أي تفسير على ضـوء الحوادث التي ذكـرناهـا آنفاً. فهي تتحـدث عن أمرين (الأول): أن الشيـطان زين للناس أعمالهم، (والثّاني): أن الدِّين الذي جاءت به الرسل قد تشعبت به أودية الخلاف. وإذا عرفنا أن الناس صاروا يرون أقبح مـا يأتـونه حسنـاً، علمنا أن الشيطان زين لهم أعمالهم حتىٰ لقد كـان المسيحيون يتـواصون بهذا القول «فلنفعل الشَّرَّ كي يأتي الخير». وإذا استثنينا الإسلام لم نجد ديناً يخلو حتىٰ في عصرنا الحاضر من المذاهب الأصليَّة والفرعية التي نبتت من وقت لآخر وفقاً لأهواء أهل الغرور.

وفي وسع المسيحية أن تفخر ـ مـع التواضع ـ بأن لها الحظ الأوفـر من أمثال هذه المذاهب!! ففيها ما ينيف علىٰ الأربعمائـة مذهب! وأدهىٰ من ذلك وأمر أَنَّ الخلافات المذهبية السَّائدة في جميع هذه الأَديان تمس

الأصــول والعقـائــد، على عكس الحـال في الإســلام حيث لا تختلف المذاهب الثلاثة أو الأربعة المعروفة في أي أصل من أصول الدين[١].

ويجب ألا يَعـزب عن البـال أن الخـلافـات الـداخلية في الأديـان الأُخرىٰ ليست حديثة العهد، إذ أنها وُجدت بشكـل محسوس قبـل نزول القرآن مباشرة. وقد ظل كثير من الأديان سليماً بعد ظهورها بمدة طويلة إلا المسيحية، فلم يكد يمضي على وفاة صاحبهـا عليه السـلام قرن ونصف قرن من الزمان، حتى أصبحت خليطاً من العقائد المتنـاقضة. ومعلوم أن الحق واحد لا يتعدد، ولكنه عند المسيحيين لا يُحصى له عدد! فهل ترى أن الله تعالى يَذَرُ النَّاس على ما هم عليه، ويرضى عن هذه الفوضى؟ لقد جرت سنة الله في خلقه أن يخلق من الفوضى نـظاماً في عـالم الأشباح، فهل يكون الأمـر بخلاف ذلـك في عالم الأرواح؟ قـال إنج، عميـد كلية القديس بولس، مخاطباً شعبة اتحاد رجال الكنيسة في أكسفورد: «يود كثير من رجال الكنيسة لو أن حركة الحرية الفكريـة وقفت خارج البـاب (باب الكنيسة)! ولكن انظروا ماذا تكون النتيجة لو أن صوت الفكر الحر اختنق داخل الكنيسة الانجليزية! إذاً لكانت الكنيسة تعتقد الآن أن الشمس تدور حول الأرض[7]، وأن الجَنَّة في مكـان يمكن الوصـولُ إليه في طيـارة إذا عُرِف الطريق، وأن جهنم تحت أقـدامنا، وأن ثـوران البراكين ـ كمـا كان يزعم رجال الدين في العصور الوسطىٰ ـ ناشىءٌ من زيادة سكان الجحيم. كل هذه أمور لم يؤمن بها رجـل متعلم، ولم يسعه الإيمـان بها. ولـو أن الكنيســة ظلت متمسكة بهـذه العقـائـد لمـا بقي فيهـا مكـان إلا للحمقىٰ

(١) مصادر المسيحية [للمؤلِّف].

(7) لم يجرؤ كوبكرنيكس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣ م) الفلكي البولوني على نشر نظرياته العلمية المخالفة لما تعتقده الكنيسة خلال حياته خوفاً من البطش والحرمان.

والـدَّجَاجِلَة. ويـرى رجـالُ الكنيسـة العصـريـون أن الـواجب يحتم على الكنيسة أن تواجه المشاكل، وتلتمس الحلول لها عن طريق البحث المنزَّة من كل قيد. وهم لا يـرون أن الاستناد إلى أقـوال الغير، أو إلى التقـاليد الموروثة قـد أدى إلى حل مشكلة من المشـاكل ، كمـا أنهم لا يرون أن الناس مكلَّفون بتصديق المبادىء التي وضعت في القرون الأولى، ولكنهم يرون وجوب مراعاة التطورات الحديثة في الفلسفة، والتَّـاريخ ، والنَّقـد، وبخـاصة العلوم الـطَّبيعيَّـة. وقـد كشفت البحـوث العلمية الحـديثـة في الديانات القديمة عن أشياء تسترعي انتباه المفكـرين من أهل العصـر، ولا يرون معها مناصاً من أن يرفضوا «العقائـد التي أضفى عليهـا الزمن ثـوب الاحترام، والآراء الدينية التي تلقاها النَّاس بالقبول».

ولكن هذه «العقائد التي أضفى عليها الزمن ثوب الاحترام، والآراء الدينية التي تلقاها الناس بالقبول» كانت موجودة فعلاً في القرن السـادس الميلادي، وهذه الآراء السخيفة عن الجنة والنـار كانت سـائدة وقتئـذ في العالم المسيحي. وإذا كان عيسى عليه السلام قد جاء برسالة من عند الله، فهل يرضى الله تعالى أن تظل الكنيسة المسيحية مقفـرة إلا من «الحمقى والـدَّجاجلة» زهـاء ثمانيـة عشر قـرناً، حتى يـأتي حضـرة العميـد العـالم وزملاؤه، فيصلحوا ما فسد بمبادئهم العصريـة؟ إن هذا يـذكرني بـأنه من المناسب في هذا المقام أن أذكر كلمة عن مداولات المجَدِّدين من رجال الدين المسيحي.

لقد ظلَّ كبار رجال الكنيسة يجتمعون كل عام تقريباً منذ سنة ١٩١٥ لإصلاح معتقداتهم الدينية. وقد قرروا ما يأتي:

(١) أن عيسى ليس إلَّا بشـراً، كما أنـه ليس هو الله بـأي معنىً من

معاني الكلمة[1](8).

(٢) وأن بنوَّته لله معناها قربه من الله فقط ـ وهي مرحلة من الرقي الرُّوحي مفتوحة لكل بني آدم. وأن نظرية «الحبل بلا دنس» ابتدعت لمجرد تعزيز الاعتقاد في ألوهيته.

(٣) وأن الاعتقاد في زلة آدم اعتقاد خطأ[٢]، لأن الإنسان يَبرز إلى الوجود من غير أن تكون الخطيئة مركوزة في فطرته[٣]، إذاً الخطيئة أمر كسبي. وفي وسع الإنسان أن يتخلص منها بمجهوده الخاص، وليس في وسع أحد أن يكفِّر عن خطايا غيره[٤].

(٤) وأن معظم الشعائر الدينية المسيحية قد اقتُبست من الوثنية[٥]، ومنها العشاء الرباني الذي تسرَّب إليها من الشعائر المعروفة عند عباد الشمس.

---

(١) سورة مريم الآيات (٩٠ ـ ٩٣) المائدة (٧٥) ـ آل عمران (٥٩) ـ التوبة (٣٠).

(8) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحمنُ وَلَداً، لَقَد جِئْتُم شَيْئاً إِدّاً، تَكَادُ السَّموَاتُ يَتَفَطَّرنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً، أَن دَعَوا للرَّحمنِ وَلَداً، وَمَا يَنْبَغي للرَّحمن أَن يتَّخِذَ وَلَداً، إنْ كُلُّ مَن في السَّمواتِ وَالأَرضِ إلاَّ آتي الرَّحمنِ عَبْداً﴾، [مريم: ٨٨ ـ ٩٣].
﴿مَا المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَت مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يأكُلانِ الطَّعَامَ انظُر كَيْفَ نُبيِّنُ لهُمُ الآياتِ ثُمَّ انْظُر أَنَّى يُؤفكُونَ﴾، [المائدة: ٧٥].
﴿إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ من تُرابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكونُ﴾، [آل عمران: ٥٩].
﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصارى المَسِيحُ ابنُ اللهِ ذَلِكَ قَولُهُم بِأَفواهِهِم يُضاهِئونَ قَوْلَ الَّذين كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤفكُونَ﴾، [التَّوبة: ٣٠].

(٢) قسيس بارتنجتون في مؤتمر رجال الكنيسة العصريين ـ ٢٦ أغسطس ١٩٢٥ بأكسفورد.

(٣) «كل مولود يولد على الفطرة» (حديث شريف).

(٤) الأنعام (١٦٤)، [﴿وَلاَ تَكسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلاَّ عَلَيْها وَلاَ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى﴾].

(٥) التوبة (٣٠)، دكتور بارنز في عظته ـ أغسطس ١٩٢٥.

(٥) وأن عيسى كان يشارك معاصريه في أخطائهم(١).

(٦) وأن الكنيسة المسماة باسمه لم يؤسسها هو(٢).

(٧) وأن الكتاب المقدس ليس كلام الله صِرْفاً(٣)، ولكنه مشوب بالأقاصيص التي كانت تجري على ألسنة الناس، كما أن كثيراً من الحوادث الواردة فيه لا يقبلها العقل.

(٨) وأن عيسى لم يمت على الصليب بل أغمي عليه، وأن بعثه كان بالروح لا بالجسم(٤).

إذا استثنينا ما أَدت إليه حركة الإصلاح الديني من نبذ العقائد السخيفة التي سادت في القرون الوسطى، ومن اعتبار بعض عقائد الكنيسة الرومانية من آثار الوثنية، بدا لنا أن هذه الحركة لم تؤد إلىٰ إصلاح الحال إذا نظرنا إلى التركة الثقيلة التي خَلَّفها للمجددين. ومهما يكن من أمر فقد ثبت أن حركة الإصلاح الديني كانت حركة سياسية لتحرير الدولة من سلطان الكنيسة؛ ولعلها كانت تهدف إلى نقض قرارات مجمع نيقية الَّذي جعل الّدولة تابعة للكنيسة. ومعلوم أن الهيئات البروتستانتية ولاسيما

---

(١) عميد كارلزل ـ أكسفورد ١٩٢١.

(٢) المائدة (١١٦ ـ ١١٧) [﴿وَإِذ قالَ اللَّهُ يا عيسَى ابنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوني وَأُمِّي إِلٰهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يكونُ لي أن أَقُولَ ما ليسَ لي بِحَقٍّ إنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَد علمتَهُ تَعْلَمُ ما في نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ ما في نفسِكَ إِنَّكَ علاَّمُ الغُيوبِ، وَمَا قُلتُ لَهُم إلاَّ ما أمرتَني بِهِ أَنِ اعبُدوا الله رَبِّي وَربكُم وَكنتُ عَلَيْهِم شَهيداً ما دُمتُ فيهم فَلَمَّا تَوَفَّيتني كنتَ أنتَ الرَّقيبَ عَلَيهم وأنتَ عَلَى كُلِّ شيءٍ شَهِيدٌ ﴾]. دين إنج في مؤتمر رجال للكنيسة في كمبردج ـ ٩ أغسطس ١٩١٧.

(٣) النساء (٤٦) [﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَواضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنا وعَصَيْنا. . ﴾]. المجلس الأدنى لمجمع كنتربوري بجلسة ٥ يوليو ١٩١٧.

(٤) آل عمران (٥٥).

الكنيسة الإنجليزية، تكاد تتفق مع الكنيسة الرومانية في نفس العقائد فيما عدا عصمة البابا، وبضع أمور أُخرى، ولكن المجددين أتَوا على بنيان المسيحية من القواعد، ليعيدوا دين المسيح سيرته الأولى خالصاً من الشوائب، على أن المهمة التي تصدى المجددون للقيام بها، قد سبق إليها نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، ولم أرَ في مداولاتهم شيئاً ذا أهمية إلا وقد نصَّ عليه القرآن الكريم، وعالجه بطريقة أكثر وضوحاً ودقة، وأكثر تمشياً مع المنطق والحقائق.

وإني لأعجز عن فهم العقلية المسيحية في هذا الموضوع، فإنه إذا كان الدين شرعاً إلهياً موحىٰ به من عند الله مباشرة، كانت هذه المحاولاتُ التي تُبذل لجعله مسايراً لروح العصر قَدْحاً في تنزيل الحكيم العليم! ومع ذلك يبدو أن رجال الكنيسة لا يجدون في أنفسهم حَرَجاً من الترحيب باجراء التعديل والتبديل في عقائدهم الدينية، ولكن لعلها عادة موروثة، ومن حق الكنيسة الغربية أن تفخر بأنها تمتاز دون سواها بتغيير العقائد الدينية بما يلائم روح العصر! وإذا جاز للقديس بولس أن يُغَيِّر في الدِّين رغبة في مجاراة الوثنية في عصره، ولم يمنع ذلك من أن يكون هو الحجة الفرد عند الكنيسة، فهل على أهل العصر الحاضر من حرج إذا هم أوَّلوا أحكام الدِّين تأويلاً يتَّفق ومقتضيات العقل على النحو الَّذي أشرنا إليه في مداولات المجددين الأخيرة في أُكسفورد؟؟

ولما كانت سنة الله جرت بأن يخاطب عباده من حين إلى حين على لسان رسول من البشر، يرسله بالهدى ودين الحق ـ وليس في وسعهم أن ينكروا هذه السُّنَّة الإلهية وإلاَّ انهار صرحُ المسيحية من أساسه ـ لم يكن المعقول أن يَنْتدِب لهذا العمل الإلهي مجامعُ ومؤتمرات من بني الإنسان، إذ القوانين والسنن الإلهية ثابتة لا تتغير، ولن تجد لسنة الله تحويلاً. وقد

أَشارت كافة الديانات القديمة في العالم إلى هذه السُّنَّة الإلهية ـ وهي اصطفاء الله تعالى لرسول واحد في كل عصر ليُبَلغ رسالته للناس، فإذا تطرَّق الفساد إلى هذه الرسالة، وعبثت بها أيدي النَّاس بعث الله رسولاً جديداً ليطهّر الدِّين مما عَلِقَ به من الشَّوائب والأكدار وقد أَرسل الله عيسى عليه السلام لأداء هذه المهمة نفسها، مبشراً بنبي يأتي من بعده بالهدى ودين الحق.

ولكن قومه لم يعبؤوا بقوله، وزعموا ـ متأثرين بالوثنية ـ أنه جاء ليكفِّر عن خطايا البشر بدمه، فنسخوا بذلك الحكم الإلهي الثابت من قديم ـ وهو أن النجاة منوطة بطاعة الله تعالى، وامتثال أوامره. ثم إنهم غيروا في سُنة الوحي الإلهي ـ ولعل ذلك بتأثير الوثنية أيضاً ـ فزعموا أن الله تعالى لا يصطفي رجلاً واحداً ليكون رسولاً للناس، ولكنه يوحي إلى المجامع والمجالس المؤلفة من القساوسة والأحبار، ولكن الدين الَّذي يصنعه البشر، لا يمكن أَن يرضيَ العقل، إذا كان هذا العقل قد شبَّ عن الطَّوق، على أن الاضطراب الفكري في العقائد الدِّينية الذي يعانيه الغرب اليوم ليس شيئاً جديداً، فمنذ ظهور الكنيسة ظل هذا الاضطراب ينتاب العالم المسيحي كل ثلاثة قرون أو أربعة. ثم أليست هذه المحاولات المتكررة لتجديد الدين المسيحي دليلاً على أن هذا الدِّين من صُنع البشر؟ إذ لو كان من عند الله، لوجب أن يظل على حاله في جميع مراحل نمو العقل الإنساني، وأن يكون وافياً ـ في الوقت نفسه ـ بكل ما عسى أن يَجِدَّ من المطالب والحاجات على مرور الزمن، أليست الطبيعة كلُّها تشهد بهذه الحقيقة؟ إنه ما من شيء في الكون إلاَّ وقد خُلق منذ خُلق العالم. ومع ذلك يبدو اليوم جديداً كما بالأمس، دون أن يُقَلِّل الزمن من قدرته على الوفاء بحاجة البشر، على الرغم من خضوعه لسنة التطور المطرد. وإن

الإنسان ليستطيع أن يكتشف في نُسخة الكَوْن الأصلية كلَّ ما يفي بمطالبه سواءً في الحال أو في المآل. ولذلك يطلق القرآن الكريم على الله تعالى اسم الرحمن(9)، ومعناه المنعم الذي خلق الأشياء لسد حاجة البشر قبل ظهور هذه الحاجة بزمن طويل. ولا ريب أنَّ عناية الله تعالى الذي وسع كل شيءٍ علماً سابقةٌ على ظهور الحاجة. وهكذا الشأن في الدين، إذا كان من عند الله كان شاملاً جامعاً بحيث يساير تطور العقل، ومما لا شك فيه أن المسيحية لا يمكن أن تَثْبُت أمام هذا المحك. أما المسلمون فيرون أن الدين الذي ليست لديه المناعة القوية لمواجهة أحداث الزمن لا يعد جديراً بهذا الاسم، وإني أُقرر أن الدين الذي دعا إليه القرآن يمتاز بهذه المناعة القوية التي لا تزعزعها أعاصير الزمن، بصرف النظر عن كونها فضيلة أو غير فضيلة. ولم يشعر المسلمون قط بالحاجة إلى تغيير عقائدهم الدينية مهما سمت ثقافتهم، وارتقت أفكارهم. ومن مفاخر الإسلام أنه أسدى إلى العلم والثقافة من الأيادي البيضاء ما يفوق ما أسدته المسيحية بكثير، وأنه كان يشجع دائماً حرية التعليم، ومع ذلك كان أغزر المسلمين علماً أسبق الناس إلى تأييده. وقد أثارت هذه الظاهرة دهشة إحدى الصحف الإنجليزية في الهند فلم تجد مندوحة عن الاعتراف بأنَّ الحرية العلمية في الغرب أدت إلى إفلاس العقيدة الدينية، وإثارة الشكوك، ونشر المذهب المادي، على حين أنها أدت في الإسلام إلى زيادة تمسك المسلمين بدينهم(10).

(9) ﴿الرَّحمنُ عَلَى العَرْشِ آستَوى، لَهُ مَا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما وَمَا تَحْتَ الثَّرى﴾، [طه: ٥ و٦].

(10) يقول المستشرق النمساوي الدكتور أرنست بانيرث: «التأثير الدِّيني في الغرب يتعرَّض لهزَّات عنيفة كلَّما حقَّق العلم انتصاراته، أمَّا الإنسان المسلم فإنَّه يظل على إيمانه =

على أن هناك جانباً آخر لهذه القضية. يجدر بالمفكرين العصريين، والمشتغلين بعلم اللَّاهوت من رجال الكنيسة، أن يفكروا فيه، وهو أن الصراع الفكري الذي تدور رحاه الآن في الغرب، يُثبت على الأقل أنَّ الدِّين الذي جاء به عيسىٰ عليه السلام لم يصل إلينا بحذافيره، وعلى وجهه الصحيح. فمن المسلم به أن تعاليم المسيح عليه السلام دخلها التحريف منذ البداية، كما أن جميع الجهود التي بُذلت فيما بعد لتطهيرها من الدخيل، وإعادتها إلىٰ صفائها الأصلي لم تكن تلقىٰ أي تأييد من الأجيال التالية. ولئن أصابت هذه الجهود نجاحاً، لقد كان نجاحاً ظاهراً سريع الزَّوال.

إنَّك لن تستطيع أن تعيد بناء بيت تهدم من المواد البالية. إنَّك لن تستطيع أن تعيد بناء بيت تهدم على أية صورة تقارب صورته الأُولىٰ من الأنقاض والأخشاب النَّخرة، وكل ما تستطيع أن تفعله هو أن تبني بيتاً على صورته، ولكنه يكون بيتاً هزيلاً يثير الضَّحك والسُّخرية، لا تطيق أن تنظر إليه، ولا أن تسكن فيه.

إذا كان هذا هو مصير الجهود الذي يبذلها الإنسان ليعيد ما بناه بيده بعد أن صار خراباً، فما بال الشيء الذي هو من صُنع الله؟

إن الفواكه التي تنبت من الأرض، ثم تنضج في فصل الصيف، ثم تذبل وتبلى، فلا يبقى منها إلا العَفَن والعَطَن، هل يستطيع الإنسان أن يعيدها سيرتها الأُولى حَلَاوَةً وطَلَاوَةً؟ لا ريب أن العناصر والذرات الجوهرية التي تدخل في تركيب الفاكهة، هي من صنع الله ـ وهي باقية لا

= المؤكَّد برغم اطلاعه الدَّائب والمثابر على العلوم الحديثة». مجلة «الفكر المعاصر»، العدد ٦٨، أكتوبر (تشرين الأوَّل) ١٩٧٠، ص ١٠٦.

تنقص، ولا تفنىٰ. وهذه العناصر توجد، بل وجدت منذ وجد الزمن، في الفضاء المحيط، الذي هو كتلة هائلة مضطربة غير متجانسة، لا يعلم سرَّ تركيبها إلا الله وحده. وحينما تبلى الفاكهة وتتعفن وتتلاشى، تعود الذرات الجوهرية التي تدخل في تركيبها إلى الكتلة التي جاءت منها، فتمتصها مرة أخرىٰ. ثم يُخرجها الله تعالى تارة أخرى في الوقت المعلوم لتكون بُرْعُماً من براعم الرَّبيع، ثم فاكهة من فواكه الصيف. فالله تعالى هو الذي ينشئها من جديد، ويعيدها سيرتها الأُولىٰ، حين تدعوا الحاجة إليها، ولا يد للإنسان في ذلك.

إذا كان هذا هو الحال في أفعال الله تعالى، فهل يكون الحال بخلاف ذلك في كلامه؟ إن القرآن الكريم ـ وهو آخر الكتب السَّماوية ـ يشير إلى هذه الظاهرة الطبيعية نفسها في معرض بيانه للضرورة التي اقتضت نزوله، ألا وهي وقوع التَّحريف في الكتب السماوية السابقة، يقول تعالى: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدَىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل ٦٣ و ٦٤]. ﴿وَمِنَ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، [النحل: ٦٧].

إذا استحال البيت إلى أنقاض، استحال على الإنسان أن يعيده كما كان من هذه الأنقاض. وإذا بَليت الفاكهة، واستحالت إلى عفونات، استحال على الإنسان أن يعيدها من هذه العفونات. وكذلك إذا دَرَست الكتبُ السَّماوية، وعبث بها النَّاس إما بالخطأ، أو الضياع، أو الإنكار، أو الزيادة، أو الكتمان، أو التحريف، بحيث مُسخت صورتها وَبَطلت فائدتها، استحال على الإنسان أن يُعيدها سيرتها الأُولى من الحُطام الذي بَقِيَ منها.

كـل ذلك لا يمكن أن يعـود سيرتَـه الأولى إلا بقـدرة الله سبحـانـه وتعالى، سواء ما كان مادياً كالأزهار والفواكه، وما كان معنوياً كالأديان والعقائد.

ومثلُ ذلك يقال في الدين المسيحي، فمن العبث أن ننتظر أن تقوم طائفة من الناس بإحيائه وتجديده، ونحن نعلم أنه لن يمر قرن من الزمان، حتى تقوم طائفة أُخرىٰ فتهـدم ما بنـاه الأولون. بـل يجب أن نثق بأن الله تعالى يبعث رسولاً بوحي جديد، كما جرت العادة بذلك قبل عيسى عليه السلام. فإذا كان ذلك هو الطريقة المثلى فقد شعرَ النَّاس بالحاجة إلىٰ هذا الوحي الجديد بعد عيسى عليـه السلام بقـرون قلائـل. ومن ثمَّ أنزل الله القرآن، وأرسل محمداً عليه السلام في القرن السادس الميلادي، ولا يضر أن الغرب شعَرَ بهذه الحاجة في العصر الحاضر، إذ أن العقائد التي بـان فسادها للغرب الآن، كانت فاسدة كذلك حين بُعث النبيُّ صلى الله عليـه وسلم، فكان مبعثه هو الوقت المناسب لإصلاح ما فسد منها. وإذا عُلم أن القرآن قد عالج كـافة المسـائل التي عـرض لها المجـددون المسيحيون، وكشف عن وجه الحق فيها بما يتفق مع وجهة نظرهم إلى حد كبير، أفلا نكون على حق إذا نحن آمنا بأن الإسلام دين سماوي، يجب على النَّاس جميعاً أن يتمسكوا بـه، بعد إذ بلغ الـدين الإلهي ذروة الفساد في جميـع أنحاء العالـم وقتَ نزول القرآن؟؟

لا يسعني أن أختم هـذا الفصـل، دون أن أقـول كلمـة عن الـدين العالمي الذي تدين به الإنسانية كلها إلىٰ النبيِّ العربيِّ، لمـا جاء بـه من التوحيد، وتثبيت دعـائمه في نفـوس النَّاس في وقت أصبحت فيـه عقيدة التوحيد نَسْياً منسياً في جميع أنحاء العالم، وصارت عبادة الأصنام في أسوأ

صورها وأحطها، هي الدِّين السائد في كل مكان، فكان الناس يعبدون جميع مظاهر الكون من قشرة البيض إلى الإله المتجسد، إلى الأحجار والأشجار، والرياح والأنهار والسحاب، والسماء والنجوم، والشمس والقمر، بل كانوا يعبدون أهواءهم وشهواتهم بأسماء مختلفة! وإذا كان للهنود تماثيل لا عد لها يعبدونها، ويبتهلون إليها في قضاء حوائجهم، فقد كان للمسيحيين قديسون لا عد لهم يعبدونهم كذلك. وكانت عبادة الفرج على أشدها، ولا سيما في الهند حيث لا يزال فيها بعض المعابد المخصصة لهذه العبادة. وقد شاهدت بعضها بعيني رأسي، وشاهدت المناظر البشعة الشائنة التي نُقِشت على جدرانها، فاشمأزت نفسي، وهنا يتجلى منتهى الفحش والفجور الفاضح، الذي لا مزيد عليه. ولا يحتاج المرء إلى كبير عناء لكي يتخيل الأفعال الشّنيعة التي تجري بين جدران هذه المعابد المخصصة لآلهة الشهوة، وكل ذلك يرتكب باسم الدِّين. وهل يستطيع القارىء أن يتصور حالة أسوأ من حالة الدِّين التي كانت سائدة حين جاء محمد صلى الله عليه وسلم لإنقاذ عقيدة التوحيد كما يقول سِويدِنْبُورج؟

كان يوجد في بلاد العرب ـ قبل البعثة النبوية ـ جميع المعتقدات والمذاهب. فكان فيها اليهودية والمجوسية وجميع مذاهب المسيحية، ومذهب عبادة الشمس، والاعتقاد في تقمص الأرواح، ومختلف المذاهب والعبادات. ولكل منها أتباع. ولكن جزيرة العرب ظلت في صميمها بعيدة عن المؤثرات الخارجية، واتبع العرب دينهم الخاص الحافل بالخرافات، ولم يقتصروا على عبادة الشمس والقمر والنجوم، بل عبدوا كل ما هبَّ ودَبَّ من الأصنام، وأصبحت الكعبة وهي أول بيت وضع للناس، حين ذهب إبراهيم ليعبد الله وحده، محلا لعبادة ٣٦٠ إلهاً، لكل يوم إله. وكان

هُبَل واللاَّت والعُزَّى[11] رؤساء هذه الآلهة. وكان العرب يصنعون الآلهة على صورة الإنسان، وعُقاب الجو، والأسد، وما شاكل ذلك. ويَجُرُّون أولادهم ليذبحوهم عند مذابح هذه الآلهة، فضلاً عن القرابين الأُخرىٰ. أفترىٰ أَنَّ الله تعالىٰ يترك بلاد العرب وغيرها من بلاد العالم على هذه الحال الفظيعة، في وقت خلت فيه المسيحية واليهودية وغيرهما من عقيدة التوحيد، ولم تصبح مصدراً للهدىٰ والنور؟

يطيب لي هنا أن أذكر بعض الشيء عن العقائد المسيحية التي كانت منتشرة وقت ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، فأقول: كان المسيحيون في رومية أقلية في بادىء الأمر، وكانت هناك مذاهب وثنية تقف في وجه المسيحية، وأشدها عداوة (المِثرَائية)[١] فنشب الكفاح بينهما. ولكن كفاح المسيحية ضد المثرائية لم يكن ككفاح الإسلام ضد العقائد الوثنية في الجزيرة العربية إذ اقتبست المسيحية طقوس العبادة الوثنية بالجملة، ولم تقض عليها كما قضى عليها الإسلام. وكان من عادة كل من ترك الوثنية ودخل في المسيحية، أَن يدخل فيها حاملاً معه شعائرَه الوثنية وعاداتِه، وبمرور الزمن، وطبقاً لسنة التَّطور، أصبحت هذه الشعائر الوثنية جزءاً من شعائر الدين الجديد، وأهمها العشاء الرباني، وقد تفتحت عيون المسيحيين في القرن العشرين على هذه الحقيقة ويظهر من الأبولوجيا التي كتبها «جُسْتُنِ مارتر» أن ذلك حدث قبل عهده. ولما بدأ الإنجيل الرابع

---

(11) هُبَل: عقيق أحمر على شكل إنسان، مكسور اليد، فاستبدلت ذهباً، يستقسمون عنده بالأزلام.
واللاَّت: صخرة مرَّبعة في الطَّائف، عُرِفت باسم الرَّبَّة.
العُزَّى: بوادٍ بين مكَّة والعراق.

(١) Pr. J. Parkinson.

يسيطر على الفكر المسيحي حوالي منتصف القرن الثالث ـ وإن كان قد كُتب في بداية القرن الثاني ـ وَجَّه الوثنيون هذا السؤال بلهجة التحدي للمسيحيين «إن كان عيسىٰ بشراً فلم تعبدونه؟ وإذا كان إلهاً ففيم البكاءُ على آلامه؟» وهذا أدى إلىٰ اختلاف الآراء في كنه التثليث، فذهب بعضهم إلى أن الثلاثة ـ الأب والابن وروح القدس ـ ليسوا ذواتٍ مستقلة، ولكنهم قُوى لإله واحد. وقال بعضهم إنَّهم ثلاثة مظاهر لإله واحد، القوة والحكمة والخير. وقد كان قُدامى الهندوس واليونان يقولون بتثليث شبيه بهذا. وذهب بعضهم إلى أن عيسىٰ ما هو إلا بشر رفيع المقام، ولد بشكل خارق للعادة. وكان هذا اللغز الَّذي لا يُحل، ولن يحل، بمثابة السم الزُّعاف في قلب العالم المسيحي، فصار كالمِرْجلَ يغلي بالمذاهب المتناحرة. وصارت الكنائس نفسها مسرحاً للقتال، وسفك الدماء، والإضطهاد الوحشي وكاد هذا الصراع يذهب بالمسيحية، لولا أن (الدولة) سارعت إلى إنقاذها. وكان انتصار قسطنطين [12] فوزاً لها. وحاولت ثيودوسيا أن تثبِّت أقدام المسيحية، ولكن ذلك لم يقض على الصراع الدائر حول العقائد، بل احتدم النزاع جدًّاً، وامتلأت القلوب حقداً. وذهب أرْيوس [13] إلى أن «الابن متميز عن الأب تميزاً كلياً وجوهرياً» فكان جزاءه الطردُ من الكنيسة، بموجب قرار استصدره الأسقف ألكسندر من [مجمَعَيْن] انعقدا في الإسكندرية، وتوالت المذاهب واحداً بعد واحد، وكلٌّ يأتي

---

(12) قسطنطين الأَوَّل (الكبير): ٢٧٤ ـ ٣٣٧ م هزم ماكسانس على أبواب رومة سنة ٣١٢ م، باني مدينة القسطنطينية التي دشَّنها سنة ٣٣٠ م بعد أن وحَّد الامبراطورية الرُّومانيَّة.

(13) آريوس Arius كاهن من الاسكندريَّة عقيدته: المسيح غير مساوٍ للآب في الجوهر، كما أنكر أُلوهية المسيح، فحرمه مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م، واستمرت دعوته للتوحيد حتّى أواخر القرن الرَّابع في الشرق، وحتّى القرن السَّابع في أُوربة.

بحل جديد ولكنه غير مفهوم. ثم نشأ نزاع آخر على كيفية الجمع بين الطبيعتين الإلهية والبشرية في عيسىٰ، ونزاع آخر على شخصية روح القدس ومركزه، إلى أن جاء المانوية، وشبهوا عيسى بمثرا إله الشَّمس، وقالوا إنَّ عيسىٰ كان له جسد فيما تراه العين فقط، ولذا لم يكن في وسعه أن يتألم. وإني أُلخِّص هنا النَّتائج التي انتهت إليها [المجامع] التي انعقدت لحل هذا اللُّغز.

أصدر [مجمع][14] نيقية (٣٢١ م) قراراً بمخالفة أرْيوس، مُقَرْراً أن المسيح هو الله حقاً، وأنه كُفء لأبيه، ومشترك معه في القدم، منفصل لكنه واحد. أما [مجمع] القسطنطينية (٣٨١ م) فقد خالف أبولينارس الذي قال إنه في الحقيقة بشر. أما [مجمع] «إفسوس» (٤٣١ م) فقد قرر أنَّ الطبيعتين شيء واحد لا ينقسم، أما [مجمع] خَلْقيدُونية فقرر أن الطبيعتين متميزتان تماماً[15].

أَمَّا النُّسطورية فقسموا الكنيسة إلى معسكرين. وسعى هِرَقل[16] إلى التوفيق بينهما بمرسوم (٦٣٠ م) الذي أكَّد أنه وإن كان في المسيح طبيعتان فله إرادة واحدة. ولكن هذا السَّعي ذهب أدراج الرياح. وقررت الكنيسة الكاثوليكية أن هناك إرادتين إلا أنهما متوافقتان دائماً. وأخيراً وافق

(14) في الترجمة: مجلس، والأصح: مجمع.

(15) انظر: محاضرات في النَّصرانيَّة للإمام محمد أبي زهرة.

(16) هرقل الأوَّل: (٦١٠ ـ ٦٤١ م) تحوَّلت الدولة الرومانية في عهده نهائياً إلى دولة يونانية ـ بيزنطية، انتصر على الفرس نصراً حاسماً في وقعة نينوى ١٢ (ديسمبر) ٦٢٧ م، مكَّنه من الزَّحف على المدائن ٦٢٨ م، وتمَّ عقد الصلح الذي تمَّ بمقتضاه عودة جميع ما استولى عليه الفرس من ممتلكات إلى بيزنطة.
وفي عهده فتح العرب المسلمون بلاد الشام ومصر، (موسوعة تاريخ العالم) وليام لانجر ٤٧٨/٢.

قسطنطين الثاني سنة ٦٨١ م على أن الإرادتين الموجودتين في عيسى متوافقتان، ولكن هذا لم يحل الإشكال، بل كل ما صنعه أنه أضاف عقيدة جديدة غير مفهومة إلى شتى العقائد الأخرى الجوفاء التي تقدمت بها الكنيسة الأرثوذَكسية. وكذلك أدى الاتصال بين المسيحية والوثنية إلى عدة تعديلات أُخرى، فقد نقلت المسيحية عنها كثيراً من الطقوس والاحتفالات الدينية. ولم يمضِ القرن السادس الميلادي حتَّى أشرك المسيحيون بالله كما أشرك أهل الديانات الأُخرىٰ، ورفعوا مريم إلى مرتبة الأُلوهية. وكان الثالوث الأول يتألف من إلهين ومألوهة ـ الأب والابن والأم ـ ثم إنَّهم نصبوا التماثيل في الكنائس، ووجهوا دعاءهم وصلاتهم إلى تماثيل القديسين. وعمَّ الماء المقدس بالتدريج الطقوسَ الكَنَسية مع العلم بأنه من التقاليد الوثنية، والواقع أن المسيحية كانت قد انقلبت إلى الوثنية، وعبادة الأصنام، وقت ظهور النبيِّ صلى الله عليه وسلم. فهل كان هناك وقت أنسب من هذا الوقت، وعصر أحوج من هذا العصر، لظهور نبي، لا سيما إذا ذكرنا أن الآراء التي يذهب إليها مفكرو المسيحية في العصر الحاضر يرجع أكثرها إلى الاتصال بالدين الإسلامي؟

دعا محمد صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد الخالص، وأقام دعائمه على أساس متين لا يتزعزع. ولما كان الغرض من الدين هو تعريف الخلق بالحق، فهل يستطيع التاريخ أن يحدثنا عن شخص آخر غير النبي صلى الله عليه وسلم خدم القضية الدينية أكثر منه؟

إن عهد الشرك آخذ الآن في الزوال، على حين أن نجم التوحيد آخذ في الصعود. ويحاول القائلون بالتثليث أنفسهم، وَعَبَدة الحجارة في الهند كذلك، أن يبرروا عقائدهم الدينية وأساليب عباداتهم، وأن يُثْبتوا أن عقائدهم لا تخالف وحدانية الله. والفضل في ذلك كله لما انتشر من مفهوم

الدين بعد الاحتكاك بالإسلام ولما جاء به الإسلام. لمحمد صلى الله عليه وسلم.

والآن أحب أن أوجه هذا السؤال إلى أصدقائي من القائلين بالتثليث رجاء أن يتدبروه، وهو «هل كان يمكن أن يَسلَم لهم دينهم أو يصل إليهم قط لو لم يُرسَل محمد صلى الله عليه وسلم؟» إنهم لا يؤمنون بألوهية أي شخص، بل يعبدون إلهاً واحداً، وقد جاء عيسى عليه السلام بهذه العقيدة نفسها، ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى الغاية لأن الزمن لم يمهله. وإذا كان احترامهم لعيسىٰ عليه السلام يرجع إلى ما جاء بـه، لا إلى تقليدهم لآبائهم، أَمَا كان الواجب عليهم أن يخصوا محمداً صلى الله عليـه وسلم بهذا الاحترام، وقد جاء بما جاء به عيسى عليه السلام، بل بأكثرَ مما جاء به؟. ومهما يكن من أمر، فقد كان عيسى عليه السلام نبياً. وجاء قبله أنبياء يؤمن المسيحيون بنبوتهم، فإذا جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالرسـالة نفسها التي جاء بها من تقدمه، وأداها خيراً مما فعله غيره، فهل يستـطيع أحد أن ينكر نبوته دون أن يناقض نفسه؟ بـل أذهب إلى أبعد من ذلـك، وأقول لكل من يؤمن بـالوحي الإلهي «إذا كنتم تؤمنـون بالـوحي الإلهي، وتؤمنون بكتاب تقولون عنه إنه جاءكم من عند الله، وإذا كنتم تؤمنون بنبيٍّ تقولون إن الله بعثه إليكم ليبلغكم رسالتـه، لَزِمكم حينئـذٍ أن تؤمنوا بنبـوة محمد، وأن تؤمنوا بأن القرآن منزل من عند الله».

لقـد جرت سنـة الله تعـالىٰ أن يخـاطب عبـاده على لسـان الأنبيـاء ليعـرفهم شريعتـه فإذا بـدل الناس وغيـروا فيها، خـاطبهم الله تعـالى من جديد، وبعث فيهم رسولاً منهم برسالاته وكلامه، فإذا تقرر ذلك، فقد ثبت أن الكتب المنزلة قد بُدِّلت وغُيِّرت قبل ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، وما فتئت على هذه الحال إلى الآن. ولم يظهر للآن من يـرد هذه الكتب

إلى صورتها الأولى سوى محمد صلى الله عليه وسلم. وإزاء تلك الحال لا مفر لغير المسلمين من أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم أرسله الله ليطهر الدين من الفساد، وإما أن الكتب التي ظهرت قبل القرآن ليست من عند الله، إذ لو كانت من عنده حقاً لحفظها من العبث. وفي هذا الصدد يخاطب الله تعالى الفطرة، ويبين للناس هذه الحقيقة في هذه الآية:

﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيةٍ أو نُنْسِها نَأْتِ بِخَيرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، [البقرة ١٠٦]، فما من شيء يزول أو يصبح غير صالح، إلا وأبدله الله تعالى بشيء جديد. هذا القانون - قانون العرض والطلب - قانون نافذ في العالم المادي كلِّه، ولا بد أن يكون سارياً كذلك في العالم الرُّوحي. وكلام الله تعالىٰ هو قوام النَّفس وغذاء الروح فإذا دَرَست آثاره، وتغيرت معالمه، فلا بد أن يعود نقياً كما كان، ولقد عاد فعلاً في صورة القرآن.

الباب الرابع

المثل الأعلى للدعوة

خلع الله تعالى حُلَّةَ النبوة على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو في غار حراء. وكان أولُّ ما نزل عليه قولُه تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ، خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ، عَلَّمَ الإنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ، كَلاَّ إنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ [العَلَق: ١ - ٦].

رسالةٌ خلت من كلِّ نَزْعة شخصية أو قَبَلِيَّة، ولكنها بلغت غاية العظمة والجلال، لأنها دستور عام يهدف إلى النهوض بالإنسانية.

كَلَّم الله تعالى موسى عليه السلام في طور سَيْناء، وأرسله لإنقاذ بني إسرائيل من رِبْقَة فرعون، وكان هذا هو الغرض الأساسي لرسالته. وكان موسى يريد أيضاً أن يجعل من بني إسرائيل أُمَّةً من الفاتحين والحكام، ولكن الزمن لم يُتِح له تحقيق هذا الغرض. وعلى أية حال كانت رسالة موسىٰ عليه السلام ذات صبغة قَبَلِيَّة.

ثم جاء عيسىٰ ابن مريم عليه السَّلام، فنزل عليه روح القدس على هيئة حمامة، وكانت الرسالة التي تلقاها أنَّ ابن الإنسان هو ابن الله، وأنَّ أباه مسرور به. ولا أريد أن أُسهب في بيان هاتين الرسالتين اللَّتين تلقاهما

موسى وعيسى عليهما السلام - في بدء أمرهما - من العلي الأعلى. وحسبي أن أقول إن رسالة أحدهما تُعنى بأمر قبيلة خاصة من بين آلاف القبائل الموجودة في العالم، وأن الرسالة الأخرى تُشيد بمنزلة فرد خاص، كان همه الأكبر مُوَجهاً إلى القبائل الضالة كما كان يقول كثيراً.

ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء برسالة تختلف في صبغتها عما تقدمها من كلِّ الوجوه، وتسمو على كافة الأغراض الشخصية والجنسية، وتعتبر الناس جميعاً أمة واحدة، وتتحدث عن الهدف الأسمى الذي أعدَ الله الإنسان له، وعن الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الغرض الأعظم. وهي رسالة تتحدث كثيراً عن القراءة والكتابة، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿الَّذي عَلَّمَ بِالقَلَمِ﴾، كما تتحدث عن تعلُّم العلوم التي كان الناس يجهلونها وقت البعثة النبوية، كما تدل عليه الآية: ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. وهي رسالة ذات صبغة عالمية، تنتظم في سلكها الجنس البشريَّ كلّه.

وإنَّك لو أنعمت النظر في هذه الرسالات الثلاث، التي تلقاها هؤلاء الأنبياء الثلاثة، لاستطعت أن تتبين بجلاء، ما تمتاز به الرسالة المحمدية من الشمول والعموم. ومعلوم أن الإنسان هو أكمل الكائنات نَشْأَةً، إذ يبلغ النموُّ الجسميُّ غاية كماله في هيكله الجثماني، ومع ذلك فقد نشأ كلُّه في عَلَقة، كما تشير الآيات المذكورة، واقتضت إرادة الخالق سبحانه - وهو الذي أنشأ ذلك المخلوق العجيب من عقله - أن يبلغ به غاية الكمال العقلي والخلقي والروحي، فبلّغ الإنسان - عن طريق رسوله - هذا الغرض الأسمىٰ، وأبان له في أول وحي نزل عليه الوسائلَ الكفيلةَ ببلوغ هذه الغاية.

تبدأ هذه الآيات الكريمة بأنَّها نزلت من الرب ﴿اقْرَأْ باسْمِ ربِّك﴾

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ ﴾، وكلمة (الرَّب) هذه ذات مغزى كبير في هذا المقام. ويجملُ بنا أن نورد هنا ما علَّق بـه مولانـا محمد علي، صـاحب ترجمة القرآن الكريم، علىٰ هذه الكلمة قال:

«إن كلمة (الرب) العـربية لا تفيـد معنىٰ التربيـة والتّنشئة والتغـذية فحسب[1]، بل تفيد أيضاً معنى التوجيه والإعداد والتكميل. أعني الترقي بالشيء من حضيض الطبيعة إلى ذِرْوة الكمال. يقول الرَّاغب[2]: «الرب في الأصل التربيةُ، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام»، ومن ثم فالرب خالقُ كل شيء. ولم يكتفِ بأن هيأ لكل شيء وسائلَ التغذية، بل جعل له قدراً معلوماً من القوى والاستعدادات. وأمدَّه بالوسيلة التي يستطيع بها في حدود استعداده أن يترقى في مدارج الكمال حتى يبلغ منتهاه، ومن ذلك يبدو أن كلمة (الرَّب) تحمل معنىٰ أجل وأسمى من كلمة (الأب) ذات المعنى المحدود نسبياً».

إن ما ذكره الراغب فيما نقلناه من أن معنى الرب «إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حَدِّ التَّمام»، يعبر أصدق تعبير عن معنى (التطور)، أو (النشوء والارتقاء)، ولست أحاول أن أُؤوِّل القرآن بما يتفق والآراءَ الحديثة، فإنني أكره التَّلاعب بالألفاظ في أمور الدين. وقد ذكر الإمـام الراغب منـذ عدة قرون ذلك التعريف المذكور لكلمة (الرَّب) في قاموسه الخـاص المسمى

---

(1) في (اللِّسان) الرَّبُ هو الله عز وجل، يطلق في اللُّغة على المالك، والسَّيِّد، والمُـدَبِّر، والمربِّي، والقيِّم، والمنعم..

(2) الرَّاغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م): الحسين بن محمَّـد بن المفضل، أديب، من الحكماء العلماء، من كتبه: (محاضرات الأدباء) مجلَّدان، (المفردات في غريب القرآن)، (حل متشابهات القرآن)، (تحقيق البيان) في اللُّغة والحكمة، (أفانين البلاغة).. [الأعلام ٢/٢٥٥].

[الأعلام ٢/٢٥٥].

(المفردات في غريب القرآن) واستشهد بكلام الشعراء الجاهليين في تأييد ما ذهب إليه. وقد ألّف هذا القاموس في وقت لم تخطر فيه نظرية (النشوء والارتقاء) على بال أحد، وعلاوة على ذلك فإن المعنى العام الذي ذكره «لين» في قاموسه يتفق مع المعنىٰ الكامل لعبارة (النُّشوء والارتقاء).

فالرسالة التي جاءت من الرب تشير إلى أنه يريد أن يتدرج بالإنسان في مقامات التَّرقِّي حتىٰ يبلغ ذروة الكمال، وأن يُهيِّىءَ له الوسائلَ التي تساعده علىٰ بلوغ غايته.

وتدل الآية الأولىٰ في فاتحة الكتاب على أن الله تعالى هو ﴿رب العالمين﴾ بمعنىٍ أنه ينشىء الكائناتِ من العدم، ثم يغذّيها وينميها. وفي ذلك إشارة بليغة إلى أنّ كلَّ شيء في العالم خاضع لسُنَّة النشوء والإرتقاء أو التطور. وقد جاء القرآن الكريم من منشىء الأشياء ومربيها، ليساعد الإنسان على بلوغ هذه الغاية نفسها.

قد تبدو هذه النظريةُ جديدةً في نظر الذين يَرْسفُون في أغلال العقائد القديمة؛ ولكنها لا تبدو للمسلم كذلك، لأن هذه الحقيقة الهامة التي يُعبر عنها بكلمة التطور، قد نبَّه عليها القرآن منذ أكثر من ثلاثَةَ عشر قرناً حين ذَكَرَ اسم الرب ضمن الأسماء الأربعة الواردة في الآيات الأولى من فاتحة الكتاب. . ويحق لنا أن نقول إنَّ الإنجيل الَّذي تتخلل هذه الكلمة تاريخَه وفلسفته وأخلاقه، قد نَزَل في صورة القرآن.

واليوم نرىٰ الجامدين على القديم على خلاف مع (التَّطوريين). ولكن إذا صرفنا النظر عن مذهب (دارون) رأينا أن مبدأ التطور يسرى في الكون كلِّه سريان الماء في العود، وفحواه أن الاستعدادات كامنةٌ بالقوة في طبائع الأشياء، ولكنها تظهر متىٰ تهيأت لها الظروف المناسبة. بَيْد أن عبارة النشوء والارتقاء لا تكفي للدلالة على المعنى المراد، ويستعمل القرآنُ

الكريم كلمة الفلاح في الدلالة عليه، وهي كلمة مشتقة من «الفَلْح» أي شق الأرض بالمحراث وإثارة خباياها، ومعناها المجازي إثارة القوى والاستعدادات الكامنة. ويدل القرآن الكريم على أن الغرض من الوحي الإلهي هو فلاح النَّاس، أي هدايتهم وإرشادهم إلى الطريقة المثلى التي تنمِّي قواهم واستعداداتهم إلى أقصى حد.

ولست أتكلم بروح الرجل العصري الَّذي يحاول التوفيق بين نصوص الدين، وآراء العلم الحديث، بل على العكس فإني أقرأ ذلك بعبارة جلية، وفي أكثرَ من موضع، في آخر الكتب السماوية الَّتي أنزلها الله عز وجل. وإني أُورد هنا هذه الآيات الكريمة على سبيل المثال:

﴿قَدْ أَفْلَحَ المؤمِنُونَ، الَّذينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغوِ مُعرِضُونَ، وَالَّذين هُمْ للزَّكاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذينَ هُمْ لِفُروجِهِم حَافِظُونَ، إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ، وَالَّذينَ هُمْ لأَمانَاتِهِم وَعَهْدِهم رَاعُونَ، وَالَّذينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَواتِهِم يُحَافِظُونَ، أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ، الَّذينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فيها خَالِدُونَ، وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطفَةً في قرارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخلَقْنا العَلَقَة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَميِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُم يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ، وَلَقَد خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً بِقَدْرٍ فَأَسْكَنَّاهُ في الأَرْضِ وَإنَّا عَلَىٰ ذَهابٍ بِه لقَادِرُونَ، فَأَنْشأنا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُم فيها فَوَاكِهُ كَثِيرةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهنِ وَصِبْغٍ لِلآكلينَ﴾، [المؤمنون: ١ ـ ٢٠].

وردت هذه الآيات الكريمة في صدر سورة (المؤمنون) وهي تشير إلى خلق الإنسان من لَدُن كان سديماً إلى أن ولدته أُمُّه، وما سيؤول إليه حاله بعد الحياة البرزخية. وقد أشارت هذه الآيات ثلاث مرات إلى أن نمو الإنسان يتم على سبع مراحل. ينزل من السماء ماء بقدَر، فيسكن في الأرض، فيتحول إلى نبات شتى، تسميه الآية ﴿سلالة من طين﴾، ولا يزال يتقلب في صور مختلفة، ويتطور من حالة إلى حالة حتى يصبح ما يسمى بالنُّطفة أو السَّائل المنوي، ثم تشير الآية الكريمة إلى الخلق الثاني، وهو التكوين الجسمي للإنسان. وهذا يسير في سبعة أطوار في الرَّحم تنتهي بما تسميه الآية ﴿خلقاً آخر﴾، وهو نفخ الروح الحيواني الذي يمتاز بالحس والشعور. وهنا يجب على الإنسان أن يتصف بالصفات السبعة العقلية والخُلُقية المذكورة في أول السُّورة، فمن اتصف بها فأولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس، هم فيها خالدون.

ولنرجع إلى ما كنا فيه، فنقول إن الإنسان لم يصل إلى ما وصل إليه إلَّا بالمعارف والعلوم، التي كانت غير معروفة للأقدمين، ومن ثم سميت بحق العلوم الحديثة. ويشير القرآن الكريم إلى هذا المعنى نفسه، فيحدثنا عن تعليم الإنسان ﴿ما لم يعلم﴾ وأكبر دليل على صدق ما جاء في هذه الآية الكريمة التي كانت أول ما أوحى إليه صلى الله عليه وسلم أن المسلمين كانوا أول من رفع منار العلوم الحديثة، فأضاءت في الخافِقَيْن.

ولا مراء في أن القراءة والكتابة لم تكونا مجهولتين قبل الإسلام، ولكن هذين الفَنَّين كانا حبيسَيْن بين جدران المعابد والأديرة، فلم يعرف الناس شيئاً عنهما. وكيف يتسنى لهم ذلك، ولم يكن الورق معروفاً. بل كانوا يستعملون في تدوين علومهم ما ندر من جلود الحيوان، وألوان الحجر، وما تيسر من العظام وأوراق الشجر. ولكن ذلك كله لم يساعد

على انتشار القراءة والكتابة على نطاق واسع.

والحقيقة أن القراءة، والكتابة، وتعلُّم الإنسان ما لم يعلم - أعني العلوم الحديثة - كانت هي العوامل الثلاثة التي ارتقت بالإنسانية إلى أوْج العظمة، وبوَّأتها المكان الكريم الذي تشغله اليوم. وإني أعود فأذكر مرة أخرى تلك الآيات التي كانت أول ما نزل من الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم، وأترك للقارىء الكريم أن يحكم بنفسه ما إذا كانت هذه الآيات قد نصَّت على هذه العوامل الثلاثة نفسها التي رفعت من شأن الإنسانية:

﴿اقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذي عَلَّم بِالقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم، كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾، [العلق: ١ - ٦].

لا ريبَ أن في وسع أي إنسان أن يَكيل المديح جُزافاً لنبيه الذي يؤمن به. ولكنه مهما يقل، فلن يستطيع أن يغير من الواقع شيئاً، لأن الحقائق هي الحقائق. وقد دلت الحوادث على أنَّ الرِّسالة المحمدية بما امتازت به من عظمة وصبغة عالمية، تفوق الرسالة التي جاء بها كل من موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام. فموسى جاءَ لتحرير بني إسرائيلَ مِنْ رِبقةَ فرعون، وعيسى كان يقول: «أبانا الذي في السَّموات»، والضمير في «أبانا» يعود إلى بني إسرائيل، فكان لا يُعنَى إلا بهم، وكان يبكي على أورشَليم ويقول: «كم مرةٍ أردت أن أجمع أولادَك كما تجمع الدَّجاجة فراخَها تحت جناحها»، ومما لا شك فيه أن من جاء بعده من المبشرين، توسعوا في فهم رسالته إلى حد لم يخطر بباله. ولكنه في حياته لم يكن يلقى الدرَّ للخنازير، أو يعطى خبزَ الأطفال للكلاب.

وصفوة القول أن كلًّا من موسى وعيسى عليهما السلام، جاء برسالة

ذات نطاق محدود، ومقصد معلوم، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء برسالة عامة موجهة للجنس البشري كلِّه. ولذلك تراه يهتم بالنَّاس عامة، لا بقومه خاصة، فَقِبْلَتُه العالم بأسره. أضف إلى ذلك أنه جاء بهدف يخص الجنس البشري وحده، لا يشاركه فيه غيره. فإذا كان موسى هدفه الحرية، وعيسى همه إلقاء المواعظ في المحبة والتَّواضع، فإنَّ محمداً يهدف إلى أمر آخر أجل وأعظم، لا تستقيم بدونه الحرية، ولاالتواضع، ولا المحبة، ولا أي خلق آخر من الأخلاق الإنسانية. فالإنسان يمتاز بقوة إذا تُركت وشأنَها خَلَقت منه وحشاً ضارياً، أعني بها قوة العقل والفكر. وليست الحرية والمحبة والتواضع من خصائص الإنسان وحده، بل يشاركه فيها الحيوان، ولكن القوة التي يمتاز بها الإنسان على الحيوان هي قوة العقل والوجدان، ومن ثمَّ كان هدف الدعوة المحمدية هو تنمية هذه القوة حتى تبلغ حد الكمال، لأنها أساس العظمة الإنسانية، وغنيٌّ عن البيان أن هذه القوة لا تكمل ولا تنمو إلا بالقراءة، والكتابة، وتعلم العلوم الحديثة. ألا ترى معي أن الغاية والوسيلة منصوص عليهما في الآيات التي سلف ذكرها؟

ولكن الإنسان لا يبلغ أوج العظمة والكمال إذا لم يعرف عيوبه، كما يعرف مواهبه وكما يجب أن يعرف الغاية التي يمكن أن تبلغها مواهبه وقواه، والوسائل المؤديةَ لذلك، يجب أن يعرف العيوب، ومزالق الأقدام، والوسيلة إلى تجنبها. وهل هناك غرض للرسالة الإلهية أسمىٰ من تبصير الإنسان بهذين الأمرين، وهدايته النَّجدين(3)؟ وغير خاف أن المذاهب

---

(3) النَّجدان: في التنزيل العزيز ﴿وَهَديناهُ النَّجْدَيْن﴾، أي طريق الخير وطريق الشَّر، وقيل: النجدين الطريقين الواضحين، والنَّجد: المرتفع من الأرض، فالمعنى ألم نعرِّفه طريق الخير والشَّر بيِّنَين كبيان الطريقين العاليين؟ وقيل: النجدين الثَّديَيْن، (اللِّسان: نجد).

الفلسفية المختلفة، والديانات القديمة، تمتاز بالقصور في هذه الناحية، فكان أهم ما تعنى به هو جانب الشَّر في الإنسان، مؤكدة أن النفوس البشرية جُبِلَت على الشر، فذهبت الكنيسة في الغرب إلى أنَّ الخطيئة تجري في ابن آدم مَجْرى الدَّم، وذهب صاحب الديانة الزَّردشتية إلى أن الإنسان ألعوبة في يد روح الشر. أما بوذا فكان يرى أن حياة الإنسان محفوفة بالمتاعب والآلام بسبب الشر المركوز في جِبِلَّته[4]، وأنه لا أمل له في النَّجاة. وكان حكماء البراهمة القدامى، لا يرون أثراً للجمال أو العظمة في أرض الله، ولا يرون السَّعادة إلاَّ في اعتزالها. وصفوة القول أن الإنسان في نظر الأقدمين خلا من كل خير ونُبل. ولكن محمداً صلوات الله وسلامه عليه يذهب مذهباً جديداً، ويُشَرِّح لنا النفس الإنسانية ـ إذا جاز هذا التعبير ـ تشريحاً صحيحاً، كما يدل على ذلك قوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤ ـ ٦]، فالإنسان عالَم صغير، تَنْدرج فيه كل الخصائص التي توجد في كل كائن على حِدَة. خُلق في أحسن تقويم، ولكنَّ ذاتَه تنطوي على الميول الشريرة في أسوأ صورها. أوتي من المواهب والقوى ما لا حد له، وفي وسعه أنْ يرقىٰ إلى أعلى الدرجات، ولكن إذا كان في وسعه أن يسمو إلى أعلى عليين، ففي وسعه كذلك أن يهبط إلى أسفل سافلين. كل ذلك كان مجهولاً قبل النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يكن الناس يعرفون مدارج الكمال، ولا مزالقَ الأقدام. ومن ثَمّ كانوا بحاجة إلى نبي يُبصرهم بهذين الأمرين، وينير لهم الطريقين. ولست أتصور رسالة لهذا النبي أسمى من أن يأتي البشرية بهذا النور. ولقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم بهذه

(4) جِبْلَة الشَّيء: طبيعتُه وأصله وما بُني عليه، وجُبْلته وجَبْلته: خَلْقُه. (اللِّسان: جبل).

الرسالة. فإذا كان من حق موسى وعيسى وغيرهما من أنبياء العالم الكثيرين على أتباعهم أن يؤمنوا بأنهم رُسُل من عند الله حقاً، فإن محمداً صلوات الله وسلامه عليه أحق بأن يُؤمن العالم بأسره بأنه رسول من عند الله حقاً.

الباب الخامس

المثل الأعلى للشخصية

لا تقاس عظمة المرء بما يأتيه من العجائب والمعجزات، ولا بما يبديه من البلاغة في العظات، والبراعة في استنباط النظريات، فكل هذه مظاهر لا تلبث أن تزول. ولكنَّ مقياس العظمة الحقة إنَّما هو ما يتمتع به المرء من شخصية قوية «فالشخصية القوية هي إحدى عجائب الزَّمن، التي يعجز عن وصفها القلم. والشخصية القوية قد صنعت، وتستطيع أن تصنع الأعاجيب». والشخصية القوية يمتد أثرها ونفعها لمن عاصرها من الرجال، ومن جاء بعدها من الأجيال. والرجل ذو الشخصية القوية يستطيع أن يستميل الخصوم إليه، ويحملَهم على احترامه والاقتداء به، بحيث لا يسعهم ـ آخر الأمر ـ إلا كمالُ الطاعة له، والانصياعُ إليه. والرجل ذو الشَّخصيَّة القويَّة ينفخ من روحه في قومه، ويصبغُهم بلونه، ويحمل معاصريه على تغيير آرائهم، ويحدث ثورة في أفكارهم وعاداتهم، ويضع للجنس البشري منهاجاً جديداً في الأعمال والمعتقدات يسير الناس عليه جيلاً بعد جيل. وصفوة القول إنَّ الشخصية القوية تبدِّل الأرض غيرَ الأرض والسموات. وقد كان محمد صلوات الله عليه صاحب هذه الشخصية القوية التي لم يَرَ التاريخ لها مثيلاً. ومن الناس من ينسب إلى بعض الأشخاص

فضائل ومناقب لم يتصف بها في حياته، يريدون أن يعظِّموا أمره في النفوس، مع أنهم لم يعاصروه ولم يشاهدوه، وغاب عن هؤلاء أن صاحب الشخصية القوية مثلُه كمثل الشمس، يغمر مَن حوله بنوره الباهر، فسرعان ما تذوب قوة الخصم أمام حماسه المتأجج الذي لا يُطفأ، وروحه الكبير الذي لا يُقهر. ومن هنا وجب أن يكون حكمنا على عظماء الرجال مبنياً على رأي من أدركوا عهدهم، لا على رأي من جاء بعدهم. وفي ذلك تقول جريدة الديلي إكسبرس في عددها الصادر في العاشر من شهر نوفمبر في مقال بقلم التحرير «إذا كان الدليل على صحة الوحي الذي يدَّعيه أحد العظماء هو الاحترام الذي يبعثه كلامه في نفوس الَّذين يؤمنون بأنه وحي من عند الله، وجب أن يُعَدّ محمد من أعظم العظماء»[1] وإذا كان هذا المعيار صحيحاً - وهو صحيح - كان محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الشَّخصيَّة الفذة التي لا مثيل لها، لأن أحداً من المصلحين أو الأنبياء، أو

(1) يقول ول ديورانت في «قصة الحضارة» ١٣/٤٧: «وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في النَّاس، قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التَّاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الرُّوحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجيَّة حرارة الجو، وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التَّاريخ كلِّه، وقَلَّ أن نجد إنساناً غيره حقَّق كلَّ ما كان يحلم به، وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدِّين.. كانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان، قليل عددها، متفرِّقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمَّة موحَّدة متماسكة، وقد كبح جماح التَّعصُّب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية، ودين بلاده القديم، ديناً سهلاً واضحاً قوياً، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزَّة القومية، واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشىء دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم».
وجعل الدكتور مايكل هارت في كتابه (المائة الأوائل) محمداً صلى الله عليه وسلَّم أعظم عظماء التَّاريخ أيضاً، عندما جعله أول شخصية في العالم وعلى رأس عظماء التاريخ جميعاً.

الآلهة المتجسدة ذاتها، لم يظفر بما ظفر به هو من الحب والإخلاص والطاعة التي حباه بها أصحابه، مع كونهم من أصحاب البيوت الرفيعة، والأحلام الراجحة، والثروة الطائلة، ومنهم عشيرته الأقربون، وأهله المطلعون على خبيئة أمره، وأسرار حياته. وفي ذلك يقول مارماديوك بكثال: «ظل المسلمون اثني عشر عاماً يعانون من المشركين أشد الاضطهاد، ومع ذلك ظل عددهم يزداد باضطراد، ثم شُرِّدوا وأخرجوا من ديارهم، ولكن ظلوا في ازدياد، وعانَوْا أشد العذاب، ولكن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً، ولم ينكص على عقبيه إلا القليل. فهل لم يكن لشخصية محمد ـ وهي أقوى الشخصيات التي عرفها العالم جاذبية ـ تأثير في هذا النمو المطرد، والازدياد المستمر؟»[1].

يعتبر محمد صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للشخصية القوية، لأنه استطاع في حياته أن يغير طباع قومه وأفكارهم، ويصلح المعوج من أخلاقهم، وينير طريق المثل العليا أمامهم، وينهض بهم إلى مستوى أعلى وأسمى، ويدفع بهم في طريق التقدم إلى حياة أهدى وأزكى.

بُعث صلى الله عليه وسلم في وقت ادْلَهَمَّ فيه ظلام الكفر، وأُغرمت

---

(١) ويقول مارماديوك أيضاً: «تأمل ما أجاب به أحد أصحابه [إنه خُبَيْب بن عدي الأنصاري الأوسي، (أُسْد الغابة ٢/ ١٢٠)]، وقد سامه المشركون سوء العذاب حينما سألوه. أتحب محمداً الآن مكانك!» فصاح قائلاً، وهو يعاني أشد الآلام: «إنني والله ما أحب أن محمداً مكانه الذي هو فيه، تصيبه شوكة، وإني لجالس في أهلي» هذا يدل على منتهى الحب المنبعث من القلب، وليس على مجرد التوقير الذي يشعر به الناس نحو الأنبياء، أو الولاء الذي يكنُّونه للملوك. وقال خادمه عنه: [أنس بن مالك بن النضر الخزرجي الأنصاري أبو ثمامة ت ٩٣ هـ] خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي «أف» قط. وتتجلى مثل هذه المحبة في مئات الأخبار التي رواها أولئك الذين أسعدهم الحظ بلقائه» ا. هـ.

فيه النفوس بشرب الخمر، واستشرى فيه الفساد والجور، واختفت عبادة الله من كل مكان، وحلت محلها عبادة الأصنام والأوثان، وعبادة الطبيعة والإنسان، حتى لقد انزلق النصارى واليهود أنفسهم في هذه المهواة، وكان المنتظر أن يكونوا آخر من يشرك بالله. وفوق ذلك بعث محمد صلى الله عليه وسلم في قوم يحافظون على القديم، يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آباءَنا عَلَىٰ أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ويرون من العار أن يتدخل أحد في شؤونهم، ويتشبثون أشد التشبث بعاداتهم وتقاليدهم، ويستنكفون أن يقبلوا النُّصح من أحد، ولذا لم يكن هناك أمل في إصلاحهم.

جاء محمد صلى الله عليه وسلم برسالة الإصلاح، رسالة تفوق كل رسالة تقدمتها فيما تقتضيه من المتاعب والمشاق. ولكن هل تردد أو تنصل منها؟ هل عمد إلى التساهل مع قومه قولاً أو عملاً كما فعل غيره؟ هل اكتفى بأنصاف الحلول أو حاول أن ينشر مبادئه بالتدريج؟ هل كان يسعى إلى جر مغنم أو قضاء مأرب؟ كلا! فإنه يضرب في الصميم ولا يبالي. كان رقيق الإحساس، ميَّالاً للعزلة والصمت، ومع ذلك فهل نزل على حكم الوقت، أو لزم الصمت؟ كلا! بل كان يؤمن أشد الإيمان بما يقول، ولا يني في العمل بما يقول، دون أن يخشى لومة لائم. ولم يكن يتأثر بالأغراض أو يبالي مقتضيات السياسة، بل كان رائده الصَّراحة في الجواب، وفي النَّصيحة، وفي العتاب. فكان يقول لغير المسلمين على لسان القرآن: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخرةِ مِنَ الخاسِرِينَ﴾، [آل عمران: ٨٥].

ويقول للنَّصارىٰ على لسان القرآن: ﴿إنَّما المَسِيحُ عِيسى ابنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بالله وَرُسُلِه وَلاَ تَقُولُوا

ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُم﴾، [النساء: ١٧١]، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً، لَقَدْ جِئْتُم شَيْئاً إِدّاً، تَكَادُ السَّمواتُ يَتَفَطَّرن مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأرضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحمٰنِ وَلَداً﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩١]، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾، [سورة الإخلاص]، ﴿. . . وَقَالَتِ النَّصَارىٰ المَسيحُ ابنُ الله ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤفَكُونَ﴾، [التوبة: ٣٠].

ويقول لأتباع الكنيسة الرومانية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِن دُونِ الله﴾، [التَّوبة: ٣١].

وقال اليهود إنهم أبناء الله؛ وقال النصارى مثل قولهم، فيوبخهم بلسان القرآن: ﴿وقَالَتِ اليَهُودُ والنَّصَارىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم. . . ﴾، [المائدة: ١٨]. ويقول لليهود على لسان القرآن: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَن آمَنَّا باللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكثرَكُمْ فاسِقُونَ، قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَن لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجعَلَ مِنْهُم القِرَدَةَ والخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبيلِ﴾، [المائدة: ٥٩ ـ ٦٠].

ويقول عن المنافقين على لسان القرآن:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

ويقول السيئة، لا يُصيخون للنصيحة، ولا يستمعون لصوت النَّذير:

﴿خَتَمَ اللَّهُ علىٰ قُلُوبِهِم وَعَلَىٰ سَمْعِهِم وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِم غِشاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، [البقرة: ٧]، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾، [البقرة: ١٨].

تلك أيام شاع فيها الاعتقاد بأن سبيل النجاة من العذاب هـو تقديم القـرابين، وتكفير الغيـر عن ذنـوب المـرء، والإتكـال على الـوسـاطـات والشفاعات. ولم يجرؤ أحد أن يبين للناس زيف هذه العقـائد حتىٰ جـاء محمد صلى الله عليه وسلم، فندَّد بها حيث قال على لسان القرآن:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ. . .﴾، [الأنعام: ١٦٤].

﴿لَنْ يَنَـالَ اللَّهَ لُحُومُهـا وَلَا دِمَـاؤُهَـا وَلَكِن يَنَـالُـهُ التَّقْـوَىٰ مِنْكُم﴾، [الحج: ٣٧]، ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾، [المدثر: ٤٨].

كانت بلاد العرب زاخرة بأتباع الديانات المختلفة، وكـان كل منهم يغني بليلاه، ويهجو من سواه، وإن كان كـل دين منها لا يخلو من بعض الحق، على الرغم من مما اعتـراه من التبديـل والتحريف، فجـاء محمد صلى الله عليه وسلم يشدِّد النكير على هذه الروح الطائفية، ويندد بالعداوة والبغضاء بين أهل الديانات المختلفة في هذه الآيات القرآنية:

﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارىٰ لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِم فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، [البقرة: ١١٣].

﴿قُـولُوا آمَنَّـا باللهِ وَمَـا أُنْزِلَ إِلَيْنَـا وَمَا أُنْـزِلَ إِلىٰ إِبْراهِيمَ وَإِسْمَـاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِم لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُم وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، [البقرة: ١٣٦].

في تلك الأيام كانت رسوم العبادات هي لب الدين وجوهـره؛ فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم فرق بين تقـوى القلوب وتقوى الـرُّسوم،

بين تقـوىٰ الباطن، وتقـوى الظاهـر؛ فجعل الإيمـان بالله والإحسـان إلى الناس جوهر الدين، يقول تعالى:

﴿لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخرِ والملائكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيِّينَ وَآتىٰ المَـالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَىٰ وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَابنَ السَّبيلِ وَالسَّائِلينَ وَفِي الرِّقَابِ وأَقَامَ الصَّلاةَ وآتىٰ الزكاةَ وَالموفُونَ بِعَهْدِهِم إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّـابِرِين فِي البَـأْساءِ وَالضَّـراءِ وحينَ البَأسِ أُولئـكَ الَّـذينَ صَـدَقُـوا وَأُولَئِـكَ هُمُ المُتَّقـونَ﴾، [البقرة: ١٧٧].

وكـان العـرب يـدمنـون شـرب الخمـر، ولعب الميسـر، إلى حـد الإسـراف، فلم يـرضَ لهم صلى الله عليـه وسلم حتى بـالاعتـدال في أمرهما، بل استأصل شأفة هاتين الآفتين، ونصَّ على تحريمهما تحـريماً باتّاً كما قال تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّما الخَمْـرُ والمَيْسِرُ وَالأَنْصَـابُ والأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيطانِ فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾، [المائـدة: ٩٠].

وكان من أوابد العـرب في الجاهليـة وأدُ البنات أي دفنهن أحيـاء. وكانت تلك عادة راسخة فيهم، يقرها العُرف عندهم، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم استأصـل شأفـة تلك العادة الممقـوتة، فيقـول على لسان القرآن عن الموءودة ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَت﴾، [التكوير: ٩].

وجملة القول أنه لم يترك عقيدة فاسدة، أو مبدأ خاطئاً، إلا ندد به. ولم يترك عادة سيئة، أو عرفاً ضاراً، إلا أنكره، دون أن يُمنِّي قومه بالأماني الكاذبة أو يـدعي لنفسه صفـةً من صفات الأُلـوهية، إذ كـان يكره بـطبعه الادعـاء الباطـل، والمبالغـة في القول، ولا يحيط نفسـه بمظاهـر الأُبهـة والعظمة، بل كان يردِّد دائماً أنَّه عبدالله ورسوله، جاء للناس بشيراً ونذيراً.

كان يأتي بالمعجزات؛ ولكن لا لينشر بها دينه، بل كان يقول للناس على لسان القرآن:

﴿إنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكم﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعَاً وَلَا ضَرَّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَلَو كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤمِنونَ﴾، [الأعراف: ١٨٨].

وكان العرب يصدقون الخرافات، فلو شاء النبي لادَّعىٰ الأُلوهية، وقد جرت في حياته حوادث تحمل الناس على نسبة الألوهية إليه، ولكنه كان يقابل ذلك بالإنكار الصريح. فقد روي أن الشمس كُسِفَت كسوفاً كلياً يوم مات ابنه إبراهيم فظن بعض المشركين أَنَّ الشَّمس إنَّما كُسِفَت حِدَاداً على وفاة إبراهيم، فأتوا إليه تائبين مذعنين، ولكنه أبى أن ينخدع بقولهم وقال:

«إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته».

هذا رجل، ومصلح، ونبي، ورسول من الله، قد تبرأ من الأوصاف التي خُلِعت على غيره ممن جاء بمثل دعوته، ورفض كل ما من شأنه أن يزيد أتباعه ويشد أزره، ويؤيد أمره، ويجمع القلوب حوله، فلم يتخذ من قومه خليلاً، بل جعلهم أعداءه جميعاً، ولم يُصِخ لصوت الإغراء، ولم تستهوه عروض الثراء، لصرفه عن الرسالة التي جاء بها. وهي رسالة لم يرد بها قط علو الجاه ورفعة المنزلة، ولكنها رسالةُ الله، رسالةُ الإنسانية، رسالةُ النُّبل والخير، رسالةٌ ترمي إلى توطيد دعائم التَّوحيد الإلهي، ومن ورائه وحدة الجنس البشري، رسالةٌ ترمي إلى رفع البشر من وهدة التدهور والانحطاط إلى ذروة المجد والارتقاء. وجملة القول أنه حرَّم على نفسه

كل ما من شأنه أن يمهد له سبيل النجاح. ولو فعل غير ذلك لخاس بعهده، وما رعى حق الرسالة.

لم يتوسل بالمعجزات في نشر دعوته، ولكنه أتى بما هو أكبر من المعجزات، وذلل من الصعاب ما ينوء بالجبال، حتى تكلّلت جهوده بالنجاح، الذي لم يكتب لأحد من قبله أو بعده في أي أمر من أمور الدنيا أو الدين. وقد تم له ذلك الفوز في ظروف غير مواتية، ولم يلجأ في سبيله إلى الوسائل التي يعجز عنها طوق البشر، وإلا لما كان قدوة حسنة للناس، بل تذرع بجميع الوسائل الشريفة مما هو في متناول الناس جميعاً، وبذلك كانت حياته درساً عملياً للذين يشقُّون طريقهم في وجه العواصف العاتية، والظروف غير المواتية.

لا ريب أن الرسول يبعث ليكون قدوة للناس، ومرشداً لهم. وهذه الصفة تتمثل بنوع خاص في محمد صلى الله عليه وسلم، فهو نبي إنسان، ومن ثَمَ كان أسوة حسنة للناس، وهو يواجه العقبات، ويذللها بالوسائل التي تدخل في مقدور البشر، أما غيره فكان يلجأ للمعجزات ـ فيما يزعمون ـ لتذليل ما يعترضه من العقبات وقد تكون الحاجة إلى المعجزة مفهومة، إذا كان الغرض منها تقرير بعض الحقائق في أفئدة العوام، وتقوية إيمانهم بها، فهي إذن ضرورة. وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى ببعض المعجزات لهذا الغرض. ولكننا نحن نواجه في حياتنا بعض العقبات المماثلة، ولا نستطيع أن نتغلب عليها بالمعجزات.

كلنا نعلم أن موسى عليه السلام أنقذ بني إسرائيل من ربقة المصريين بمعجزة، ولكنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم دافع عن المدينة المنورة [في غزوة الخندق](2) بعصابة صغيرة ضدَّ العدو الذي كان يبلغ

---

(2) أو غزوة الأحزاب التي كانت في شَوَّال من السَّنة الخامسة للهجرة.

عشرة آلاف رجل أو يزيدون، وبخطط حربية جريئة يستطيع أي قائد حربي أن يفخر بتطبيقها في الحرب، والإفادة منها. ولكن موسى عليه السلام ـ على كل ما أتى به من المعجزات ـ لم يستطع أن يبث في قومه روح الشجاعة والشهامة التي بثَّها محمد صلى الله عليه وسلم في قومه. وكان عيسى عليه السَّلام دائم الشكوى من عدم إيمان تلاميذه، على كثرة ما شاهدوه من المعجزات التي أتى بها. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يضم حوله طائفة من المؤمنين فريدة في إخلاصها لزعيمها.

قَلَّ من الناس من يذكر أيام الشدة في وقت الرخاء. أولئك هم الذين تتوافر فيهم الشهامة ومتانة الأخلاق، ويثبتون على حال واحدة في السراء والضراء، وأولئك الذين يرون في حال الرخاء، باعثاً جديداً لإظهار الأخلاق الكريمة، التي لم يستطيعوا إظهارها في حال الشدة، إذ أن لكل فضيلة من الفضائل ظروفاً خاصة، تظهر فيها مقتضياتها. فإذا كانت المحن تهذب النفوس، والتجارب تحنك الرجال فإن النعم تبرز المكارم الكامنة في معادن النفوس. وليست الإنسانية عبارة عن رقة القلب فحسب، بل تشتمل على أخلاق مختلفة تتفاوت بين الرقة والشدة. وهذه الأخلاق تقتضي ظهورها أحوالاً وظروفاً خاصة، فإذا كان بعضها لا يتجلى إلا في الفقر والضراء، فإن بعضها لا يظهر إلَّا في السراء والثراء. وقد أتيح لبعض الأنبياء الذين أرسلوا لإرشاد الخلق أن يرضعوا من ثَدْيَي الدهر، ويشربوا من كأسَي الخير والشر، وقليل ما هم. ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم قد تقلب في جميع أطوار الحياة كيما يكون مثالاً كاملاً للناس «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، فإذا كان الرخاء قد أظهر منه السخاء، والعفو، والشهامة، والمروءة، فإن الضراء قد أظهرت منه الصَّبر على النَّائبات، والثبات عند الملمات، والثقة في خالق الأرض والسموات.

ومن الفضائل التي انفرد بها وتدل على وصوله إلى أسمى مرتبة من الكمال، أعني مرتبة التخلق بالأخلاق الربانية، ثباتُه على العهد والمبدأ، بحيث لا يتغير ولا يتبدل تبعاً للظروف والأحوال، فهو هو في حالَي العسر واليسر، والغنى والفقر، والهزيمة والنصر مثله في ذلك كمثل كلمات الله وسننه ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٦٢]، فمن ذلك فضيلة التواضع التي كان يمتاز بها في جميع أطوار حياته، ولكن «انتصاراته الحربية» كما قال واشنجتن أيرفنج: «لم تبعث في نفسه شيئاً من الفخر والزهو، لأنه لم يكن له فيها أي مأرب شخصي. وعندما بلغ أوج سطوته وسلطانه، ظل محتفظاً بالبساطة في مظهره وأخلاقه، كما كان في أيام الفقر والشدة. وكان يكره أن يظهر بمظهر الملوك، ويستاء إذا بدرت من الناس حركة غير عادية، تدل على الاحترام والتعظيم حين يدخل عليهم، وإذا كان هناك سلطان يطمح هو إليه، فسلطان الدِّين الذي جاء به، أما السلطان الدُّنيوي الذي كان يتمتع به في حياته، فقد كان مجرداً من مظاهر الملك، ولم يعمل هو على أن يكون وراثياً في آل بيته. وبعد أن صار سيد الجزيرة العربية، ظل يعامل أصحابه كأنهم إخوة، لا يقوم دونه الحجَّاب، ولا يمشي بين يديه الحراس، بل كان يمشي بينهم بلا كلفة، يصلح ذات بينهم، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم، ويبذل ودَّه لهم «ويقول جيبون: كان محمد لوفور عقله يحتقر أبهة الملك وهو في أوجه سلطانه الدنيوي. وكان رسول الله في مهنَة أهله، يستوقد ناره، ويَقُمُّ بيته؛ ويحلِب شاتَه، ويخصِف نعله، ويرقَع ثوبه. ومع ذلك لم يفخر بأنه من الزُّهاد الذين يعذبون أنفسهم، بل كان يقاسي من شَظَف العيش ما يقاسيه كل عربي وجندي، فيأكل ما وجد دون عناء أو تكلف. وكان يكرم أصحابه، ويؤثرهم بلذائذ الأطعمة، وتمر الأسابيع الطوال ما يستوقد ناراً في بيته. وأحب أن أضيف بهذه المناسبة خبراً عن السيدة عائشة رضي الله عنها تأييداً لما نقلته

عمداً من كلام جيبون وغيره عملاً بالمثل العربي القائل «والفضل ما شهدت به الأعداء» قالت: «كان يأتي علينا الشَّهر ما نوقد فيه ناراً. إنما هو التمر والماء إلا أن نُؤتى باللُّحَيم. ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من خبز الشعير يومين متتابعين»[1].

هذه صفة عيش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا هو تواضعه في وقت دانت له فيه جزيرة العرب، وصارت تحت قدميه. وقد زخَرت المدينة بمظاهر الثراء في الأيام الأخيرة من حياته، فسالت بطاحها بالأموال من ذهب وفضة، إلا بيت ابنته فاطمة فقد خلا من أسباب الغنى، وأقفر من

---

(١) روى التِّرمذي قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طاوياً هو وأهله لا يجدون عشاء».

وعن عائشة أنها قالت لعروة «إنْ كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار» فقال لها عروة «ما كان يعيشكم؟» قالت: الأسودان التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار، كانت لهم منائح: [المنائح جمع منيحة وهي الناقة يمنحها الرجل أخاه، فيجعل له وبرها ولبنها وولدها]. وكانوا يمنحون رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانهم، فيسقيناه (البخاري).

وروى البخاري في كتاب الرقاق أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأكل خبزاً مرققاً حتى مات.

وعن سهل بن سعد أنه قيل له «أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم النقي؟ (الدقيق المنخول) فقال سهل: «ما أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم النقي حتى لقي الله عز وجل» فقيل له: هل كانت لكم مناخل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: ما كانت لنا مناخل. قيل: كيف كنتم تصنعون بالشعير؟ قال كنا ننفخه فيطير منه ما طار، ثم نعجنه. (الشمائل للترمذي).

وعن عائشة رضي الله عنها «ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قُبض» (البخاري).

ويقول أنس «جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فوجدته جالساً مع أصحابه يحدثهم، وقد عصب بطنه بعصابة. فقلت لبعض أصحابه: لم عصب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطنه؟ قالوا: من الجوع»، (مسلم).

آثار النعيم. وكان كل ما يملكه يوم وفاته بضع دراهم ذهب بعضها في قضاء دَيْن عليه، وما بقي أُعطي لمسكين جاء يسأل شيئاً من الصَّدقة. أما الملابس التي فاضت فيها روحه الشريفة فقد كانت ذات رقَاع. وبذلك صُرف كل ما كان يملكه، وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث، ما تركناه، صدقةٌ».

الباب السادس

المثل الأعلى في الأخلاق

لا ريب أن المحن والتجارب تجلو جوهر النفس، حتى يخلُص خلاص الذهب الإبريز، وتبرز ما كمن في طبيعة الإنسان، فتجعل منه شخصية خالدة يضيء نورها في كل زمان ومكان، أو شخصية خاملة يسحب الزمن عليها ذيل النسيان. وهكذا كل من صبت نفسه إلى الفوز والنجاح فليوطن نسفه على معاناة الشدائد والمصاعب، ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب.

نزل جبريل الأمين بالوحي على النبي الكريم في غار حِرَاء، فأخذته رِعْدة شديدة، فرجع إلى خديجة ترجُف بوادره فقال: «زملوني زملوني» فزمّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر «يا خديجة، لقد خشيت أن أكون كاهناً، أو يكون بي جِنٌّ» فقالت: «كلا يا أبا القاسم! لا تقل مثل ذلك فإن الله لا يفعل ذلك بك أبداً. إنك تصدق الحديث، ولا تجزي بالسيئة السيئة وتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وإن خلقك لكريم، ولست بسخاب في الأسواق» ثم قالت: ماذا نزل بك؟ هل رأيت ما يفزعك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: نعم، وأخبرها الخبر. فقالت أبشِر يا

ابن عَمٍّ، واثبُت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة.

لو كان محمد كذاباً أو مدعياً، هل كان يذهب إلى بيته على هذه الصورة من الفزع؟ هل كان يذهب إلى خديجة زوجه التي تعرف - بحكم كونها زوجة - أسرار حياته وما خفي من عيوبه وحسناته؟ هل كانت تبشره بأنَّه نبي لو كانت تعرف من ماضي حياته ما ينافي هذا الوصف؟ لقد جاء في الأناجيل أن عيسى عليه السلام لم يستطع أن يحمل أهله على الإيمان به «لأن إخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به»، بل حاولوا القبض عليه «لأنهم قالوا إنه مختل»، ولكن محمداً عليه السلام كاشف بسره ألصق الناس به، وأكثرهم معرفة بحاله، وهم زوجه، وابن عمه المحبوب، وأصدقاؤه المقربون. وهؤلاء هم أمس الناس رحماً به، وأعزهم لديه، الذين كانوا يعيشون معه تحت سقف واحد، ويطَّلعون على كل حركاته. فلو أن هؤلاء لاحت لهم أقل بادرة توحي بحبه للدنيا، أو آنسوا أدنى علامة على عدم صدقه، لما أمكن أن يؤمنوا برسالته. فقبولهم لدعوته، وإيمانهم برسالته أصدق شاهد على صدقه، ومتانة خلقه. وهَبْ أن أبا طالب - وكان شيخاً كبيراً - قال عندما دُعي إلى الإسلام: «إنِّي لا أستطيع أن أفارق دين آبائي» ألم يقل لابنه - علي - حين أخبره بإسلامه: أما إنه لم يَدْعُك إلاَّ إلى خير فالزمه. وقد ثبت أن قريشاً لم يسعهم حين جهر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة أن يتهموه بالكذب أو الادعاء لأنهم كانوا يعرفونه حق المعرفة، ويعلمون أن الكذب، وافتراء الكذب ليس من طبعه ولا دأبه. ولذلك قالوا تارة إنه مجنون، وتارة إنه شاعر، ولم يقولوا إنه كذاب. وهذا هو السبب فيما يذكره القرآن من هذه الأفكار الباطلة، ويشير إليها بقوله: شاعر، مجنون، به جِنَّة. ولكنهم لم يسعهم أن يقولوا إنه كذاب. ويروى

أنه بينما كان علماء قريش جلوساً يتحدثون، عرضوا لذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاعترضهم النضر بن الحارث، وكان أعلمهم بشؤون الدنيا. فقال مسفهاً لآرائهم: يا معشر قريش: إنه قد نزل بكم أمر ما أتيتم به بحيلة بعد. قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر، وكاهن، وشاعر، ومجنون. لقد استمعت لما قاله محمد؛ فلا والله ما هو بساحر، ولا هو بكاهن، ولا هو بشاعر، ولا هو بمجنون. يا معشرَ قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم. وكان أبو لهب[1]، عم النبي، وعدوه اللَّدود يقول: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به.

ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو قومه سراً ثلاث سنين إلى ترك عبادة الأصنام، ولكن الدِّين القديم كان متأصِّلاً فيهم، وكان لقريش مصلحة في بقائه، إذ كان معاشهم، ومنزلتهم بين القبائل العربية الأُخرىٰ متوقفين عليه، ومن ثَمَّ جاءت معارضتهم الشديدة له. واستمر الكفاح بينهم وبينه مدة ثلاث سنين، وكان كفاح حياة أو موت، فما آمن له إلَّا قليل. ولكنه لم يستشعر اليأس قط، وظل يدعو إلى الله في صمت وهدوء؛ وقالت قريش إنَّه مجنون، أو به جِنَّة، ولكنهم لم يصدوه عن الدَّعوة في بداية الأمر. ثم نزل الوحي مرة أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا المُدَّثِّر، قُمْ فَأَنْذِر، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، والرُّجزَ فَاهْجُرْ﴾، [المدَّثر: ١ - ٥]. وكانت هذه دعوة جديدة إلى تبليغ الرسالة لقومه، ودعوتهم إلى عبادة الله، وانذارهم بالتجافي عن المنكرات، وهجر عبادة الأوثان، لكي تطهر أرواحهم التي تدنَّست بالعقائد الفاسدة، والعادات السيئة، فلبىٰ داعي الله، وصح عزمه

---

(1) في الأصل سهواً: أبو جهل.

على الجهر بالدعوة، فخرج إلى البطحاء، فصعد الصفا، فنادى (يا صباحاه) فاجتمعت إليه قريش فقال: (أرأيتم إن أخبرتكم أنَّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِقيَّ؟)، قالوا: ما جربنا عليك كذباً.

ثم ذكّر قومه بسوء أعمالهم التي تغضب الله، وسفَّه أحلامهم لعبادتهم أصناماً من صنع أيديهم، وحذرهم من المصير الذي آل إليه من سبقهم من الأمم، الذين كذبوا رسل ربهم، فسخروا منه، واستهزؤوا به، وعنفوه وتهكموا عليه. ولما رأىٰ أن قريشاً لا يؤمنون به، توجه إلى الغرباء الذين يفدون إلى مكة للتجارة والحج، فدعاهم إلى دين الله، ولكن قريشاً حالوا بينه وبينهم، فوقفوا له كل مرصد، وحذروا الناس من الاتصال به، وقالوا إنه ساحر خطير، وأخذوا يغمزونه بالقول ويفترون عليه السوء، ويلمِزونه بالسباب، ولكن ذلك لم يفلح في إسكات صوت النذير، فاستمر في الدعوة، فلم يزدهم ذلك إلا عتواً وعنتاً، ومنعوه من الصلاة بالكعبة، وتعقبوه في كل مكان؛ ولكن ذلك لم يَثْنِ من عزمه. وهموا بأن يفتكوا به، ولكنه كان برباطة جأشه، وثبات جنانه، يرد كيدهم في نحورهم. وفشلوا فشلاً ذريعاً في صرف النَّاس عن دعوته، وما استطاعوا أن يطفئوا شعلة حماسته، ونور إيمانه. وكلما أمعنوا في اضطهاده، أقبل على الدعوة بقلبه وقالبه، فحشدوا له قواهم، وأجلبوا عليه بخيلهم ورَجِلهم، فلم يمنعه ذلك من أن ينذرهم بأن العذاب الذي حل بمن قبلهم، سيحل قريباً بدارهم، ويقول لهم بلسان القرآن: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يَرْجِعُونَ﴾، [البقرة: ١٨].

ثم إنهم صبوا جام غضبهم على المسلمين، ودبروا خطة منظمة لاضطهادهم، ولم يسلم منهم إلا محمد صلى الله عليه وسلم وقليل من أصحابه الَّذين دخلوا الدِّين أخيراً، فوثبت كل قبيلة على من فيها من

المسلمين. «فكانوا يحبسونهم، ويذيقونهم لباس الجوع، ويضربونهم بالعصي، ويعرضونهم للحر اللافح بالصحراء، ويلقونهم على الرمضاء، ويأبون عليهم شرب الماء، حتى إذا اشتد بهم العطش، خيروهم بين الحِمَام وعبادة الأصنام».

ولكن ثبات محمد صلى الله عليه وسلم كان يسري في نفوس أصحابه، فيثبتهم على دين الله. على أنه قد قُتل منهم كثير. وكان يرى أصحابه يعذَّبون، ولكن ذلك لم يَفتَّ في عضده. ولما رأت قريش أن «دم الشهيد هو الذي يسقي بذور الدين الجديد»، لجؤوا إلى وسائل أخرى ليمنعوا الرسول من الدعوة، وكانوا أعلم بشؤون دنياهم، فرأوا أن يغروه بعرض الحياة الدنيا، لعل ذلك يصرفه عن تسفيه أحلامهم وتحقير دينهم، فتقدموا إليه، وهو جالس في الكعبة، وقال له عُتْبة كبيرهم (نائب قريش): «يا ابن أخي! إنك منا حيث قد علمت من البَسْطة في العشيرة، والمكان في النسب. وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم. فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قل يا أبا الوليد أسمع» قال: يا ابن أخي! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتىٰ تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت إنما تريد به شرفاً، سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد به ملكاً مَلَّكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِياً من الجن، لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه»، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتسمع منه، قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال نعم. قال: فاستمع مني. قال: أفعلُ. فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ، تَنزيلٌ مِنَ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ، كتابٌ فُصِّلت آياتُه قرآناً عربياً لقومٍ يَعلمونَ، بشيراً ونذيراً فأَعرَضَ أَكثرُهُم فَهُم لا يَسْمَعُونَ، وقالوا قُلُوبُنَا في أَكِنّةٍ مما تَدْعُونَا إِليهِ وَفِي آذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِك حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عامِلُونَ، قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثلُكم يُوحَىٰ إِليَّ أَنَّما إلهُكم إلهٌ واحدٌ فاستقيموا إليهِ واسْتغفِرُوهُ وَوَيْلٌ للمُشْرِكِينَ، الَّذينَ لا يُؤتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾، إلى آية ١٤ . . . (ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد) ثم قال: قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

هنا نرى الإغراء مجسَّماً في صورة شخص من البشر، وليس رؤيا أو حلماً، كما يقول الكتاب المقدس. ولما أمعنت قريش في القسوة والأذى إلى حد لا يطاق، نصح النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فذهب إليها خمسة عشر رجلاً من المسلمين، وتبعهم آخرون. ولكن عداوة قريش ظلت تطاردهم حتى في هذا المكان السحيق. ولكن النَّجاشي لم يُصغِ لقول الوشاة. وزاد فشلُهم في ذلك، وتوالي الهجرة إلى الحبشة، نار العداوة اشتعالاً، فصبوا جام غضبهم على محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنه كان رجلاً من معدن أسمى من معدن البشر، فرابط شجاعاً في مكانه، يبلِّغ ما أنزل إليه من ربِّه، غيرَ عابيءٍ بما يلقى من بغي وأذى. ثم جاؤوا إليه مرة أُخرى يمنُّونه بالثراء والجاه، إذا هو كفَّ عن الدعوة. ولكنهم تلقوا نفس الجواب في هذه الكلمات «ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً. فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم. فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو

حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه علي أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم».

فأثار هذا القول حفيظتهم، لأنهم عدوه إهانة لهم، ولم يبق لـديهم في قوس الصبر منزع، فأرسلوا إلى عمه أبي طالب يطلبون إليـه أن يمنع ابن أخيه من الطعن في دينهم، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ظل ينعَى عليهم سيئات أعمالهم، وعدم إيمانهم. ثم أغلقوا أبواب الكعبة في وجهه حيث كان يدعو إلى الله، ومشوا إلى أبي طـالب عن بكرة أبيهم، ليبلغـوه هذا الإنذار الأخير: يا أبا طالب! إن لك سِنّاً، وشرفاً، ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هـذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك، حتىٰ يهلِك أحد الفريقين.

فعظُم على أبي طالب خلاف قومه وفراقهم. فبعث إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالت قريش، ورجا منه أن يتخلَّى عن الدعوة. فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بُدُوٌّ، وأنه خاذله ومسلمه. وما كـان لشيء من ذلك أن يفُـلَّ من قوة هـذه الإرادة الكبرىٰ، فأجاب صلى الله عليه وسلم قائلاً: «والله يا عم، لـو وضعوا الشَّمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتىٰ يـظهره الله، أو أهلِك دونه»[2]، ثم قام، فلما ولى، ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي. فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اذهب يا بـن أخي، فقل ما أحببت. فوالله لا أُسلمك لشيء أبداً.

(2) نصُّ قول رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في (السِّيرة النَّبـويَّة) لابن كثيـر ١/٤٦٣ «يا عم، لو وُضِعَت الشَّمسُ في يميني، والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتَّى يظهره الله أو أهلك في طلبه».

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه، استشاطوا غضباً لما قاله أبو طالب فقر رأيهم على إبادة بني هاشم، وآل عبدالله، وهم قبيلة أبي طالب، فألَّفوا حلفاً لمناوأتهم وقرروا نفيهم، وحظروا على الناس مصاهرتهم وحرَّموا معاملتهم. وكان ذلك معناه الحرب العلنية. فاضطر بنوهاشم ـ وكانوا أقل نفراً ـ أن يلجؤوا إلى مكان ما، فذهبوا إلى شعب في أحد الجبال طويل في ضيق، وكانت له فتحة صغيرة ضيقة. وظلوا في هـذا المكان ثـلاث سنين يقاسـون آلام الحرمان، ولكن ذلك لم يزد عزيمته عليه السلام إلاَّ قوة ومضاءً. ومع أنه انقطع عن الدعوة عاماً كاملاً ـ إذ لو كان غادر ملجأه، لكان كمن يسعى إلى حَتْفِه بظِلفه ـ كان ينتهز فرصة الأشهر الحُرم التي يحرم فيها القتل، فيخرج من الشعب، ويدعو إلى الله كـل من قدم مكـة من الحجاج. ولم تستـطع قريش أن تمسه بسوء رعاية لحرمة الأشهر المقدسة. ولكنهم كانوا يسخرون منه، وينبزونه بالألقاب. واستمر الحال على ذلك قُـرابة ثـلاث سنين إلى تمام السنة العاشرة من البعثة، إذ توسطت بعض القبائل(3)، فعدلت قريش عن مقاطعة بني هاشم، فعادوا إلىٰ بيوتهم. ولكن في السنة التالية، أصيب النبي صلى الله عليه وسلم بِرُزْءٍ، بوفاة زوجه خديجـة، وعمه أبي طـالب تباعاً. ففقد بموت زوجته، المرأة التي كانت رِدْءاً تدرأ عنـه الملمات في

(3) مشى هشام بن عمرو بن الحارث إلى زهير بن أُميَّة بن المغيرة، فقال له: أقد رضيت أن تأكل الطَّعام، وتلبس الثِّياب.. وأخوالك حيث علمت؟ أَما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ـ أبي جهل ـ ثمَّ دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليـه أبـداً، وذهب إلى المـطعم بن عـدي، وإلى أبي البختـري العـاص بن هشـام بن الحـارث، وإلى زمعة بن الأسـود. فتعـاقـد الخمسـة على نقض الصحيفـة، وإنهـاء المقاطعة، فقال أبو جهل: هذا أمـر قد قضي بليـل، تشاورتم فيـه بغير هـذا المكان، ونقضت قريش الصحيفة رغم أنف أبي جهل.

شبابه، وتقف حائلاً بينه وبين أعدائه. وفقد بموت عمه أبي طالب النَّاصح الشَّفيق، الذي كان يَحْبـوه بعطفه طول حيـاته. ولمـا رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن قريشاً أعرضوا عنه، رأى أن ينشر الدعـوة في مكان آخـر. فولى وجهه شطر الطائف، وهي بلدة على مسيـرة أربعين ميلاً من مكـة، ومعه خادمه زيد [بن حارثة]. فدعا أهل الطائف إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان. ولكن هذه الدعوة الكريمة أثارت سخـطهم، فأخـرجوه من قريتهم، فأَغْرَوا به سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويحصبونـه بالحجـارة، حتى جُرح وسال منه الدم. فأتى ظل شجرة، وصلى ركعتين ثم قال: «اللَّهم إني أشكو إليك ضعف قوَّتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي. إلىٰ من تَكِلُني؟ إلى عدو يَتَجَهَّمني؟ أَمْ إلى غريب ملكته أمري؟ إن لم تكن غضبان علي فلا أُبالي، غيـر أن عافيتـك أوسع لي. أعوذ بوجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخـرة، أن ينزل بي غضبـك أو يحـل بي سخـطك، لـك العُتْبىٰ حتىٰ ترضىٰ، ولا قوة إلا بالله. اللَّهم أهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»[4].

كلمات كريمة صادرة من فم كريم. يشعر بهوانه على الناس، ولكنه عظيم الثقة بالله. وقوله «إن لم تكن غضبان عليَّ فلا أبالي» كلمات تدل على الرجاءِ والرضا، وعدم اليأس من رحمة الله. وأما قـوله «لـك العُتْبَى حتىٰ ترضىٰ ولا قوة إلا بالله» فكلام جليل القدر، بليغ المعنى، فيه عبرة للمبشر المسيحي القاصر العقل الذي يحمله الجهل على التغني بالقول: (ليكن لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت) ويعدُّها كلمة لا نظير لها. أما الجملة الأخيرة

(4) عيون الأثر ١٣٤/٢، الوفا بأحوال المصطفى ٢١٢/١، ابن هشام ٤٨/٢ و ٤٩، الطَّبري ٣٤٦/٢، الكـامل في التـاريخ ٦٤/٢، البـدايـة والنهـايـة ١٣٦/٣، السِّيـرة الحلبيـة ٢١٥/١.

فتذكرني بما ينسب إلى عيسى عليه السلام حيث قال: (اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون)، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون) وهي عبارات تناسب حال قائليها؛ فعيسى عليه السلام لم تتم له الغلبة على أعدائه، حتى يتاح له أن يظهر العفو عنهم لذلك يدعو الله أن (يغفر لهم). أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد سبق في علم الله على لسانه أعم مما ذكره عيسىٰ، لأنها تتضمن العفو. وبيان ذلك أن العفو لا يكون إلا عن ذنب مضى، بينما الهداية تشمل الماضي والمستقبل، إذ لا يُتَصوَّر أن يسلك إنسان طريق الهداية بدون العفو عن ذنوبه الماضية. ولذلك لا يدعو النبي الكريم بالعفو عما سلف من ذنوب أعدائه فحسب، بل يدعو لهم بالهداية أيضاً في المستقبل. هذا وينطوي كلام النبي صلى الله عليه وسلم على الإنباء بالغيب، مما تحقق حدوثه فعلاً، إذ تمت له الغلبة على أعدائه الذين بَغَوا عليه، ولكنه عفا عنهم، وأحسن إليهم إحساناً لا نظير له [5].

عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة من الطائف جريحَ الفؤاد، ولكنه ما وَهن ولا استكان، بل ظل يدعو الناس إلى عبادة الله، ولا سيما الوافدين إلى مكة في موسم الحج. وفي ذات يوم قابل ستة رجال من أهل المدينة، فاستمعوا له، وآمنوا به، حتى إذا كان العام المقبل جاؤوا بستة آخرين يمثلون قبائل المدينة، فأسلموا أيضاً، وبايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على ما يلي: «لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل

---

(5) قال صلى الله عليه وسلم عندما تمَّ له فتح مكة (رمضان ٨ هـ): «يا معشر قريش، ويا أهل مكة، ما ترون أني فاعلٌ بكم؟»، فأجاب سهيل بن عمرو: نقول خيراً، ونظن خيراً، أَخ كريم وابن أَخ كريم وقد قدرت، فقال صلى الله عليه وسلَّم: «أقول كما قال أَخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الرَّاحمين، اذهبوا فأنتم الطُّلقاء».

أولادنا، ولا نأتي ببرهان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصي في معروف، وعلى السمع والطاعة في عُسْرنا ويُسْرنا، ومَنْشَطِنا ومَكْرهِنا»(6).

كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع كل من دخل الإسلام بتلك الصيغة تقريباً. وهي تدل على سوء الحالة التي كانت تسود بلاد العرب وقت ظهوره، كما تدل على طبيعة الإصلاح الذي جاء به. وقد دل التاريخ على أنه لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى زالت تلك الحالة من بلاد العرب. وتدل هذه البيعة أيضاً على أمر آخر يلفت النظر، ويكشف لنا عن حقيقة ما انطوت عليه ذاته الكريمة، أعني إنكار الذات الذي يعد في الحقيقة أساس الأخلاق العالية من محبة، وسخاء، وشجاعة، وأمانة، وحسن معاملة إلخ؛ فهو في هذه البيعة لا يطلب الطاعة لشخصه، بل في كل معروف، ومن ذلك ترى أنه لا يصدرُ عن البواعث الشخصية والذاتية.

ثم رجع الأنصار بعد البيعة إلى بلادهم، ومعهم أحد المسلمين من مكة(7)، ليُعلِّمهم أمر دينهم. وبدأ الإسلام ينتشر انتشاراً سريعاً، في وقت كان الرسول فيه يواجه أخطر فترة في تاريخ حياته. ولكنَّ ما طُبع عليه من خلق عظيم، وثقة عالية في الله، كان مثار العجب والإعجاب. أما قوة عزيمته، ووفاؤه لدعوته، وثباته في وجه الشدائد العاتية التي نزلت بساحته،

---

(6) انظر بيعة العقبة الأُولى (بيعة النِّساء) في عيون الأثر ٢/١٥٥، وابن هشام ٢/٥٤، الكامل في التاريخ ٢/٦٧، الطبري ٢/٣٥٥..
يقول عبادة بن الصَّامت: «كنت فيمن حضر العقبة الأُولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم على بيعة النِّساء وذلك قبل أن تفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف..».

(7) إنه: مصعب بن عمير (أبو عبدالله) من السَّابقين إلى الإسلام، أرسله صلى الله عليه وسلم معهم إلى يثرب وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدِّين.. (أُسد الغابة ٥/١٨١).

وإيمانه الصادق برسالته، وثقته بالفوز النهائي في مهمته، فقد استنطقت لسان عدو له ـ هو السير وليم موير ـ بهذه الكلمات:

«هكذا كان محمد يَكْبَح جِماحَ قومه الثائرين عليه، مدافعاً عن نفسه، معتصماً بالصبر في انتظار النصر، وهو أعزلُ من السلاح فيما يبدو للناس، وأشبه شيء، هو وعصابتُه الصغيرة، بالفريسة بين فكَّي الأسد. وهو مع ذلك كلِّه، عظيمُ الثقة بالله القدير، قوي الإيمان بأنه رسوله، ثابت العزم، لا يبرح ولا يتزحزح، إنه لمشهد يتجلى فيه العظمة والجلال، ولا نظير له في الكتب المقدسة إلا ما روي عن نبي إسرائيل الذي شكا إلى ربه قائلاً: «أنا ـ أنا لا غيري ـ قد تُرِكْتُ وحيداً».

ثم جاء الأنصار في العام التالي لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، في خمسة وسبعين رجلاً يدعونه إلى زيارة المدينة، فبصَّرهم بمغبة الأخطار التي يقدمون عليها بدعوتهم إياه إلى المدينة، ولكنهم أجابوا أنهم يعرفون ذلك، وقالوا: «تكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت» فبايعوه، ثم قالوا: فما لنا يا رسول الله إن نحن وفَّينا؟ قال: الجنة. فلم يعدهم بأن يجعلهم ملوكاً، أو يضع أطفالهم على الجانب الأيمن من العرش، حينما يصل إلى قمة المجد.

كان اجتماع أهل المدينة سراً وليلاً. ولكن قريشاً علموا به، فضاعفوا من اضطهادهم للنبي ولأصحابه، وأخذ مركزهم يزداد حرجاً يوماً بعد يوم، وظهرت في الأُفق دلائل على أن قريشاً أزمعوا أن يُعْملوا السيف في رقابهم جميعاً، فنصح النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن يهاجروا إلى المدينة سراً. فأخذ المسلمون يهاجرون بأهليهم إلى المدينة تباعاً. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ظل في مكانه، لا يبرح ولا يتزحزح. وأزفت ساعة الشدة، وأذن للنبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة إلى

المدينة، وأعدت العدة لوصوله إليها في طمأنينة وسلام. ولكنه أبىٰ أن يترك خلفه أحداً من أصحابه، فظل منتظراً حتىٰ اطمأن إلى سلامتهم جميعاً. وكانت العاصفة الهوجاء قد جُنَّ جنونُها، ولكنها لم تحرك ساكناً من النبي صلى الله عليه وسلم، وهاجر أصحابه إلى المدينة ما عدا علياً وأبا بكر.

وأدركت قريش خطورة الموقف، وكانت تعلم مبلغ الخطر الذي يحل بها إذا هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فاجتمعوا في دار الندوة، وقلَّبوا الرأي في أمره، فاستقر رأيهم على أن تقدم كل قبيلة شاباً جَلْداً، ويجتمع الكل أمام داره فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فيمتنع بنو أبيه عن الأخذ بثأره، ويرضون بالدية. فلما كان الليل، اجتمعوا على بابه يرصدونه. ولكن الله تعالى أخذ على أبصارهم، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم هو وأبو بكر ثم سارا حتى غار ثور، على مسيرة بضع أميال من مكة، فاختفيا فيه ثلاثة أيام.

وعلمت قريش بالخبر فجُن جنُونها، وكادت تتميز من الغيظ، فنقَّبوا في كل مكان، وقرروا جُعْلاً لمن يأتيهم برأسه. وجدَّ أعداؤه المتعطشون لسفك دمه في اقتفاء أثره، حتى وصلوا إلى باب الغار. وسمع أبو بكر وقع أقدامهم، فساوره القلق، وقال للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: نحن إثنان لا ثالث لنا، وأعداؤنا ذوو قوة. نعم كانت حياتهما في خطر. ولكن الجواب الذي تلقاه أبو بكر من النبي صلى الله عليه وسلم يَنُم عن رباطة جأشه، وثقته في الله التي لم يرَ التَّاريخ لها مثيلاً. فقال في ثقة واطمئنان: «لا تحزن إن الله معنا». وفي مساء اليوم الثالث غادر الغار رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه، وسارا إلى المدينة في طريق غير مألوف.

وقبل أن أواصل الكتابة أحب أن ألخص حياة النبي صلى الله عليه

وسلم في مكة مؤثراً كلمات السيد أمير علي في كتابه «روح الإسلام» إذ أنه يصورها صورة رائعة في هذه الكلمات: «رأينا ذلك الرجل العجيب يتيماً لم ينعَم قط بمحبة الأب، محروماً في نعومة أظفاره من حَدَب الأُم. ورأينا حياته الأولى تبعث الشجون، إذ نشأ طفلاً كثير التأمل والتفكير. ثم صار شاباً يافعاً كثير التأمل والتفكير كذلك. وكان في شبابه زكي النفس صادق اللهجة كما كان في طفولته، وكان في كهولته زاهداً ورعاً كما كان في شبابه. يصغي إلى أنات الضعفاء وآلام الفقراء يفيض قلبه بالرحمة والحنان على جميع الخلق. يمشي على الأرض هَوْناً تغشاه السكينة حتى ليشير الناس إليه بالبنان قائلين: «هذا هو الأمين الصادق الصدوق»، كان الصديق الحميم، والزوج الوفي، والمفكر الذي يتغلغل بذهنه في أسرار الحياة والموت ويغوص بفكره في سر القضاء والقدر، والحكمة في وجود الخلق. تكفّل بإصلاح أُمَّة وإنقاذها، لا بل بإصلاح العالم بأسره. ولا عزاء له فيما كان الرسول يكابده سوى قلب يغمره الحب، قد تعترضه الصعاب ولكن لا يَعْروه اضطراب، وقد يغلب على أمره ولكن لا يُلمُّ اليأس بصدره، بل تراه يكافح ويناضل بروح قوي لا يغلب ليؤدي الرسالة التي وُكلَت إليه، وقد جمعت حوله أخلاقُه الكريمة الزكية، وإيمانُه القوي بالرحمة الإلهية. قلوباً مخلصة، ونفوساً صادقة. وحين أزِفَت ساعة العسرة، تراه كالبحار الأمين، لا يبرح مكانه حتىٰ يطمئن إلىٰ وصول أصحابه إلىٰ الساحل آمنين، فإذا وصلوا إليه، توجه هو إلى السَّاحل الأمين.

هكذا رأيناه فيما مضى [في مكة قبل الهجرة]. والآن [وقد وصل إلى المدينة مهاجراً] سنراه الملكَ المسيطر على عرش القلوب، والرئيس الأعلى، والمشرع الذي يَسُنُّ القوانين، والقاضي الأعلى الذي يفصل في الخصومات، ومع ذلك كلِّه، فهو الفقير المتواضع، الذي لا يحيط نفسه

بمظاهر العظمة والفخامة. ومن الآن فصاعداً، يفنىٰ تاريخُه في تاريخ الجماعة التي كان هو قُطب رحاها. ومن الآن فصاعداً، نرىٰ الداعي الذي يَرْقَع ملابسه بيده، ويبيت الليالي المتتابعة طاوياً، وقد أصبح أقوىٰ من أقوى ملوك الأرض»، ا. هـ.

كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة حلقة هامة في سلسلة الخلُق الإنساني. ففي المدينة أتيحت له الفرصة لإبراز ما دعا إليه بالقول إلى حيز الفعل. وقد أكبر من شأن شريعة موسى عليه السلام وزاد عليها. وحقق على الأرض ملكوت السموات الذي كان عيسى عليه السلام يدعو الله به. وسما بأخلاق قومه إلى مستوى القديسين والملائكة، فحقق بذلك أحلام أرسطو وأفلاطون في المساواة بين البشر. وأنشأ لأول مرة في التاريخ مجتمعاً اشتراكياً ومدينة فاضلة يسكنها ويديرها قوم تخلُّوا عن الرذيلة، قوم ليسوا بحاجة إلى رجال شرطة يتولون حفظ النظام بينهم، قد زالت بينهم الفروق فلا امتياز لأحد على أحد بسبب لونه أو جنسه أو قومه. قوم لا فرق فيهم بين الحاكم والمحكوم، والرئيس والمرؤوس. تلاشت بينهم جميع الفوارق القائمة على المذاهب والطبقات والألوان والأنساب فالأبيض، والأسود، والأحمر، والأصفر، كل أولئك سواء عند الله، لأنهم من معدن واحد، أبوهم آدم وأُمهم حواء. ولكيْ ينمحيَ التمييز بينهم بسبب الجنس، والدم، والمال، قيل لهم: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُم ﴾.

ولأول مرة في التاريخ قرر الخليفة عمر رضي الله عنه أن الحكومة التي لا تسمح لأي فرد من أفراد الرعية أن يبدي رأيه، ولا تحترم هذا الرأي، لا تعُدّ جديرةً بهذا الإسم. ولأول مرة في التَّاريخ سُمِح لأدنى فرد من السوقة أن يبدي رأيه في أية مسألة تمس الدَّولة أو الدِّين أو الحاكم نفسه، ولأول مرة في التاريخ حل الانتخاب محل الوراثة في تولي الحكم.

وتقرر أن تكون وظيفة الحاكم ـ كائناً من كان ـ مقصورةً على تنفيذ أحكام الشَّريعة الإسلامية، وأن تكون جميع التشريعات التفصيلية متفقةً مع الأصول العامة للشرع، الذي سَنَّه المشرِّع الأعظم. وكانت الرعية تُدعَى إلى بيان عيوب الحاكم في سياسة الحكم.

وكانت الدولة مُلْكاً للجميع على السواء ذكوراً وإناثاً. وكانوا جميعاً ملكاً لإله واحد، يخضعون لقانونٍ واحد، ليس من وضع البشر؛ بل أنزله الله الرحمن الرحيم الذي وسِعَت رحمته كلَّ شيء، والعَدْلُ الذي ملأ الأرضَ عَدلُه، قانونٍ واحد ينطبق على الغني والفقير على السواء.

كان عيسى عليه السلام يحلُم بالاشتراكية. ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم حقّق هذا الحُلم على أحسن وجه. ولا غرو فقد كان يقدِّس العمل[8]، ويعمل كل شيء بيده، وكان صلى الله عليه وسلم يكره أن يعمل الناس له شيئاً. فكان يخدُم نفسه، وكان في بيته في مَهنة[١] أهله، يَفْلي ثوبه، ويَقُمُّ[٢] بيته، ويحمل بضاعتَه من السوق، ويخْصِف[٣] نعلَه، ويُحضر الماء، ويَعقِل البعير، ويعلف ناضِحَة[٤] ويَعجِنُ مع الخادم. ورُوي عن أنس [بن مالك] أنه غدا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوجده

(8) جاء في أُسد الغابة ٢ / ٢٦٩: لما رجع صلى الله عليه وسلَّم من غزوة تبوك، استقبله أحد الصحابة، فقال النبي له: «ما هذا الَّذي أرى بيدك؟»، فقال الصحابي، من أثر المرِّ والمساحاة، أضربُ وأعملُ وأنفقُ على عيالي. فقال صلى الله عليه وسلَّم: «هذه يدٌ لا تمسُّها النار».

وورد أيضاً: «من أمسى كالّاً من عمل يده، أمسى مغفوراً له».

(١) المهنة بفتح الميم الخدمة.

(٢) قم البيت كنسة.

(٣) يخرز.

(٤) الناضح البعير يُستقى عليه.

يمسح جَمَلاً بالزيت. وفي حديث آخر أنه رآه يَسِمُ إبل الصدقة. ولما بُنيت الكعبة، وهو صغير، كان ينقل الحجارة. وفي أثناء بناء المسجد النبوي في المدينة المنورة، كان يعمل في البناء كغيره من العمال. وكان ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبرّ بطنه(١).

ودانت له شبه الجزيرة العربية، وانهالت عليه الأموال من ذهب وفضة، ولكنه كان يقول: ليس لابن آدم حق فيما سوى هذه الخصال: بيتٌ يسكنه، وثوبٌ يواري عورته، وجِلْفُ(٢) الخبز والماء.

وقد دلت حياته في المدينة على أنه لم يسعَ قط إلى الملك والسلطان في الأرض بل الملك هو الذي سعى إليه، فأتيح له أن يبين لملوك الأرض أن الأموال العامة أمانة مقدسة، يجب صرفها في وجوه مصالح الرعية، لا في تحصيل الشهوات واللذات الشَّخصيَّة، إذ كان صلى الله عليه وسلم زاهداً في الدُّنيا، متقشفاً في معيشته، يلبس ما وجد، ولا يسأل أهله طعاماً، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِل، وما سقَوه شرب. ويجلس حيث ينتهي به المجلس، إما على حصير، أو على بساط، أو على الأرض. وكان يأكل الشعير غير منخول، ويلبس القميص مُطْلَق الأزرار. وكان بطبعه يعرض عن زينة الحياة الدنيا، ويكره الشهرة في اللِّباس. ومن المسلم به أنه لا رهبانية في الإسلام، ومن أجل ذلك أحل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم زينة الله، والطيبات من الرزق. وكان هو نفسه يتمتع بهما تشريعاً لأمته، ولكنه مع ذلك كان لا يميل إلى رغد العيش، ولا يرغب في النعيم والترف، بل نهى الناس عنه، لأنه يُدخل الوَهْن في قلوب الرجال.

---

(١) حديث البراء في البخاري.

(٢) جلف الخبز، الغليظ اليابس يؤكل بغير إدام.

يروى أن رجلاً أضاف عليَّ بن أبي طالب، فصنع له طعاماً، فقالت فاطمة: لو دعونا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل معنا! فدعوه، فجاء، فوضع يده على عِضادتي[1] الباب، فرأى القرام[2] قد ضرب به في ناحية البيت فرجع، فقالت فاطمة: «الحَقْهُ، فانظر ما رَجَعَه» فتبعتهُ، فقلت يا رسول الله «ما ردك؟»، فقال: «إنه ليس لنبي أن يدخل بيتاً مُزَوَّقاً»[3]، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «فراش للرجل، وفراش لامرأته والثالث للضيف، والرَّابع للشيطان»[4]، وكان صلى الله عليه وسلم يحب دائماً ما خشُن من الثياب، وما غَلُظ من الكساء، وما رَثَّ من اللباس، لما طبع عليه من التواضع والتذلل وهضم حظوظ النفس. وكان من رأى عمر رضي الله عنه أن يلبس النبي صلى الله عليه وسلم الثياب الفاخرة عند استقبال الوفود والسفراء، وغيرهم من كبار الرجال فوجد حلة اسْتَبْرَق[5] تباع في السُّوق، فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ابْتَع[6] هذه الحلة، فتجمل بها للعيد وللوفود. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة. وكان يلبس عادة كساء ملبَّداً[7]، صنع من الصوف، وفيه نزع روحه الشريف صلى الله عليه وسلم. ودخل عمر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو معتزل في المَشْرُبة[8]، فإذا هو متكىء على حصير، ما بينه وبينه شيء، قد أثر في

(١) عضادتا الباب خشبتاه من جانبيه.
(٢) القرام ستر فيه رقم ونقوش وفي رواية البخاري رأى ستراً مَوْشِياً.
(٣) أبو داود.
(٤) مسلم.
(٥) الاستبرق ما غلظ من الديباج أي الحرير.
(٦) ابتع فعل أمر من ابتاع بمعنى اشترى.
(٧) ملبد أي مرقع.
(٨) المشربة الحجرة.

جنبه وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره. ونظر عمر ببصره في خِزانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو بقبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قَرَظاً[1] في ناحية الغرفة، وعند رأسه أهُبٌ[2] معلقة. فابتدرت عيناه، قال: ما يبكيك يا بن الخطاب؟ قال: يا نبي الله، ومالي لا أبكي، وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خِزانتك لا أرىٰ فيها إلا ما أرى، وذلك قيصر وكسرىٰ في الثِّمار والأنهار؟ وأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته، وهذه خزانتك! فقال: يا ابن الخطاب: ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة، ولهم الدنيا؟ وقال صلى الله عليه وسلم لِعائشة رضي الله عنها: إن كنت تريدين الإسراع اللحوق بي، فيكفيك من الدنيا كزاد الرَّاكب. وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: اضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير، فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلتُ أمسح جنبه. فقلت يا رسول الله! ألا آذنتنا حتى نبسط لك على هذا الحصير شيئاً يقيك منه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مالي وللدنيا؟ ما أنا والدنيا: إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها.

هذا طرف من الصفات المختلفة، التي تعتبر بصفة خاصة جِماع الفضائل والمحاسن والتي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحلىٰ بها، وهو في رفعة شأنه وأوج سلطانه، في وقت سيقت إليه الدنيا بحذافيرها، وإنه لمن الميسور أن يظهر الإنسان بمحاسن الأخلاق، وهو في ضيق من العيش. ومن السهل أن يظهر الحلم والتواضع في حالَيْ الفقر والشدة، ولكن في هذه الحالة يصعب على المرء أن يُفَرِّق بين التواضع والضعة،

---

(١) القرظ ورق السلم يدبغ به.

(٢) أهب إهاب وهو الجلد ما لم يدبغ.

والحلم والجبن، وأن يحكم ما إذا كان الشخص المذكور حليماً أو جباناً، متواضعاً أو وضيعاً. ولكن إذا رأينا رجلاً ذا منصب رفيع يظهر التواضع في وقت يستطيع فيه أن يكون متكبراً، حُقَّ لنا أن نقول إنَّه على خلق عظيم.

وجملة القول أن خصال الكمال تتجلى في حياة النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة. ولولا حياته فيها حيث تعقبه أعداؤه ليطفئوا نور الله، ويبيدوا العصابة الصغيرة، بل أَقول الوحيدة على ظهر الأرض التي كانت تعبدالله وحده، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عَشِيَّة غزوة بدر [الكبرى] التي أدت إلى ما تلاها من الغزوات، أقول لولا ذلك لما عرف النَّاس وجه الصَّواب في استعمال السَّيف، والحل الصحيح لمشكلة المرأة والرقيق، وقد كانا يعاملان أقسى معاملة حتىٰ ذلك الوقت. ولكن الغزوات أتاحت للنبي صلى الله عليه وسلم الفرصة لإصلاح حالها ورفع شأنهما.

وكان من فوائدها أيضاً أنها أتاحت للنبي صلى الله عليه وسلم فرصة الدخول مع الأعداء في معاهدات الصُّلح، وكشفت لنا عن موقفه إزاء هذه المعاهدات، وبرهنت أنه ما كان يعدها (قصاصات ورق)، بل كان يعدها (وثائق مقدسة). ولو أن أوروبة اقتدت به في هذا الشأن، لنجا العالم من الشرور التي تعرَّض لها. ومعلوم أنه ليس في حياة عيسى عليه السَّلام ما يستضيء به الأُوروبيُّون في هذا الشأن، ولتجدنَّهم أحرص الناس على خرق المعاهدات منهم على تنفيذ نصوصها. وليس أدلَّ على رعايته صلى الله عليه وسلم لحرمة المعاهدات، مما جرى في صلح الحُدَيبية[9] الذي عقده مع قريش، في السنة السادسة من الهجرة. فقد كان من الشروط التي

(9) صلح الحديبية: ذي القعدة ٦ هـ، جاء في معجم البلدان ٢ / ٢٢٩: سُمِّيت الحديبية بشجرة حدباء كانت في ذلك الموضع، وبين الحديبية ومكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل، بعضها في الحل وبعضها في الحرم.

عاقد عليها سهيلَ بن عمرو ـ ممثل قريش ـ أنه لا يأتيه منهم رجل قد دخل الإسلام إلا ردّه إليهم. وإنَّ صحيفةَ الصُّلح لتُكتب، إذ طلع أبو جندل ـ بن سهيل بن عمرو نفسه ـ يرسُف في الحديد، وكان أسلم بمكة. وكان أبوه سهيل بن عمرو قد حبسه فأفلت. فلما رآه أبو سهيل، قام إليه فضرب وجهه، وأراد إرجاعه، فجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشرَ المسلمين! أُرَدُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فزاد الناس شراً على ما بهم. فقال عليه الصلاة والسلام «يا أبا جندل! اصبر واحتسب! فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا [قد] عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله: أن لا نغدر بهم»[10]، ثم هرب كثير من المسلمين من مكة، وجاؤوا يلجؤون إلى حمى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فراراً بدينهم من أذى قريش وظلمهم، ولكنه أبىٰ أن يحميهم محافظة على نصوص المعاهدة.

وقتل وَحْشِيٌّ حمزَةَ عمَّ النبي صلى الله عليه وسلم، في غزوة أُحد [شوَّال سنة ٣ هـ]. فلما رجع الناس رجع معهم، فأقام بمكة حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرج إلى الطائف. وهكذا كان يتنقل من مكان إلى آخر، مخافة أن يُقْبَض عليه إذا انتصر الإسلام. فأوفد أهل الطائف وفداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة، وكان وحشي فيهم فأعرب عن خوفه من أن يقبض عليه، ويُقْتَل لقتله حمزَةَ رضي الله عنه، ولكنهم أكدوا له «أن محمداً لا يهيج الرسل» فاطمأن بالاً، وقدم إلىٰ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأسلم[١].

وبعثت قريش أبا رافع إلىٰ النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن

(10) السِّيرة الحلبيَّة ٣/ ٢٥، والسِّيرة النبويَّة لابن كثير ٣/ ٣٢٢.

(١) البخاري.

أسلم. فلما وقع بصره على الوجه الشريف، وقد لاحت عليه أنوار الحق، ألقى الله في قلبه الإسلام. فقال يا رسول الله: لا أرجع إليهم أبداً. فقال صلى الله عليه وسلم: إني لا أخيس(١) بالعهد ولا أحبس البُرُد(٢). ولكن ارجع! فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع(٣). فذهب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقفل عائداً إلى مكة.

كان الوفاء بالعهد من أبرز الصفات التي كان يمتاز بها حتى لقد لقب بالأمين في صدر حياته. وكان من الأسئلة التي وجهها هِرَقْلُ عظيم الروم إلى أبي سفيان: هل يغدر؟ فقال لا.

كان عدد المسلمين في غزوة بدر [الكبرى] أقل من ثلث عدوهم (11). وكان النبي صلى الله عليه وسلم أحوجَ ما يكون في هذا الظرف العصيب إلى رجل واحد يزيد في عدد أنصاره. ولو أنه لجأ إلى كسب الأنصار بكافة الوسائل، لما كان في ذلك ملوماً، بل كان معذوراً. ولكنه كانت شيمته الوفاء كله. اسمع إلى حُذَيفة يحدثنا، فيقول ما منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت أنا وحُسَيل، فأخذنا كفار قريش، قالوا إنكم تريدون محمداً. فقلنا ما نريده؛ ما نريد إلَّا المدينة. فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لنَنْصَرفَن إلى المدينة، ولا نقاتل معه. فأتينا رسول الله صلى الله

---

(١) خاس بالعهد نكث وغدر.

(٢) البرد جمع بريد وهو الرسول.

(٣) عن أبي الحمساء قال: بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يُبعث وبقيت له بقية، فوعدته أن آتية بها في مكانه، فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت فإذا هو في مكانه. فقال يا فتى لقد شققت علي. أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك.

(11) المسلمون في بدر الكبرى ٣١٣ رجلاً، وقريش بين التسعمائة والألف، انظر: ابن هشام ٢/١٨٨، الطبري ٢/٤٢٤، البداية والنهاية ٣/٢٦٢، الاكتفاء ١/٨٨.

عليه وسلم فأخبرنا الخبر، فقال: انصرفا. نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم[12]

كانت الحياة في مكة حافلة بالشدائد والمحن والمتاعب أما في المدينة فكانت مقرونة بالفوز والنجاح، فياضة بالثراء والرخاء. وفي هذا عبرة للمسلمين اليوم. فحالهم أشبه بحال النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، فهم يجتازون اليوم دور المحنة ولكنهم إذا صبروا وثابروا، إذا تمسكوا بأهداب الأخلاق العالية، إذا ظلوا محافظين على دينهم، إذا استمسكوا بعروة الاتحاد، وشمروا عن ساعد الجد والعمل، إذا نصحوا الله ورسوله والمؤمنين، فلا بد أن يكون الفوز حليفهم في النهاية، كما تم الفوز لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد كانت حياة النَّبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، وما أصاب فيها من فوز ونجاح، فرصة طيبة لإظهار ما جُبل عليه من الشمم وعلو النفس، مما لا مثيل له في التاريخ، وكان استسلام قريش له عند فتح مكة فرصة للأخذ بالثأر، ولكنه كان أكرم نفساً من أن يفعل ذلك[١].

---

(12) حذيفة بن اليمان، صاحب سرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في المنافقين، لم يشهد بدراً، لأن المشركين أخذوا عليه الميثاق لا يقاتلهم، فسأل النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم هل يقاتلهم أمْ لا؟ فقال صلى الله عليه وسلَّم، بل نفي لهم، ونستعين الله عليهم، (أُسد الغابة ١/٤٦٨).

(١) روى أن امرأة يهودية في خيبر أهدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة مسمومة، فلما أكل منها عرف أنَّها مسمومة، فأرسل إلى المرأة، فاعترفت، فعفا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن لما مات أحد الصحابة، [وهو بشر بن البراء بن معرور] وكان أكل مع النبي صلى الله عليه وسلم من الذراع المسمومة، دفعها لورثته، فقتلوها قَوَداً[١]. وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يجد ألم الأُكلة التي أكلها بخيبر حتى توفي. =

(١) القود هو القصاص.

= وجيء إليه برجل، فقيل هذا أراد أن يقتلك. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لن تُراع لن تُراع، ولو أردت ذلك لم تُسلّط علي.

كان عمير بن وهب من أكبر أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعثه صفوان بن أمية إلى المدينة ليقتل له محمداً، انتقاماً لقتلى قريش في بدر، وتحمل له صفوان بدينه وعياله. فأمر عمير بسيفه، فشُحِذ له، وسُمّ، ثم انطلق إلى المدينة، فحَزَر[1] الناس قصده، وأراد عمر أن يبطش به، فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم وأدنى عُمَيراً منه، فأخذ يحادثه ويكاشفه بما جاء من أجله، فبهت عمير عند ذلك، وزاده دهشة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعاتبه، فأسلم وعاد إلى مكة يدعو قومه إلى الإسلام وقد تبدل شخصاً آخر تماماً. وكان ذلك في السنة الثالثة من الهجرة.

كان النبي صلى الله عليه وسلم قافلاً من غزاة ومعه أصحابه، فأدركتهم القائلة، فتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سَمُرة[2] وعلق بها سيفه، ثم نام. ولكن الكفار ـ وهم العدو الألد ـ كانوا له بالمرصاد يتربصون الفتك به. فعرف أعرابي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ناموا، فتقدم إلى المكان الذي علق فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه، وأمسك به، فلم ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا والأعرابي عند رأسه والسيف صَلتاً[3] في يده، فقال له الأعرابي: من يمنعك مني؟ فقال: الله. قالها بصوت هادىء لا يمازجه شيء من الاضطراب والدهشة. فكان له تأثير عجيب في نفس الأعرابي، فشام[4] السيفَ. وجاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقص عليه الخبر، ووجدوا الأعرابي جالساً بجواره، لم يعاتبه.

(١) حزر الشيء قدّره بالحس وخَمنه.
(٢) سمرة بضم الميم شجرة من العِضَاه والعضاه كل شجر يعظم وله شوك.
(٣) صلت مجرد من غمده.
(٤) شام السَّيف أغمده أي أدخله في غمده.

الباب السابع

المثل الأعلى في النجاح

﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُم. وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي. وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣].

نشأ موسى عليه السلام في بيت العلم والثراء، كما ظهر عيسى عليه السلام في أمة لا تُدانى في الحضارة، ولكن محمداً عليه السلام بعث ليتلو آيات الله على أمة لم تطلع عليها شمس المدنية، بل كانت مُسَجَّاة في أكفان الجهالة. وجاء (ليزكي) قوماً قد غرقوا في حمأة الهمجية والخرافات والوحشية والرذيلة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(١)، وفي سُبات فكري وأدبي عميق.

وغنيٌّ عن البيان أن مهمة النبي ليست بالأمر الهين اليسير، فهو يبعث في أهله وعشيرته، ويحاول أن يجد له آذاناً صاغية بين الذين يعرفونه منذ طفولته، ويعرفون كل صغيرة وكبيرة عن حياته، ويعلمون حسناته وسيئاته، ويضعون العراقيل في سبيله، حسداً من عند أنفسهم. ولذلك لم يستطع

---

(١) ﴿هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيينَ رَسُولاً مِنْهُم يَتلُو عَلَيْهِم آياتِهِ وَيُزكِّيهِم وَيُعلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلَالٍ مُبينٍ﴾، [الجمعة: ٢].

عيسى عليه السلام أن يحمل أقاربه أنفسهم على الإيمان به، وقد أفصح عما جربه بنفسه في قوله «لا كرامة لنبي في وطنه ولا في أهله».

ولكن محمداً ـ العربيَّ الأمي، راعي الإبل، ويتيمَ أَبي طالب ـ بُعث رسولاً في هذه الظروف نفسها، فأتيح له من النجاح ما لم يُتح لغيره. ومن المقرر «أنَّ وضع الخطط الكبيرة المحكمة سهل يسير، ولكنَّ تنفيذها صعب عسير»، وأنَّ عيسى وموسى وكثيراً من الأنبياء الذين جاؤوا قبل محمد لم يفسح لهم في الأجل حتى يروا بأعينهم نجاح رسالتهم. ولقد بلغ اليأس بأحدهم أنه ظن أن الله تخلى عنه. وإذا كان أتيح لبعضهم أن يكون لهم أتباع، فإنه لم يتح لهم أن يبعثوا روح الثقة في أتباعهم، فبنو إسرائيل الذين حررهم موسى عليه السلام من رق فرعون، عصَوْا رسول ربهم مراراً وتكراراً. وبطرسُ وغيره من الحواريين أنكروا عيسى نبيهم، وتخلوا عنه في ساعة العُسرة. أما النبي المتواضع الذي أُرسل لجبابرة قريش، فقد استطاع في خلال فترة قصيرة لا تتجاوز تسع سنوات بعد الهجرة «أن يرفع قومه من حضيض التدهور الخلقي والروحي، ويزكيهم من دنس الأخلاق، ويحملهم على جادَّة العدل والإنصاف»، وهم الذين كانوا بالأمس يضحكون منه ويستهزئون به ويؤذونه ويضطهدونه، ويَحْصِبونه بالحجارة، ويطاردونه من بلدته.

ولقد لبث النبي صلى الله عليه وسلم في قومه ثلاثة وعشرين عاماً يدعوهم إلى الله، ولكن لم تكد تمضي خمس سنوات على الدعوة حتى ظهر تأثيره العجيب في قومه. وحسبك دليلاً على ذلك ما صرح به جعفرُ بنُ أبي طالب[1] للنَّجاشي ـ وهو أحد المهاجرين التسعين الذين فروا بدينهم

(١) انظر الهجرة إلى الحبشة: ابن هشام ١/٢٨٤، الطبري ٢/٣٣٥، الكامل في التاريخ ٢/٥٤، السِّيرة الحلبية ١/٣٥١، البداية والنهاية ٣/٦٦.

إلى الحبشة ـ قال: «أيها الملك! كنا قوماً أهلَ جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيفَ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وقول الزُّور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة، والصيام إلا إذا كنا مرضى أو على سفر، فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حَرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا ألاَّ نُظْلَم عندك، أيها الملك» (2).

قد يقول بعضهم إن هذا الكلام صادر من رجل مُعْجَبٍ بالنبي، متعصب له، يحاول أن يبرر موقفه، ويريد أن يستدر عطف الملك الحبشي، حتى يشمله بعطفه وحمايته. فلنترك رجلاً معروفاً بعداوته الصريحة للإسلام يحدثنا عن رأيه في هذا القول، ألا وهو السير وليم موير حيث يقول: «جاء محمد بدين يمتاز باليسر والإيجاز وكان له من التأثير القوي ما يدهش الألباب. ولم يحدث منذ عهد المسيحية الأولى التي نبهت العالم من رقاده، وشنت حرباً شعواء على الوثنية، أن رأى العالم

(2) ابن هشام ١/ ٢٩٠ و ٢٩١.

مثيلاً لهذه اليقظة الروحية، وهذا الإيمان الذي حمل المسلمين على بذل النفس والنفيس في سبيل دينهم، طيبة به نفوسهم».

«كانت مكة والجزيرة العربية كلها غارقة في سُبات روحي عميق منذ أقدم العصور، ولم يكن تأثير المسيحية واليهودية والمذاهب الفلسفية في العرب إلا تأثيراً عابراً سطحياً كما صافح النسيم الماء، يؤثر في السطح ولا يصل إلى القاع. وكان العرب يتمرغون في حمأة الخرافات والقسوة والرَّذيلة. وكان من عاداتهم الشائعة أن يرث أكبر الأبناء نساء أبيه فيما يرثه من ملكه[3]. ومنها وأد البنات خشية الإملاق والعار (كما كان الحال عند الهندوس). وكان دينهم قائماً على عبادة الأوثان البغيضة، والإيمان بكائنات خفية يخشونها، ويسعون في استجلاب رضاها، ويتحاشون سخطها، ولم يؤمنوا بوجود إله واحد يهيمن على الكون كلِّه، ولا بالحياة الآخرة والثواب والعقاب مما يعد وازعاً وزاجراً فيما يأتي المرء أو يذر. وكانت مكة قبل الهجرة (٢ يولية ٦٢٢ م) قد تردت في هذه الهوة. فما أعظم التغيير الذي طرأ عليها الآن خلال ثلاثَ عشرةَ سنة! عصابة مؤلفة من بضع مئات نبذوا عبادة الأوثان وأصبحوا الآن يعبدون الله وحده، ويتبعون الهدى الذي جاء من عنده. يدعون الله بالعشي والإبكار مخلصين له الدين، ويرجون الله أن يتغمدهم برحمته، ويغفر لهم ذنوبهم. يعملون الصالحات، ويفعلون الزكاة، ويلتزمون حدود العفة والعدل، ويعتقدون أن الله مطلع على سرهم وعلانيتهم، في غدوهم ورواحهم وأن العناية الصمدانية تكلؤهم وترعاهم فيما دق أو جل من شؤونهم، ويعتقدون أن ما

(3) زواج المَقْت: أن يتزوَّج الرَّجل امرأة أبيه إذا طلَّقها أو مات عنها، وكان يفعل في الجاهليَّة وحرَّمه الإسلام: ﴿وَلَا تَنكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُم مِنَ النِّساءِ إلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَساءَ سَبِيلاً﴾، (النساء ٢٢).

في الكون من نعمة فمن الله، وأن الله بيده ملكوت كل شيء، وأن الأمور صغيرها وكبيرها بيده يصرفها كيف شاء، ويرون على الأخص أن نعمة الله عليهم بالإسلام من خصائص الفضل الرباني، وأن ما عليه قومهم من كفر وضلال من مظاهر الغضب الإلهي، وأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) هو الذي أحيا مواتهم، ورد إليهم حياتهم، وأنه بعد الله معقد آمالهم، فلا عجب أن أسلموا إليه قيادهم».

«ولم يمض على هذه الدعوة العجيبة غير قليل حتى انقسمت قريش إلى حزبين متعارضين قد استحكمت بينهما العداوة، ونسوا ما كان يربطهم من وشائج القربى والعصبية القَبَلِيَّة، واضْطُهِد المؤمنون ولكنهم صبروا على الأذى. ولئن كانت الحكمة هي التي أملت عليهم الصبر، فلا يصح أن نغمِطهم حقهم من النخوة والحلم. وقد آثر مئة منهم ما بين رجل وامرأة، أن يهاجروا من وطنهم فراراً بدينهم إلى أن تهدأ العاصفة. ثم هاجر عدد كبير، ومنهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة، وهجروا بلدهم المحبوب، وفيه البيت المحرم الذي يعدونه أقدس بقعة على سطح الأرض. ولم يمض عامان أو ثلاثة على هذه الهجرة حتى تألفت في المدينة بتأثير تلك الجاذبية العجيبة، جماعة من الإخوة يفدون النبي (صلى الله عليه وسلم) بأَرواحهم. ولقد طالما دوَّت الدَّعوة اليهودية في آذان أهل المدينة، ولكنهم ما كادوا يسمعون صوت النبي العربي الذي حرَّك أوتار قلوبهم، حتى هَبُّوا من سباتهم، وبدؤوا فجأةً صفحة جديدة في تاريخ حياتهم» ا.هـ.

كان النبي الكريم «أَعظم الأَنبياء والمصلحين الدينيين نجاحاً»، وقد أحدث في عصره تغييراً شاملاً في النَّواحي السياسية والاجتماعية والفكرية والدينية لم يشهد له العالم مثيلاً في أي عصر أو قطر، من قبل ومن بعد.

كان صوته القوي يدوِّي في قومه كالرعد، فذهبت المساوىء التي تأصلت جذورها فيهم، كما ذهبت الحبة في حميل السيل، والريشة في مهب الريح، ثم أيقظ الناس من رقدة الموت ونهض بهم إلى ذروة الرقي. فإذا الذين كانوا منذ عشرين سنة يعبدون الأصنام ويحملون الحجارة في الأسفار ليتوجهوا لها بالعبادة، يستمسكون اليوم بعروة التوحيد بمعناه الصحيح، حتى إنَّ الخليفة عمر العظيم بلغ من سمو التوحيد أن قال وهو يقبل الحجر الأسود - وقد أشار إليه بذُباب سيفه - أما والله لقد علمت أنك حجر. ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك، وهو الذي كان في الجاهلية يعبد كل حجر جميل المنظر يقع بصره عليه. فإذا لم يجد حجراً عمد إلى كثيب من الرمل، بعد أن يفرغ من حلب ناقته.

ولم تطهر بلاد العرب - التي تبلغ مساحتها مليوناً ومئتي ألف من الأميال المربعة - من دنس الأَوثان في خُمس قرن فحسب؛ بل لقد بلغ من تحمس العرب لنشر التوحيد الذي اشتعلت جذوته في صدورهم، أن انساحوا في الأرض ذات الطول والعرض، ليجعلوا كلمة الله هي العليا. وأصبح العرب الذين كانوا بالأمس القريب يعيشون في حروب مستمرة، ويسفكون دماءهم لأتفه الأسباب، إخواناً يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة. وأصبح العرب الذين كانوا أجهل شعوب الأَرض، يحملون اليوم مشاعل العلم والعرفان إلى عالم يهيم في بيداء الجهالة. «قومٌ فقراء من رعاة الأَغنام، يهيمون على وجوههم في الصحراء منذ بدء الخليقة، لا يُؤبَه لهم، يأتيهم نبي بطل، فيؤمنون بدعوته، فإذا الذين كانوا بالأمس خاملين لا يُؤبَه لهم، يصبحون اليوم نابهين ملء السمع والبصر؛ وإذا العالم الأصغر بالأمس يزداد بسطة حتى يصبح هو العالم الأكبر. وما هو إلا قرن من الزمان حتى تمد الجزيرة

العـربية ذراعهـا الأيمن إلى دلهي[4]، وذراعها الأيسـر إلى غَـرْنـاطـة[5].
ويسطع نور العبقرية العـربية أحقـاباً طـوالاً على رقعة كبيـرة من الأرض، ويصبح للعرب شوكة وبأس، وعظمة وجلال»، ويصبح الذين كانوا بالأمس لا يكنون أي احترام للمرأة، أوّل من يرفع لواء الدفاع عن المـرأة، ويبث في العالم روح النخوة والحفاظ على المرأة، الأمـر الذي لم يكن للنـاس عهد به قبل الإسلام.

وجملة القول أن القوم الذين كانـوا بالأمس يـرتكبون أَحط ضـروب الآثام، أصبحوا اليوم يتمسكون بأَهداب التُّقى والصلاح، ويحافظون على حدود الله، ويحترمون قوانين المجتمـع، وأنَّ القوم الـذين كانـوا بالأمس يَصْدُرون فيما يفعلون، عن بواعث حقيرة، وأغراض صغيرة، أخذوا اليوم يتطلعون إلى غاية وراء القبر إلى غاية أسمى وأزكى وأقدس، تحفزهم إلى فعل الخيرات، وعمل الصالحات، ومحبة النـاس، ورعايـة العدل. فمـا أعظم التغيير الذي شهدته هذه الأعوام القلائل! حقاً لقـد رفرفت مـلائكة السماء على الجزيرة العربية، فنفخت روح المحبة والوئام في نفوس القوم الذين كانوا بالأمس يرتكبون أقبح ضروب الوحشية، وأحالت الصَّحراء التي أجـدبت من رياحين الفضيلة، وانتهكت فيهـا حـرمـة القـوانين الـوضعيـة والسمـاوية دون وازع من ضميـر، إلى جنـة من الفضيلة وارفـة الـظلال. فتطهرت جزيرة العـرب من رجس الأوثان والـطواغيت، وأقلع العرب عن الخمر والميسر وهتك الأعراض، وخَضَـع تعدد الـزوجات لنـظام خاص. وأوشـك الـرِّق أن يـزول وأصبحت عفـة المـــرأة فضيلة. وزال الخمـول والكسل، وحل محله الجد والعمل. وتحقق في جـزيرة العـرب (ملكوت

(4) دلهي: عاصمة الهند حالياً.
(5) غَرْناطة: في الأندلس، آخر معقل للمسلمين فيها، سقطت في كانون الثاني ١٤٩٢ م.

السموات) الذي كان عيسى وغيره يدعون الله به.

وإنه لمن العسير أن يتصور المرء نظاماً من نُظُم الحكم يخلو من رجال الشرطة، حفظاً للأمن، وصوناً للنظام. بَيْدَ أن العالم شهد مثل هذا النظام في المدينة في أواخر عهد النبي صلى الله عليه وسلم، إذ أصبحت الجرائم أثراً بعد عين، وصار كل من اقترف إثماً حتى ولو في الخفاء، يسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقر أمامه بذنبه. وذلك أنهم صاروا يراقبون الله حق مراقبته، فلم تكن ثمة حاجة إلى وجود هيئة من المخبرين، ورجال المباحث للكشف عن الجرائم، وتعقب المجرمين؛ بل كان المجرم شُرطي نفسه، يسوق نفسه بنفسه لإقامة الحد عليه، وكسدت سوق الكذب، فلم تصبح أية قضية بحاجة إلى تمحيص وبحث طويل، ولا إلى جيش من المحامين الذين برعوا في فن السفسطة والمغالطة، وتصوير الباطل بصورة الحق. فأصبح الضعيف في غِنى عمن يؤيد دعواه. ولم يعد ثمة داع لاختلاق الوقائع، والتنازع بين الخصوم، ولا إلى عريضة الدعوى، والمرافعات المطبوخة بإتقان، لأنهم صاروا يعتقدون أن الله رقيب عليهم أينما كانوا، وأنه لا يعزُب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء. وهكذا تحققت على يد محمد صلى الله عليه وسلم دعوة عيسى عليه السلام «ليأتِ ملكوتُك».

لا ريب أن هذا النجاح الفريد في بابه، الذي لا مثيل له في التاريخ دليل ناطق بما وصل إليه النبي صلى الله عليه وسلم من السمو الرُّوحي. ومن المسلم به أنه لا يمكن أن يتم أي إصلاح في أمة ما لم يشعر أفرادها بحب المصلح واحترامه، واستعدادهم لطاعته، وامتثال أمره. ولن يستطيع أي مصلح بماله وسلطانه، بل ولا بمعجزاته، أن يحمل الناس على حبه واحترامه وطاعته، فهذه أمور لا تتأتىٰ للمرء إلا إذا كان على جانب كبير من السمو الروحي. لم يكن محمد في قومه ملكاً مُسَلَّطاً يملي عليهم أَوامره،

بل كان يتبرأ من وسائل الإغراء التي من شأنها أن تجلب لـه كثرة الأتبـاع والأنصار، فكان يقول لهم على لسان القرآن: ﴿لَا أَقُولُ لَكُم عِنْدي خَزَائِنُ ٱللَّهِ، وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ، وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ. إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحىٰ إِلَيَّ﴾، [الأنعام: ٥٠]، ومع ذلك كان يحظى بطاعة أصحابه، وانقيادهم لـه إلى حد لا يتصوره العقل، فكان كـلامه فيهم كـلام المحبوب الـذي يحترمـه المحب ويصغي له. وإذا كان هذا هو حال أصحابـه معه، فمـا أخلقه أن يكون «أعظم المصلحين الدينيين نجاحاً»، في إصلاح الفـرد والمجتمع. ولا يمكن أن يتسنى هذا النجاح للمـرء إلا أن يبلغ أسمى درجة في سلم الرقي الروحي ومن الجائز أن عيسى عليـه السَّـلام كـان ـ كما يـزعمون ـ يقلب الأعيـان، فيحيل المـاء خمـراً، ولكنـه لم يستـطع أن يقلب أعيـان تلاميذه، فيطبعهم بالطابع الذي يريده، بل كان يتمنى لو كان فيهم مثقال ذرة من إيمان، ولقد صدقت فراسته فيهم حين جاءت ساعة العسرة، فقد تنكر له أقرب الناس إليه. ولئن تخلى الناس عنه، لقد سبه من أعطاه هـو مفاتيح السماء، وتبرأ منه سمهم ما شئت! سمهم ضعفاء الإيمان! سمهم ضعفاء النفوس! فإنَّ ذلك لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً، إذ يبـدو من هذه الوقائع أن (المعلم) لم يُؤتَ الإكسير الـذي يحيل المعـدن الخسيس إلى ذهب وهاج. وما قيـل في أتباع عيسى عليـه السلام، يقـال مثله في أتباع موسى عليه السلام، فلم تكن جوانحهم تنطوي على أي احترام لمن حررهم من رق فرعون، ولم يصغوا لقوله وهو يسري بهم إلى أرض الميعاد. ولكن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون له: «لا نقول كما قال قوم موسى لموسى: فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك، ومن خلفك»(6) ولم يكن

---

(6) لأخبار أقوال المهاجرين والأنصار قبيل بدر الكبرى انظر: ابن هشام ١٨٨/٢، الطبري=

هذا مجرد قول باللسان، فقد عرضت لهم ظروف تعرضوا فيها لأقسى ضروب الامتحان، وبرهنوا على أنهم صدقوا الله ما عاهدوا عليه، فقد حدث في غزوة أُحُد أن خلص العدو إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وغشيه القوم، واضطروه إلى الوقوع في حفرة، فجرح ثمانين جراحة، وشُج وجهه، فجعل الدم يسيل عليه، وتعرضت حياته للخطر، ولكن أصحابه الذين كانوا يتفانون في الإخلاص له تفانياً لا مثيل له، خَفُّوا إلى نجدته وكان النبي في الحفرة، ولو اهتدى العدو إليه لفتك به. ولم يكن هناك سبيل، لإنقاذه إلَّا أن يقوم حاجز من الأجسام البشرية حوله، وهذا ما بادر إليه أصحابه، فاصطفوا حول الحفرة، وعرضوا أنفسهم لنبل العدو الَّذي اخترق هذه القلعة البشرية ولكنه لم ينفذ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وخر أعضاء هذا الحصن البشري صرعي واحداً إثر واحد، وكلما هوى أحدهم حل محله آخر. ولم تحجم النساء عن إظهار إخلاصهن في هذا الوقت العصيب فقامت [نسيبة](7) تَذُبُّ عن النبي صلى الله عليه وسلم بالسيف، وترمي عن القوس، وتبعتها عائشة وأم سلمة وغيرهما، فهاجمن العدو بحيث يمكن أن يقال بحق أنقذن الموقف في الوقت المناسب. هذا ما حدث في غزوة أُحُد. أما في غزوة الخندق فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يرتجزون وهم يقولون:

نحنُ الـذيـن بَـايَعُـوا مُـحَمَّـداً على الإسْـلَامِ مـا بَقِينَـا أبَـدَا

وقد سنحت لهم الفرصة، فبرهنوا على صدق قولهم. وهذا من

= ٢/ ٤٢٤ ـ ٤٣٥، البداية والنهاية ٣/ ٢٦٢ و٢٦٣، الاكتفاء ١/ ٨٨.

(7) في الأصل (أُم نسيبة)، والصَّواب: نسيبة بنت الحارث، أُم عطية الأنصاريَّة، وهي مشهورة بكنيتها، كانت تشهد المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، (أُسد الغابة ٧/ ٢٨٠).

دواعي الفخر للمعلم والمتعلم كليهما.

ولم تتجل الروح القوية التي نفخها النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه في ميدان القتال فحسب، بل إنها مكنت (أبناء الصحراء) من مجاهدة أعدى عدو للإنسان، أَلا وهو نفسه التي بين جنبيه، وعاداتُه المرذولة. وإن التاريخ ليعجز أن يدلنا على مصلح واحد استطاع أن يحمل قومه على مثل هذا الانصياع التام لما أمرهم به، ولا سيما الاقلاع عن العادات السيئة المتأصلة في نفوسهم. ولقد كانت الخمر إحدى هذه الآفات، وكان العرب أشد الناس إمعاناً في معاقرة بنت الحان، في ذلك الزمان. كانوا يأكلون في اليوم ثلاث مرات، ولكنهم كانوا يشربون الخمر خمس مرات. ولما حان وقت تحريمها كنت ترى شوارع المدينة، وقد سالت بما أهرِيق فيها من دِنّان الخمر الممقوتة، طوعاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم، الذي كان له مفعول السِّحر.

لم تكن هناك حاجة إلى تقديم طلب من مفكري الأُمة إلى الوزارة لمنع تجارة الخمور، ولو لمدة وجيزة. بل يكفي أن تصدر كلمة واحدة من القائد الأَعظم، فإذا الأوقات الخمسة المخصصة لشرب الخمر تتحول إلى أوقات الصلوات الخمس.

لا يمكن أن يتم مثل هذا الانقلاب الأساسي في أخلاق الأُمة إلاَّ على يَدَيْ إنسان، قد بلغ أعلى درجة من السمو الروحي كالنبي صلى الله عليه وسلم. ولا ريب أن الفترة التي قضاها في غار حراء معتزلاً عن الناس، كان لا بد أن تُؤتي ثمارها. ومع أنها كانت الأيام الأُولى في حياته الزوجية، فقد كان يختلف كثيراً إلى ذلك الغار يتحنَّث فيه[8]. وفيه أتاه

(8) في اللِّسان: تحنّث: تعبَّد واعتزل الأصنام، عن عائشة رضي الله عنها: كان ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ يَخْلُو بغار حراء، فيتحنَّث فيه، وهو التَّعبُّد اللَّيالي ذوات العدد.

المَلَك، وبلَّغه الرسالة الأُولى. وقد ازدادت واجباته بازدياد أعباء الرسالة، ولكن ذلك لم يصرفه عن أن يخلو بربه، فكان يُمضي بياض النهار في العمل، والدعوة إلى الله عز وجل، ويقضي سواد الليل في الصلاة والعبادة حتى تورمت قدماه، وهو في المدينة التي ازدادت فيها مشاغل الحياة، إذ كان يقوم الليل، فيتوجه إلى الله بخشوع.

وما وافت السنة العاشرة من الهجرة حتى جاء الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. وجاءت الوفود تَتْرى إلى مكة والمدينة من سائر القبائل العربية، ليقروا بإسلامهم، وإسلام رؤسائهم وقبائلهم. وكان [من] آخر[9] ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم قولُه تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ، وَرَأَيتَ النَّاسَ يدخُلونَ في دينِ اللهِ أفواجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستَغْفِرهُ إِنَّه كَانَ تَوَّاباً﴾، [سورة النَّصر]. وتشير هذه الآيات الكريمة التي تتحدث عن النصر الإلهي، والفتح الرَّباني، إلى تمام الرسالة؛ وكانت [من] آخر ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في مكة وقت أن كان يزور هذه البلدة المكرمة على رأس مائة ألف من المسلمين، كما أَنَّها تدل على صدق ما تنبأ به النبي صلى الله عليه وسلم يوم كان أقل ناصراً وأضعف جنداً، من أن النصر مكتوب للإسلام في النهاية. وقد رأى ابن عباس بحق في هذه السورة إشارة إلى قرب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، إذ لم يلبث بعدها سوى ثمانين يوماً. وفي اليوم العاشر من ذي الحجة (٨ مارس ٦٣٢ م) كان النبي صلى الله عليه وسلم في مِنىً ـ محل الهَدْي ـ بعد أداء حجة الوداع.

---

(9) جاء في السيرة النبوية لابن كثير ٤/٢١١: وسُمِّيت حجة البلاغ، لأَنَّه عليه السَّلام بلَّغ النَّاس شرعَ الله في الحج قولاً وفعلاً، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلاَّ وقد بيَّنه عليه السَّلام، فلما بيَّن لهم شريعةَ الحج ووضَّحه وشرحه، أنزل الله عز وجل عليه وهو واقف بعرفة: ﴿اليَوْمَ أكمَلْتُ لكُم دِينَكُم وَأَتمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي وَرَضيتُ لَكُمُ الإسلامَ دِيناً﴾، (المائدة: ٣).

ويـا له من منـظر رائع! كنت تـرى مـا يحيط بـه من المسلمين ينيف على ١٤٠,٠٠٠ نسمة ما بين رجـال ونساء وأطفـال. جمع حـاشد ليس بينهم مشرك واحـد، وفي نفس المكـان الَّذي أخـرجوه منـه منذ عشـرين عامـاً. وجاءت إليه البشرى السعيدة في قوله تعـالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُم وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْـلَامَ دِينـاً﴾، [المـائـدة: ٣]. وخطبة النبي صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم مشهورة (10). كان يمتطي جملاً، والناس حوله يمثلون كل القبائل والعشائر. وكان يتكلم على رِسْله. ومنهم من كان يصرخ في الناس بقوله، حتى يسمع القاصي والدَّاني ممن شهد هذا الجمع. وإليك ما قاله صلى الله عليه وسلم في هذه الخطبة:

«أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً. هل تدرون أي يوم هذا؟ هـذا يوم النحـر. هل تدرون أي شهر هذا؟ هذا الشهر الحرام. هـل تدرون أي بلد هـذا؟ هذا البلد الحرام. إن دماءَكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا ليبلغ الشاهد الغائب، وستلقـون ربكم، فيسألكم عن أعمـالكم. وإن كلَّ رِبـا مـوضـوع، ولكم رؤوس أموالكم لا تَظْلِمُونَ ولا تُظلَمُون، وإن رِبا العباس بن عبد المطلب موضوع كله. وإن كـل دم كان في الجـاهلية مـوضوع، وإن أول دمـائكم أضع، دمُ ربيعة بن الحارث. أيها النـاس! إن الشيطان قـد يئس أن يُعْبَد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقِرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم.

أما بعد، أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً.

---

(10) يوم عرفة سنة عشر للهجرة «حجة الوداع»، ويقال لها: حجة البـلاغ، وحجة الإسلام، (السِّيرة النبوية لابن كثير ٤/٢١١).

وإنكم قد أخذتموهن بأمانة الله ، فاستوصُوا بهن خيراً ، أَرِقَّاؤُكم! أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون.

أيها الناس! اسمعوا قولي ، واعقلوه. تَعَلَّمُنَّ أن كل مسلم أخو المسلم. وأنكم كلكم سَواسِيَة (سواء في الحقوق والواجبات)، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلموا أنفسكم (لا تغتصبوا حقوق الناس).

ثم قال : «اللّهم هل بلغت؟» فدوَّى الوادي بهذا الجواب الذي تعالى من الجمع الحاشد «اللّهم نعم» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللّهم اشهد» فيا لها من رسالةٍ عظيمة! ويا له من نجاحٍ عظيم!

روحي فداك يا رسول الله

الباب الثامن

المثل الأعلى
بين معلمي الأديان

الغرض من الدِّين

لأول مرة في تاريخ العالم، أَماط محمد صلوات الله عليه، اللِّثامَ عن مقاصد الدِّين الحقيقية، ولم يكن العالم قبله خالياً من الأَديان، ولكن الناس كانوا يعتقدون أَنَّ الغرض من الدِّين، هو إرضاء الله، واستجلاب نعمه، وإطفاء غضبه، عن طريق المناسك والذبائح، والقرابين والدعوات على اختلاف أنواعها. وكان الوثنيون في جميع أَنحاء العالم عندهم من أشباه المسيح الشيء الكثير، وما كان عيسى ابن مريم إلَّا الحَلْقة الأَخيرة من هذه السلسلة. وكان الاعتقاد السائد قبل ظهور المسيحية بآلاف السنين أَن الإِنسان ولد متلبساً بالخطيئة، وأَن الإِله المتجسد هو الذي يكفِّرها بدمه. فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم، قرّر أن الدين لا يقصد إلى انتشال الإِنسان من الوهدة، وإقالته من العثرة، وإِنَّما يريد به السُّمو إلى الذروة، وإبراز القوى الكامنة في نفسه. وبعبارة أُخرى، يهدف إلى ارتقاء الإِنسانية. ذلك أن الله تعالى أودع الإِنسان ـ كما أودع غيره من الكائنات ـ قوّى واستعدادات أو ملكاتٍ كامنة، ومهمة الدين هي إطلاقُ هذه القوى من عقالها، وفتحُ أَقفالها، والعملُ على تنميتها، حتى تبلغ غاية كمالها.

والدِّين ـ حسبما قرره صلوات الله وسلامه عليه ـ هو مجموعة من القواعد والأصول التي يسير الإنسان عليها في حياته، حتى يتسنى له إبراز ما كمن في نفسه من الخير. وهذا الخير هو أثر الشعلة المقدسة التي سرت في الإنسان من نفس الرحمن. ولكن هذه الشعلة المقدسة انطفأت في حمأة الشَّهوات والميول النفسية التي هي أقرب في صورتها الأَولية إلى الطبيعة البهيمية منها إلى الطبيعة الإنسانية. ومن المشاهد في الكون أن منابت السوء تتفتق عن مناظرَ ذات بهجة، كذلك الشهوة البهيمية هي منبت الفضائل الإنسانية. وقد كان النبي العربيُّ أول من أماط اللِّثام عن هذا السر. وإني أقصد بالارتقاء المشار إليه السموَّ بالإنسان عن الطبائع الحيوانية إلى التخلق بالأَخلاق الرَّبانية. وهذا في الواقع هو المعنى الباطني للدين، حسبما دلت عليه التعاليم المحمدية. وهنا يتجلى لنا المعنى الذي فَضَل به النبي صلى الله عليه وسلم غيره من الأَنبياء. ومن المسلَّم به أنهم كانوا يهدفون إلى نفس الغاية، ولكن الوسائل التي أُثِرت عنهم، ونُسبت إليهم لتحقيق هذه الغاية ليست سهلة ولا منسقة، بل تتنافى أحياناً مع الطبائع البشرية. وهي لا تتجاوز بعض النَّصائح الجميلة المتنافرة، وبعض المواعظ الخلقية، والطقوس الدينية، وطائفة من الأَدعية والقرابين. ولكن محمداً صلوات الله عليه يفحص النفس الإنسانية كلها، ويسْبرُ غورها من هامة الرأس إلى أَخمص القدم، مثلُه في ذلك مثلُ الطبيب الماهر في فنِّ التشريح. وهو لا يذهب إلى قتل الغرائز، وإماتة الشهوات إذا كانت حيوانية أَو لأَنَّها حيوانية، بل يضع نظاماً يكفل ضبطها، والسيطرة عليها، بحيث تؤدي وظائفها بما يعود على الإنسان بالفائدة، وتنتقل من الحيوانية إلى الروحانية، وتنتقل من حكم الغريزة الأَصلية التي تتولد عنها سائر الغرائز والانفعالات، إلى غريزة حفظ النوع، أو بعبارة أخرى غريزة «الحياة». وهذه الغريزة يصدر عنها انفعالان نفسيان قويان هما

الغضب والشهوة. وكل من هذين يتفرع إلى شعب متعددة بعضها يتجه نحو الخير، وبعضها يتجه نحو الشر، فمثلاً إذا اتجهت القوة الغضبية في طريق الشر نجم عنها العداوة، والحقد، وحدة المزاج، والظلم، والغِيبَة، والسباب، والجبن، والنفاق. وإذا اتجهت في طريق الخير تجلت في صورة الجرأة، والشجاعة، والشهامة، والصبر، والمثابرة، والتسامح، والمجاملة، والوداعة، والتواضع، والعفو. كذلك القوة الشهوانية في صورتها العالية تظهر في المحبة، والإخلاص، والرَّحمة، والكرم، والقناعة، والإيثار، والأمانة، والتوكل على الله، وهكذا. وفي صورتها النازلة تظهر فى الدناءة، والبخل، والحرص، والكبر، والتبذير، والغيرة، والحسد، والخيانة، والفخر، والكسل، وما شابه. ثم إن هاتين القوتين إذا اتحدتا تولد عنهما أشياء كثيرة، هذا، وللشعور الإنساني ناحية ثالثة إذا رُبِّيت تربية صحيحة سيطرت على الناحيتين الأخريين، وهما القوتان الغضبية والشهوانية، أعني بها قوة العقل. والعقل إما أن ينزع إلى الخير، وإما أن ينزع إلى الشر. وبديهي أَنَّ الدين الذي لا يفي بما يتطلبه الشعور الإنساني من جميع نواحيه، لا يمكن أن يحقق الغرض الذي يأتي الدِّين السماوي لتحقيقه. ومن المعلوم أن المادة تبلغ غاية كمالها في الصورة الإنسانية، حيث يختلف الشعور عن الشعور الحيواني في اتساع مداه ونموه. ولما كان كل كائن يستطيع الوصول إلى الكمال إذا التزم السير على نهج خاص، كذلك الإنسان يستطيع في هذه الحياة أن يبلغ غاية الكمال الرُّوحاني كما بلغ غاية الكمال الجسماني، إذا سار على هذا النهج، وما هذا النهج سوى الدين. وإني أعتقد أن العالم الآن قد أصبح أرجح رأياً من أن يسلم بأن نظرية الإله الغضبان، واسترضاءه بتقديم القرابين تصلح أساساً للدين، وسبباً لوجوده. لقد شبع الناس من كباش الفداء هذه. وإنما الرأي الذي تقبله العقول أن يكون ارتقاء الإنسان من الحيوانية إلى

الروحانية هو الغرض الوحيد الذي ترمي إليه الأديان، والمبدأ الأسمى الذي يجدر أن تموت في سبيله الشهداء. ولا ريب أن بلوغ هذه الغاية السامية لا يمكن أن يتم بسحر ساحر، بل لا بد من المجاهدة والمكابدة تحت إرشاد القدوة الكامل الذي يحيط بدقائق النفس الإنسانية وما يحيط بها إلا رسول من الله حقاً. ولست أستطيع أن أفهم غرضاً آخر يَبْعث الله الرسلَ من أجله، وقد دل القرآن الكريم في فاتحة الكتاب على أن هذا هو الغرض من الوحي الإلهي، وإذاً ألا ترى معي أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه جدير بأن يُعَد معلم الانسانية الكامل، إذا شرع للناس من الدين ما يرفع الإنسانية من درْك الحيوانية إلى مرتبة الروحانية، وأرشدهم إلى الوسائل المؤدية إلى إعلاء الميول النفسية الأساسية ـ كالغضب والشهوة وما إليها ـ إلى الأخلاق الربانية؟ الحق أن محمداً صلى الله عليه وسلم يعالج هذه المسألة من كافة وجوهها، ويعالج كافة الميول النفسية سواء منها ما كان محموداً وما كان مذموماً، ويرشدنا إلى الخير لنفعله، وينهانا عن القبيح لنتجنبه، الأمر الذي لا مثيل له في أي دين من الأديان.

ويظن بعضهم أن الغرض من الدين هو دخول الجنة، ويعتقدون أنها تقع في مكان مّا، وراء السماء. ولكن القرآن الكريم يكشف لنا عن زيف هذه الأفكار السخيفة، ويذكر أن من معاني الجنة بلوغ الروح مرتبة الكمال، وأن مَنْ تخلّق بالأخلاق الربانية كانت له جنتان إحداهما في الدنيا، والثانية في الآخرة ـ إذ القرآن يعدنا بجنتين ـ ومن لم يتخلق بها كان مصيره إلى النار.

الجنَّة في نظر الإسلام

إنَّ علم نظام الكون الحديث يحمل (دين إنج) على إنكار خريطة العالم المسيحية، كما يحمله على إنكار الجنة والنار الجغرافيتين. ولكنه

إذا تدبر القرآن، فإنه واجد فيه ما يُثلج فؤاده. ففي الوقت الذي ساد فيه الاعتقاد بأن الأرض مركز الكون، كان محمد صلوات الله عليه يعلن للناس أَنَّ الجنة والنار لا ينحصران في مكانين فحسب، بل يصح أن يشملا المكانين والسموات والأرض، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُم، وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّمَاءِ والأرضِ﴾، [الحديد، ٢١] وقد ورد مثل هذا المعنى في الآية ١٣٣ من سورة آل عمران [﴿وَسارِعُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمواتُ والأَرْضُ أُعِدَّت للمتَّقينَ﴾]، فهاتان الآيتان تدلان على أَنَّ الجنَّة ليست محصورة في مكان خاص، ولكنها تستوعب السموات والأرض.

وقد روى كثير من المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآية أن هرقل أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم: إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبحان الله! فأَينَ الليل إذا جاء النهار. فالجنة والنار صورتان من صور الحياة الآخرة، تتبعان الحالة التي يكون عليها القلب، إذ القلب هو الذي يخلق الجنة والنار كما يصرح بذلك القرآن(١). والجنة والنار مرحلتان

---

(١) قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، [الشُّعراء، ٨٨ و ٨٩]،

والمؤلف يشير بذلك إلى ما يسمى في الاصطلاح بجنَّة الأعمال، وهي التي ينزل فيها الناس على قدر أعمالهم، فمن كان أفضل من غيره، كان له من الجنة أكثر. فقوله إن القلب يخلق الجنة والنار معناه أن نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار، ما هو من الجنة والنار حقيقة، وإنما هو من أعمال الداخلين فيهما.

النارُ منكَ وبالأعمالِ توقِدُها كما تؤجِّجها في الحالِ تُطْفيها
فأَنتَ بالطبعِ منها هَارِبٌ أبداً وَأنتَ في كلِّ حالٍ منكَ تُنْشيها

فالجنة والنار تبنيان من أعمال المكلفين من خير وشر، كما ورد في بعض الأحاديث=

مختلفتان من مراحل التَّرقي إلى العوالم التي تقع بعد الحياة البرزخية، إذ الجسم يربط الإنسان بالأرض، ولكن الروح إذا ارتقت وزكت كُسِيت حلة من النور تسعى بها في عوالم الله المختلفة إلى النعيم في دار النور. وهذه هي الجنة (1)، وعكسها النار(1) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾، [الشَّمس، ٩ و ١٠].

وبعد فالموضوع في حاجة إلى مزيد بيان. ولكن يحسن قبل ذلك أن أذكر بعض ظواهر الأشياء، خلال سيرها في طريق التطور والارتقاء. فمن المشاهد أنه لا أثر للحركة في المملكة النباتية، ولكن هذه الحركة تظهر في المملكة الحيوانية لما يمتاز به الحيوان من الحس والشعور. وهذا هو الذي يسرع بالرقي الروحي والعقلي في الهيكل البشري، فإنَّه إذا كان الروح الحيواني قد زود بجهاز أخف مما زود به النبات، تعين بالضرورة أن يزود الروح الإنساني بجهاز أخف منه وألطف. وكذلك كلما سارت الروح

= الشريفة أن غراس الجنة سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله إلخ.

(1) جاء في سورة التوبة ٧٢: ﴿وَعَدَ اللَّهُ المؤمنينَ وَالمؤمناتِ جنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِها الأَنْهارُ خَالِدِينَ فيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضوانٌ مِنَ اللهِ أَكبَرُ ذلكَ هُوَ الفوزُ العَظيمُ﴾، أي: رضوان من الله ـ الآية ـ معناه أن رضواناً من الله أكبر منزلة من كل ما سلف ذكره من الجنات والأنهار والمساكن الطيبة، فالجنَّة تشتمل على اللَّذات الرُّوحانيَّة والجسمانية، والأولى أفضل من الثَّانية، ويحصل كلا النَّوعين للمؤمنين.

(١) كلام المؤلف هنا لا يتنافى مع النعيم الحسي، غير أنه يرى أن النعيم الحسي تابع للنعيم المعنوي. وقد سبق أن أشار المؤلف إلى أن القرآن وعد المؤمنين بجنتين ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ويريد المؤلف أنَّ المؤمن الكامل الذي زكت نفسه، له جنتان: جنة معنوية وأخرى حسية، لكنه لا يدخل الجنة الحسية في الآخرة إلا إذا دخل الجنة المعنوية، أي بعد أن يزكي نفسه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾، [الشمس: ٩]، أما المؤمن غير الكامل، أي العاصي الذي قصر في تزكية نفسه في هذه الدار، فإنه يدخل النار في الآخرة حتى يكمل تطهيره. وبعد أن يطهر بالنار يدخل الجنة الحسِّيَّة.

(المعرب)

في معارج الكمال، وجب أن تكون مطيتها أكثر خفة ولطافة حتى تستطيع الحركة والعروج في العوالم العُلْوِيَّة، تلك العوالم التي تتفتح لها بالتدريج.

وليست السموات السبع المذكورة في القرآن إلا مقامات التَّرقي السبعة. وإذا كان أي رجل عنده مُسكة من عقل لا يستطيع أن ينكر الحقائق العلمية، بل يسلم بمبدأ التطور والارتقاء سواء أسميناه حقيقة علمية، أو حقيقة دينية، إذ لا فرق بين الاثنين، فأجدر به أن يؤمن باستمرار ترقي الروح بعد الموت. وإذا كانت الخلايا السَّديمية تسير في طريق التطور والنمو إلى أن تصل إلى مرتبة الحس والإدراك البشري، وجب أن تواصل التطور والرقي فيما بعد الحياة البرزخية، حتى تكمل قواها المركوزة فيها، إذا لم تكن كملت في هذه الحياة الدنيا. إن البذرة تبرز كل ما كمن فيها في شكل ثمرة، ولكن هذه الثمرة ليست نهاية الشوط، فإنها تستحيل ـ آخر الأمر ـ إلى غذاء لا غنى عنه لحياة الإنسان. وقد أودع الله النفس البشرية قوى مختلفة، وهذه القوى كامنة في معظم النفوس، ويحتاج الإنسان إلى فترة من الزمن حتى يتسنى له تنميتها إلى حد التمام. أضف إلى ذلك أن في النفس قوى خفية لم تظهر للآن على الوجه الأتم في أي فرد من الأفراد، وإن كانت تظهر أحياناً في بعض النفوس العالية، فمنها الرؤى، والأحلام الصحيحة، والعلوم التي يتلقاها المرء في حالة الغيبوبة، والمكاشفة، واتصال الخواطر، والجلاء السمعي والجلاء البصري، وحضور الأرواح بجسمها الاشعاعي. وهذه أُمور لم يعرفها الغرب إلا عن طريق البحوث العلمية الحديثة[2]، مع أنها كانت معروفة للمسلمين منذ بدء الإسلام. وهذه الأُمور مصدرها بعض الحواس الكامنة التي لا يظهر

(2) الجلاء السمعي والجلاء البصري في العِلمْ الحديث (التلباثيا: Télépathie).

أَثرها إلا غِباً وفي ظروف معينة. ولن يصل الإنسان إلى المرتبة التي يظهر فيها أثر هذه الحواس بصفة دائمة إلا بالمجاهدة. ويدل القرآن الكريم على أن الطبيعة الترابية هي التي تمنع هذه الحواس من ظهور مقتضياتها، فتظل محجوبة. ولكن قد ينكشف الحجاب أحياناً بتأثير بعض الدواعي الروحانية، فتشاهِد الحقائق بطريقة خارقة للعادة، ومهمة الإنسان هي أن يسعى حتى يجعل الأُمور الخارقة للعادة، أُموراً معتادة. ولا يستطيع أَي إنسان أُوتي شيئاً من المنطق أن ينكر حدوث مثل هذا التقدم في المستقبل، قياساً على ما وصل إليه العلم في الوقت الحاضر. ولكن ذلك التقدم سيكون له جانبه الأَبيض، وجانبه الأَسود، وهذا يسمى في عرف الدين بالنار، وذاك بالجنة. والجنة والنار هما ترقي الروح أَو سيرها إلى الأمام، وتدليها أو سيرها إلى الخلف. ولعل هذا هو السر فيما شاع على ألسنة الناس، مما حمل أهل العصور الوسطى الذين لم يؤتَوْا حظاً كبيراً من العلم على رسم خريطة الجنة والنار. وما كان السِّير (كونان دويل) بحاجة إلى الاستدلال بتجاربه الشخصية على وجود الجنة والنار حيث قال: «إنني أعرف أنه توجد الآن آلاف من الأرواح تحوم حولنا». فإن الإيمان بالجنة والنار بالمعنى المستفاد من القرآن، هو نتيجة منطقية للإيمان بمبدأ النشوء والارتقاء، ومن ثم وجب أن نؤمن بالجنة والنار باعتبارهما حقائق علمية.

والآن يطيب لي أن أقول بضع كلمات عن الطريقة التي تؤدي في نظر القرآن إلى الجنة. هناك مقامات لا عد لها في طريق التطور من الحالة السديمية إلى كمال النفس البشرية. وهذه المقامات منها ما هو كبير، ومنها ما هو صغير، وكل مقام كبير يتألف من سبعة منازل، وينتهي بفترة توقف فجائية هي التي اصْطُلح على تسميتها بالموت، وهو عبارة عن انحلال عناصر الهيكل، الذي تعرج عليه الروح في كل مقام من مقامات السير.

وهـذه الفتـرة تـطول وتقصـر بـاختـلاف الأحـوال، ونسميهـا نحن معشـر المسلمين بـالبرزخ. ومتى انتهت هـذه الفتـرة تـرقت الـروح إلى المقـام التالي. وتشاهد هذه الحالة البرزخية عندما يتحول الثلج إلى ماء، والمـاء إلى بخـار، وتصبح الحـرارة كامنـة. ومعنى البرزخ في الأصـل السكـون والركود.

وعندما يترقى السالك من مقام إلى مقام، تصاحبه بعض آثار المقام الأول، وتطرأ عليه أحوال جديدة مغايرة لما عَهِدَه في المقام الأول. ولمـا كانت هذه العناصر الجديدة هي عماد التّرقي في المقـام الجديـد، وجب على السالك أن يعمل على تنميتها وتقويتها، إلا أنه لا يترقى إلى المقـام الثالث حتى يكون قد تخلص نهائياً من آثار المقـام الأوَّل. وإذا دخل في المقام الثالث، صاحبته آثار من المقام الثاني، وطرأت عليه أحوال جديدة كذلك. ويمكن التمثيل لذلك بالشجـرة، فمثلاً تتـطور البذرة في مـراحل النمو المختلفة حتى تصبح ثمرة، فتكون جذعاً، وغصناً، وورقة، وزهرة، فثمـرة. وإذا تأملت في الـورقة، وجـدت فيها عنصـراً مشتركـاً بينها وبين الغصن، وعنصراً جديداً هو الذي يُكوِّن الزَّهرة. والزَّهرة فيها عنصر مشترك بينها وبين الورقة، ولكن ليس فيها أثر من الغصن أو الجذع. والثمرة فيها رائحة الزَّهرة، ولكنها تحتـوي على عناصـر غذائيـة لم تكن في الزَّهـرة، والثمرة ليس فيها شيء من خصائص الورقة أو الغصن. وصفوة القـول أن السائر يكتسب في كل مقام عنصراً جديداً يختلف عن المقام الأَدنى، ويتخلص من آثار هذا المقام الأدنى عند ترقيه إلى مقام أعلى، إذ أن بقاء هذه الآثار مما يعرقل التَّرقي. فما كان يُعَدّ ذهباً في المقـام الأدنى يصبح تراباً في المقام الأَعلى.

وهذه القاعدة تسري على كل الكائنـات السائـرة في طريق التـطور

والارتقاء بما فيها النفس الإنسانية. ولما كان الهيكل الجُثْماني هو مبعث الشهوات الحيوانية، وجب أن يقتصر السَّالك من المطالب الجسمية على القدر اللازم للإبقاء على حياته، إذ أن ترقيه منوط برقي روحه، لا جسمه. ولكن حينما تتجرد الروح من الهيكل التُّرابي، يتحتم ألا تحتفظ معها بشيء من الطبيعة الترابية، لأن هذه الطبيعة وإن كانت مطية للترقي في هذه الحياة الدنيا، تحول دون الترقي في الحياة الآخرة، لا سيما إذا بقيت بلا ضابط، الأمر الذي يؤدي إلى انطلاق ميولها الشريرة، واقتراف الآثام والمعاصي. أما إذا وُفق الإنسانُ إلى كبح هذه الميول في هذه الدار، سَهُل عليه التَّرقي في الحياة الآخرة، ولكن ذلك لن يتسنى للمرء إلا بالتوفيق الإلهي. ومن ثم وجب على المسلم أن يطلب المغفرة من الله على الدوام، أي أن يحفظه من الذنوب والآثام. وهذا يفسر لنا الآية القرآنية التي أشرنا إليها في هذا البحث ﴿ سَابِقُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾، [الحديد: ٢١].

* * *

التَّخلُّق بأَخلاق الله

لا يقف بنا محمد صلى الله عليه وسلم عند هذا الحد، بل يضع أمامنا النموذج الذي يُراد أن نطبع أنفسنا على غِراره. ولقد أتى على الإنسان حين من الدهر كان يعتقد أن القول بأن الله خلق آدم على صورته، أشبهُ باللغز المُعَمَّى. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أوضح هذه العبارة، حين أمر أمته أن يتخلقوا بأخلاق الله. وبذلك لخص الغرض الأكبر من هذه الحياة الدنيا. فالإنسان قد خُلق على صورة الله من حيث الروح، وبقى عليه أن يأخذ من أوصافه تعالى ما يناسبه. وهذا يتطلب معرفة لله تعالى بالقدر الذي يستطيع العقل المحدود أن يدرك من غير المحدود. ومن الخطأ أن يقال إنه يمكن إدراك كُنْه الذات الإلهية، فنحن لا نعرف عنها إلا

قليلاً، وهذا القليل هو مبحث الأديان كافة وسببها. وهي تختلف جميعاً في إدراكها للألوهية. على أن هذا القليل الغامض الذي نعرفه عن الحق تعالى لا يشفي غليلاً. وإذا أريد أن نتخلق بأخلاق الله، وجب أن نعرف شيئاً عنه. وهنا أكرر القول إنَّ نبي الإسلام هو ـ وحده ـ الَّذي يُفصل لنا القول في هذا الشأن على الوجه المنشود. فالقرآن يصرح أن الله تعالى لا تدركه الأبصار، ولكنه يذكر بعض الصفات الإلهية التي يمكن أن يدركها العقل البشري، والتي تصلح أن تكون لنا مثالاً نحتذيه، فنطبع أخلاقنا على غراره، فيحدثنا عن تسعة وتسعين اسماً فقط من الأسماء الإلهية. وهذه الأسماء لا تستغرق صفات الألوهية، ولكنها تتضمن بعض الأوصاف التي يستطيع الإنسان التخلق بها ليكون عبداً ربانياً. ومن ذلك يتبين أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قد عرّف الخلق بالحق على قدر ما تطيقه عقولهم. وهذه المعرفة قوامها الاستدلال بآيات الكون، وإدراك الصفات الجميلة التي يمكن أن يتصف بها البشر. وقد كان إله اليهود إلهاً قاسياً لا يحب العفو، ولا يعرف الشفقة في تنفيذ أحكامه، ولا تأخذه رأفة بأعداء شعبه[3]، ولم تكن آلهة الأمم الأخرى أقل من إله اليهود قسوة، فقد كان

---

(3) جاء ـ مثلاً ـ في سفر التثنية ١٣/١٢ ـ ١٧ وما بعدها: إن سمعت عن إحدى مدنك التي يعطيك الرَّبُّ إلهُكَ لتسكن فيها قولاً قد خرج أناسٌ بنو لئيم من وسطك وطوَّحوا سكان مدينتهم قائلين نذهب ونعبد آلهةً أُخرى لم تعرفوها، وفحصت وفتشت وسألت جيداً وإذا الأَمْرُ صحيحٌ وأكيد قد عُمِل ذلك الرِّجسُ في وسطك، فضرباً تضربُ سكان تلك المدينة بحد السَّيف وتحرِّمها بكلِّ ما فيها مع بهائمها بحد السَّيف، تجمع كل أَمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرِّق بالنَّار المدينة وكلَّ امتعتها كاملةً للرب إلهك فتكون تلاً إلى الأبد لا تُبنى بعده..

وفي سفر التثنية أيضاً ٢٠/١٢ ـ ١٤: وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السَّيف، وأمَّا النِّساء والأطفال والبهائم وكلُّ ما في المدينة كُلُّ غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكُلُ غنيمةَ أعدائك الَّتي أعطاك الرَّبُّ إلهك، هكذا تفعلُ بجميع =

دُخَان القرابين على النار، ودماء البهائم على المذابح، تملأ خياشيمهم، فتتلَمَّظُ لها شفاههم، وتَقَرُّ بها عيونهم، وكان جميع الآلهة في الشرق والغرب من هذا الطراز، ولا ريب أن عيسى عليه السلام جاء ليخفف من حدة القسوة التي كان الناس ينسبونها إلى مقام الألوهية، فكان يُسَمِّي الله أَباه، ليُشعرهم بأن العلاقة بين الله وعباده، تشبه علاقة الوالد بولده، ولكن هذه الفكرة الجميلة أفسدها رجال الكنيسة، فجعلوا الأب الودود أباً غاضباً حانقاً، لا يعفو عمَّن أساء إليه، ولا يفترق في شيء عن إله اليهود، الذي لا يرحم ولا يلين، وأضفى النصارى على «الأب» في السماء صفات المألوهات الوثنية، فشبهوه بزيوس الذي كان يرسل أبناءه لتُسفك دماؤهم تكفيراً عن خطايا غيرهم. هذه الفكرة لم تشوه جمال الرسالة التي جاء بها عيسى فحسب، بل أعطت صورة شائنة عن الأُبوة، أب لا يعفو عمن أَساء إليه، ولكن يقتل أَفضل أبنائه، ليخلص غيره من أَبنائه الأشرار. أَمَّا محمد صلى الله عليه سلم فيعطينا صورة عن الأُلوهية تفوق كل ما تقدمها جلالاً، وجمالاً، فإله محمد هو الله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين. وهذه هي الصفات الأربع المذكورة في فاتحة الكتاب، وفيها تتلخص سائر الصفات المذكورة في القرآن. فهو الرب الذي يخلق الأشياء ويفيض عليها القوى والاستعدادات المختلفة، وهو الذي يربيها ويغذيها في جميع مراحل التَّرقي المختلفة، حتى تصل إلى مرتبة الكمال، وهو الرحمن الذي اقتضت رحمته أن يتكفل بكل ما يلزم للموجودات في كل مرحلة من مراحل نموها؛ وهو الذي يبتدىء بالنعم قبل استحقاقها، دون أن ينتظر عنها عوضاً، وهو الرحيم الذي يجازي على الحسنة بأَلف ضعف،

= المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأُمم هنا، وأمَّا مدن هؤلاء الشُّعوب التي يعطيك الرَّبُّ إلهُكَ نصيباً فلا تستبقِ منها نسمة ما.

وكثيراً ما يظهر هذا الجزاء في نشر ما انطوى في النفس البشرية من القوى، ويعفو إن شاء عمن غلبت عليه الضلالة، لأنَّه لا يتقيد بالقوانين كالقاضي أَو إله الكنيسة، بل هو المشرع الأعظم، ولذلك سُمِّي بملك يوم الدين، وهو العفو الغفور، ولكن إذا كان العقاب هو السبيل الوحيد لهداية من ضل عن الطريق السَّوي، فإنه يعاقبه إذا الهداية إلى الطريق القويم هي المقصد الأسمى.

تدبَّر هذه الصفات الأَربع، تجد أن كل ذرة في الكون تشير إليها، وتدل عليها، بما أسبغ الله عليها، من نعمة الإنشاء، ونعمة الغذاء، ونعمة النماء. فهل لنا في أن نتخلق بهذه الأَخلاق الإلهية! إذنْ لحلَّ على الأرض العيد الأَلفي السعيد[4]، وأطيع الله في الأرض، كما يطاع في السماء. إنه ملك عادل في حكمه، يعطي كل ذي حق حقه؛ وهو المنعم على جميع خلقه على حد سواء. ولو أن ملوك الأَرض حكموا رعاياهم كما يحكم الله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين لتحقق على الأرض ملكوت السموات، الذي كان عيسى عليه السلام يبتهل إلى الله من أجله، كما تحقق في حياة النبي صلى الله عليه وسلم.

* * *

الفضيلة مثال الصِّفات الإلهية

مما تقدم يتبين أن العالم أدرك لأول مرة أن الإيمان بإله يستلزم الإيمان بصفات لكمال التي يتصف بها الحق تبارك وتعالى ولم يدرك أهل الغرب هذه الحقيقة إلا منذ عهد قريب جداً. أما المسلمون فجوهر العبادة

(4) العام الأَلفي: دعوة ظهرت في انكلترا في القرن السَّابع عشر، مضمونها «إن المسيح المنتظر سيعود ويجمع اليهود في جزيرة، وينطلق بهم إلى أرض كنعان ـ أرض الميعاد ـ حيث يقيم مملكة الرب هناك، والتي ستدوم ألف عام»، والدعوة بحد ذاتها مأخوذة من سفر رؤيا يوحنا اللَّاهوتي ٢٠/١ ـ ٦.

عندهم هو التَّخلق بالأخلاق الإلهية ومن ثم نجد أن موضوع بحث القرآن هو الذات الإلهية. وكل ما عدا ذلك يدور حول هذا الموضوع. فإذا تقرر ذلك أمكن تقسيم القرآن إلى المباحث الستة الآتية، وكلها تدور حول الذات الإلهية:

(أولاً) بيان الصفات التي يتصف بها الحق تبارك وتعالى، أو مجال الذات الإلهية.

(ثانياً) بيان آثار هذه الصفات بالإشارة إلى مظاهر الكون.

(ثالثاً) السير على نهج هذه الصفات، ويسمى هذا فضيلة، واستقامة، وتزكية. وكل عمل لا يتفق وهذه الصفات يعد رذيلة.

(رابعاً) الشرائع أو الأوامر التي يؤدي امتثالها إلى السير على نهج هذه الصفات المذكورة، ويعصم الإنسان من الوقوع في الخطأ.

(خامساً) ذكر بعض من تخلق بالأخلاق الربانية، ومن لم يتخلق بها، فمن الفريق الأوَّل النبيون والصديقون والشهداء والصالحون. وغيرهم من الفريق الثَّاني.

(سادساً) ذكر الحياة بعد الموت، وهي توضح المبدأ نفسه. فالذين تخلقوا بأَخلاق الله يدخلون دار النعيم التي تسمى الجنة. أما الذين لم يصلوا إلى المستوى الَّذي يؤهلهم للدخول في جنة النعيم فإنهم يقضون فترة من الزمن في النار حتى يكمل ما بهم من نقص، لأن من مبادىء الإسلام أن من مات على الإيمان لا يخلد في النار ومن ذلك يتبين أن القرآن الكريم إنما أنزل ليعرفنا بالله وصفاته، ويرشدنا إلى التخلق بأخلاقه.

ولا مراء في أن طاعة الله تعالى، والتخلق بأخلاقه هو الحياة

الفضلى، والطريقة المثلى. ولا يستطيع الملحد نفسه أن ينكر ذلك، لأنه لا مفر له من أن يخضع للقوانين الطبيعية التي ليست إلا مظاهر للصفات الإلهية. وإذا صرفنا النظر عن جميع الاعتبارات المتعلقة بعدم صحة الكتب المقدسة ما عدا القرآن، وآمنا بأنها صحيحة، لم نجد فيها كبير فائدة إذ أنها لا تدلنا على جميع الصفات الإلهية التي نقرؤها في كتاب الكون. وإذا كان القرآن هو الكتاب الزاخر بذكر الله وصفاته، والدال على كيفية التخلق بأَخلاقه، أفلا يكون هو الكتاب الوحيد الذي يحقق الغرض من الوحي الإلهي؟

* * *

الصلاة في الإسلام

من أراد أن يتمسك بالأخلاق الفاضلة، وجب أن تكون أخلاقه على مثال الأخلاق الإلهية، لأنها هي الفضيلة بعينها، وأن يفتش قلبه، ويحاسب نفسه كل يوم عدة مرات، ليتأكد أنه متخلق بأخلاق الله علماً وعملاً. ومن أجل ذلك فُرِضَت الصلوات الخمس في اليوم والليلة، لأنها ـ كما جاء في معنى الحديث الشريف ـ كمثل نهر دائم يجري بباب الإنسان، يغتسل فيه خمس مرات في اليوم، فهل تراه يبقى عليه من الدَّرَن شيء؟ وقد روعي هذا المعنى أيضاً فيما تُطلَب قراءته في الصلاة من الآيات والأذكار. وليس أدلَّ على إقبال المسلمين على الصلاة من أنك تجد المساجد عامرة بالمصلين إذا قورنت بغيرها من دور العبادة عند أهل الديانات الأُخرىٰ. وليس العالم المسيحي وحده هو الذي يشكو من خلو الكنائس من المصلين، بل إن هذه الشكوى تكاد تكون عامة، في الوقت الذي لا ترى فيه المساجد تخلو من المصلين ويظهر الفرق الكبير بصفة خاصة بين المساجد وغيرها من دور العبادة، إذا علمنا أن المسلمين يعبدون الله خمس مرات في اليوم، بينما غيرهم من أهل الديانات الأُخرى يعبدون الله

مرة في الأسبوع. وقد كشف رئيس أساقفة كنتربـوري عن بعض الأسباب الداعية إلى انصراف الناس عن الكنيسة، فقد نَوَّه في الخطاب الذي ألقاه في المؤتمر الكنسي الأخير بضرورة تحسين المواعظ التي تُلقى من منـابر الكنائس، حتى تكون وسيلة لجذب الجماهيـر ولما كـانت السينما أَقـوى تأثيراً على وجـه العموم في جـذب الجمهور، فـلا عجب إذا حلت محل المواعظ في الكنائس في المستقبـل القريب. ولكن السـر في أن الصلاة المشروعة في الإسلام تجذب المسلمين إلى المسـاجد، هـو أن المسلم يقرأ بنفسه ولنفسه الموعظة المطلوبة في كل صلاة؛ وهو مكلف بأن ينظر في أعمـاله، على ضـوء ما يتلو في صـلاته. فهـو يتلو في الصـلاة بعض الأسماء الإلهية، وينظر في نفسه ليرى إذا كان ما يتلو بلسانه، منعكساً في أفعاله وأقواله، بين كل صلاة وصلاة.

وكذلك شؤون معاشه ومهنته تندرج في ضمن ما ينظر في صـلاته، فهو في كل صلاة يكرر هذه الأسماء الإلهية عدة مـرات: ﴿الحمدلله رَبِّ العالمينَ، الرَّحمنِ الرحيمِ، مَالِكِ يومِ الدِّينِ﴾ [فاتحة الكتاب: ١ ـ ٤]، وكل هذه الأسماء لها صلة مباشرة بـأخلاقـه ومهنته. وكـل اسم يهيىء له فرصة يحاسب فيها نفسه، ويسأل قلبه: هل هو مواطن صالح في ملكوت الله؟ ولهذا يطيب لي أَن أقول كلمة عن الناحية المِهنية والمعاشيَّة، إذ كانت تحمل الناس على إهمال شأن الصلاة خاصة. ومن الجلي أن كـل مهنة تتطلب بعض المواد، وشيئاً من المقدرة والكفاية، وقسطاً من العـون والتشجيـع، ليكون النجـاح فيها مكفـولاً. والمسلم حين يتلو في صلاتـه ﴿الحمدُللهِ رَبِّ العالمينَ﴾ يعلم أَنَّ المعنى المستفاد من رب العالمين أنه الذي خلق الأشياء، وسخرها له، وأودعها من القوى العجيبة مـا يستطيـع استغلاله في كـل مالـه صلة بعمله، وأنه زوده بـالقوة والكفـاية الـلاَّزمتين

لإتقان هذا العمل. فإذا قرأ ﴿الرَّحمن﴾ تذكر الرحمة العامة، التي اقتضت أن يخلق الله له كل ما يحتاج إليه في عمله، وما عليه إلا أن يبحث عنه ويجده. فإذا قرأ ﴿الرَّحِيم﴾ تذكر الرحمة الخاصة التي مقتضاها أن الله تعالى يخص بنعمه، التي لا تحصى، من سعى لها، ويكافىء بها المرء على عمله. فإذا قرأ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّين﴾ علم أنه تعالى مالك الجزاء، قد يعاقب الإنسان إذا لم يستعمل النعم فيما خُلقت من أجله. فهل هناك درس أنفع وأجدى، وباعث أدعى وأقوى لحفز الهمم، وشحذ العزائم وإتقان العمل من هذا؟ وهل هناك كلام أبلغ من كلام رب العالمين يستطيع أن ينفخ في نفوسنا روحاً جديدة، ويحفز قوانا إلى العمل، ويحملنا على التفكير فيما خلقه الله لنا، ويزيدنا نشاطاً وجداً في العمل؟ إنني لم أتناول بالبحث هنا إلا الجملة الأولى من الصلاة. ولكن ما بقي منها ينحو هذا المنحى، وكل كلمة فيها تشير إلى هذا المعنى. وإذا صرفنا النظر عن الناحية الخلقية ألفينا الإنسان لا ينفك مهتماً بأمر المعاش اهتماماً يتفاوت قلة وكثرة، ويلاقي من المتاعب والمصاعب ما يحتاج معه إلى العون والتَّشجيع. ولكنه لا يجد عوناً من الناس، فيلجأ إلى الله يستمد منه العون والتوفيق. وهنا نجد الصلاة تفتح له باب العون الإلهي، ولكنها في الوقت نفسه تعلمه الاعتماد على النفس، وتأمره بالأخذ بالأسباب. ولم يَعْدُ عيسى عليه السلام الحقيقة حين قال إن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده، ولكن بكل كلمة تخرج من فم الله. ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم جعل ذلك القول حقيقة واقعة.

* * *

كلمة الافتتاح في الإسلام

علَّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مبدأ نسير عليه في الحياة، يفوق في جماله وكماله أي مبدأ آخر، تلقاه غيرنا من الأمم. فهو يرشدنا

إلى أن نبتدىء في كل أمر ذي بال ﴿بسم الله الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ومعناها نبدأ بسم الله الرحمن الرحيم الذي يمدنا، بمحض إرادته واختياره، بالنعم التي نحتاج إليها، لا مكافأة على أعمالنا، ولا لأننا نستحقها، ولكن يفيضها علينا من عين الفضل والمنة (الرحمن) وما نفعل من خير يُوَفَّ إلينا أضعافاً مضاعفة (الرحيم). ولقد أشرت آنفاً إلى أن هـذين الإسمين الكريمين يدلان على ما أعده الله من الأسباب اللازمة لإنجاز ما نشرع فيه من الأعمال. وإذا علمت أن الفضيلة الحقة في الإسلام هي التخلق بالأخلاق الربانية ،عرفت أن في مشروعية الإفتتاح بالبسملة تربية كبيرة للعبد، وتنبيهاً له على التعلق بالأوصاف الربانية، وإشعاراً له بأن يعامل الناس معاملة الرحمن الرحيم في كل حال، وأن يسعى في قضاء حوائجهم، سواء منهم من يستحق ومن لا يستحق، ويجب أن يقوم بذلك من تلقاء نفسه، دون طلب أو استحقاق منهم، وأن يكافىء من أسدى إليه معروفاً أضعافاً مضاعفة. والواقع أن الدين يتلخص في هاتين الكلمتين: «عامل الناس معاملة الرحمن الرحيم في كلِّ أوقاتك وحقق ملكوت الله في الأرض»، ولا شك أن قولهم «أحب الله، وأحب جارك» مبدأ حسن، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم أتى بأحسن منه في قوله: «ألا أخبركم بأحبكم إلى الله؟ إن أحبكم إلى الله أحبكم إلى خلقه»، ثم يعلمنا كيف نحب الله، ويرشدنا إلى أن نُحقِّق معنى البسملة في أفعالنا كما نردد ألفاظها بلساننا عند البدء في كل أمر ذي بال، سواء في محيط الحياة العائلية أو العامة.

* * *

تَحيَّة الإسلام

وكذلك يعلمنا صلى الله عليه وسلم صيغة خاصة للتحية، على ما نحو ما سلف. وهي أن نقول لكل من نلقاه (السَّلام عليكم) ومعناه «ليحل بكم الأمان»، والسلام أحد الأسماء الإلهية المذكورة في القرآن، ومعناه

الأمان. فمعنى التحية الإسلامية إذن هو أن (رب السلام يحرسكم) ويجب أن تكونوا حراس السلام في الأرض فلنتدبر هذه النصائح الموجزة، التي تنفعنا في الحياة، في هدوء بعيدين عن كل جدل ديني أو مذهبي. ولا شك أن محبة الجار ينبغي أن تكون شعار الدين والغرض الأساسي منه؛ فلننظر أي رسول من الرسل الكرام صاغ هذا المبدأ في أكمل صورة عملية. تأمل قوله صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بأحبكم إلى الله؟ إن أحبكم إلى الله أحبكم إلى خلقه»، بهذا القول يجعل النبي صلى الله عليه سولم المبدأ المشار إليه أقرب إلى الفهم، لا سيما إذا عُلِمَ أن الناس كانوا يجهلون كيف يحبون خالقهم من قبل، وأنَّ الله تعالىٰ غني عن محبتهم له. وهو يطالبنا بأن نرحم الناس في جميع الظروف والأحوال، ويريد أن نكون في سلام ووئام مع كل من نلقاه، ثم نفتش في قلوبنا ونحاسب أنفسنا خمس مرات في اليوم في أثناء الصلاة، لنرى مبلغ ما عملنا به من هذه النصائح الحيوية؛ ومقدارَ ما أظهرناه من الرحمة العامة والخاصة والحرص على إقرار السلام بين الأنام.

* * *

لا وساطة بين العبد وربِّه

وتقرر لأول مرة في التاريخ أنه لا وسيط بين العبد وربه، وأن الحَرَم الإلهي مفتوح لكل مخلوق. وقد نبَّه الله تعالى على هذه الحقيقة في كتابه العزيز، حيث وجه النظر إلى ما لا يحصى من النعم التي خلقها الله رزقاً للعباد، جعلها غير مقطوعة ولا ممنوعة، يستطيعون الحصول عليها بأنفسهم، والانتفاع بها دون حاجة إلى وسيط، ولكنهم يحتاجون إلى من يعلمهم طريقة الانتفاع بها، فإذا فهموا ذلك كانوا في غنى عن أية مساعدة أخرى، وإن كان من الممكن أن يستدلوا من الكون على مراد الخالق.

نعم إن الإنسان في حاجة إلى من يهديه السبل التي تقربه إلى الله،

ولكن إذا عرف ذلك أمكنه الوصول إلى حضرة القدس بمجهوده الشخصي، فباب الله مفتوح لمن جاهد فيه. يقول تعالى: ﴿والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿وإذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لي وَليؤمِنُوا بي لَعَلَّهم يَرْشُدون﴾ [البقرة: ١٨٦]، ولذلك تُبعث الرسل، لا ليكونوا واسطة بين الله والناس، بل ليرشدوهم ويعلموهم ما يقربهم إلى الله. ولا يخفى أن الاعتقاد في الواسطة يضعف الشعور بالمسؤولية، ويقضي على روح الاعتماد على النفس. وما الغرض من الإيمان بوحدانية الله إلا غرس الأخلاق المتينة في النفوس، واستقلال الرأي، والحرية في العمل.

والحق أن الاعتقاد في وجود واسطة بين العبد وربه، أثر من آثار الوثنية، لم يخل منه أي قطر أو ملة في سالف العصور، بل تسرب إلى أهل التوحيد منذ البداية، ولم يخل منه دين سماوي في أُخريات أيامه، ولم يكن الناس يتخذون مؤسس الدين واسطة بينهم وبين الله فحسب، بل كانوا يتخذون أيضاً كل من اشتهر بعده بالتقوى والصلاح. وليس المسيح وحده هو الواسطة في المسيحية، بل يشاركه في ذلك مريم، وبطرس، والبابا، والكرادلة، بل كل قِسِّيس عادي. ولست بحاجة إلى أن أشير إلى تأثير الكهنوتية الوبيل في أوروبة. وقد كانت إنجلترة تتخبط في دياجير الهمجية والجهالة منذ بضع قرون، ولم تبدأ السير في طريق التقدم الرقي، إلا بعد أن ثارت ثائرة البرلمان الإنجليزي على الكهنة وسلطانهم.

ألم يكن النبي العربي رحمة للعالمين حين خلَّص العالم من هذه الآفة، وقرر أنه لا واسطة بين العبد وربه؟ إن الإسلام يمتاز بأنه خلا من (طبقة الكهنة) ويقرر أن كل مسلم هو كاهن نفسه. وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أول من قضى على فكرة (الشعب المختار) الذي يزعم أنه ـ

وحده ـ هو الناجي من العذاب.

وقد بشر القرآن العالم بإنجيل السلام حينما أعلن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَالَّذينَ هَادُوا والنَّصارىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالحاً فَلَهُم أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِم وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُمْ يَحْزَنون﴾ [البقرة: ٦٢]، هذه الآية القرآنية التي أعدُّها إنجيل السلام للعالم، إذ تقضي على جميع الآفات الناشئة عن اختلاف الملل والنحل، تسمو في معناها ومغزاها عما روي عن عيسى حسبما جاء في الفصل السَّادس عشر في إنجيل مرقس: «١٥ ـ وقال لهم إذهبوا إلى العالم أجمع واكْرِزوا بالانجيل للخليقة كلها ١٦ ـ من آمن واعتَمَدَ خَلَصَ ومن لم يؤمن يُدَن» وأكبر الظن أن الكلمات الأخيرة قد أوحت ما نص عليه مذهب أثناسيوس من العذاب المؤبد في النار. وهذا المذهب يعد مسؤولاً إلى حد كبير عن الظلم والاستبداد اللَّذين سادا أيام محاكم التفتيش. وقد تنبه الناس إلى ما ينطوي عليه هذا المذهب من قسوة، وطالبوا بحذف النصوص الخاصة بالهلاك المؤبد. أليس العالم مديناً لمحمد صلى الله عليه وسلم الذي أدرك العواقب الوخيمة لهذه العقائد الدالة على قصور العقل وضيق التفكير، إذ قرر أن النجاة لا تتوقف على الاعتقاد في هذا الرجل أو ذاك، بل تتوقف على صحة العقيدة؟ ولكنه قرر أيضاً أنَّ العبرة ليست بصحة العقيدة وحدها، بل بالإيمان المقرون بالأعمال، أياً كان المذهب الذي يتمسك به المرء، أو الطائفة التي ينتمي إليها، وأن الإيمان بالنبي هو الإيمان به من حيث إنه رسول، أي الإيمان بالرسالة التي جاء بها.

* * *

التوحيد الخالص

من الحقائق المعروفة التي لا سبيل لإنكارها أن محمداً صلى الله عليه وسلم، ومحمداً وحده، ولا أحد غير محمد، هو أول من قرر التوحيد

الخالص الذي لا تشوبه شائبة من شوائب الشرك. فقد قرر عبادة الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُواً أحد، بعبارة صريحة لا لبس فيها ولا إبهام. وقد كان الناس قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم يعبدون كل ما هب ودب من مظاهر الكون. يعبدون الشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، والماء، والرياح، والأشجار، والأنهار، والحجارة، وقشر البيض، وكثيراً من الناس، فجاء الرسول الكريم إلى هذه الآلهة التي هي من صنع البشر، فأتى على بنيانها من القواعد.

* * *

الغرض من التوحيد

يقرر محمد صلى الله عليه وسلم التوحيد، لا لأن إلهه يحسد غيره من الآلهة، ويغار منهم، كما شاء كاتب سفر الخروج في التوراة أن يصف ربه[5]، فإنه جل وعلا منزَّه عن هذا الوصف. فلو أن الناس أشركوا جميعاً ما ضروه شيئاً؛ ولو أخلصوا له العبادة ما زادوا في ملكه شيئاً، ولكنه قرر التَّوحيد، وأوجب الإيمان به، بقصد إصلاح الناس وتهذيب نفوسهم. فالإنسان هو خليفة الله في أرضه، ونائبه الأعظم لتحقيق الغاية العظمى من الوجود. ولما كانت هذه الغاية لا تتحقق إلا على نهج خاص هو الذي تدل عليه الأسماء والصفاة الإلهية، وجب أن تكون أفعال الإنسان وصفاته على مثال الصفات الإلهية حتى تتحقق الغاية المنشودة على الوجه الأكمل. وبهذا المعنى يجب أن نموت ونحيا على التوحيد. وهذا هو المراد بصبغة الله المذكورة في القرآن. فيجب أن نستعمل عقولنا في تدبير عالمنا الأصغر ـ وهو الجسم البشري ـ كما يدبر العقل الأعظم العالم الأكبر، إذ

(5) «لا تسجد لهنَّ ولا تعبدهن، لأنِّي أنا الرَّبَّ إلهَكَ إلهٌ غيورٌ أفتقدُ ذنوبَ الآباءِ في الأبناءِ في الجيل الثَّالث والرَّابع من مُبْغِضِيَّ...»، (سفر الخروج ٢٠: ٥ ـ ٦).

نحن متعاونون مع المدبر الأعظم بوسائلنا المتواضعة. وبناء عليه يجب أن «نسير معه باتضاع»، وبذلك يضاعف النبيُّ الكريم صلى الله عليه وسلم من اهتمامنا بالدين. فليس القصد من الدين هو حسن المآل بعد الموت أو الدُّخول في جنة الفردوس؛ بل القصد منه هو أن نعمل في كل لحظة من لحظات حياتنا على تحقيق الغاية الإلهية، التي هي في الحقيقة غايتنا. وهذه النظرة الجديدة إلى الدين، غيرت معنى العبادة تغييراً كلياً. فلم تصبح عبادة الله مقصورة على إنشاد الترانيم والصلوات - إذ أن هذه وسيلة إلى غاية - بل صارت تشمل العمل على إخراج المواهب والقوى الكامنة في الإنسان وفي الوجود، من حيز القوة إلى حيز الفعل. وقد تجلَّىٰ هذا المعنى في أول ما أمرنا الله به في قوله ﴿يا أَيُّها النَّاسُ آعبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ وَالَّذينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ، الَّذي جَعَلَ لكُمُ الأَرْضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بِنَاءً وَأَنزلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخرج بهِ مِنَ الثَّمراتِ رِزْقاً لَكُم فَلاَ تَجْعَلُوا للَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُم تَعْلَمونَ﴾، [البقرة: ٢١ و٢٢].

وكل فهم للعبادة على غير هذا الوجه - كأنْ يراد بها مثلاً استرضاء الإله، أو استجلاب نعمه - من شأنه أن يشجع فكرة الشرك، كما حدث فعلاً في سائر العالم. فهذه المحاباة الإلهية - إذا جاز لنا أن نستعمل هذه العبارة - هي أصل الشرك بالله.

* * *

الله أَحدي الذَّات

وكذلك تقرر للمرة الأولى بأجلى بيان أن الله علم على ذات قائمة بنفسها، وليس مماثلاً للبشر، وأن رضاه وغضبه ليسا انفعالين نفسيين كما هو شأن البشر، بل ينسبان إلى الله تعالى على سبيل المجاز، فإذا استوفت القوى الإنسانية غاية نموها وبلغت كمال نشأتها، دل ذلك على رضاه. وإذا

عاقها عائق عن النمو بسبب سوء أعمالنا، وقصَّرت عن الغاية، دل ذلك على غضبه.

* * *

القوىٰ الإنسانية وبراءة الفطرة من الخطيئة

لقد أتى على الناس حين من الدهر، كانوا يخطئون في فهم حقيقة القوى البشرية، فكانوا يعتقدون أن الشر لُحمتها وسَداها، وأن الطبيعة الإنسانية خلت من جميل الخصال، وكريم الخلال. وإذا كان بعض الأديان كالدين المسيحي يذهب إلى أن الإنسان قد خلق من طينة الخطيئة والشر لا غير، فبعضها يعتقد أن الحياة الإنسانية طافحة بالمتاعب والشدائد، ولا سبيل إلىٰ النجاة إلا بافناء الروح والجسم كليهما لأن العالم في نظرهم خلا من كل شيء إلا الشقاء والشر، كما سبق لي أن ذكرت. ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم قرر لأوَّل مرة أنَّ الفطرة الإنسانية كاملة بالقوة وهي حقيقة أثبتها علم الحياة في عصرنا الحاضر. وقرر صلى الله عليه وسلم أنها نقية مطهرة من لَوْثةالسوء والشر. وصرح بأن الخطيئة كسبٌ لا وهب، وأنها عَرَض حادث، لا إرثُ وارث. وقد صرح القرآن الكريم بأنَّ الطبيعة البشرية قابلة للترقي الذي لا حد له، ولكنها مستعدة للتدلي كذلك. فالإنسان يستطيع أن يسمو إلى أعلىٰ علِّيين، كما يستطيع أن يهوي إلى أسفل سافلين، وقد جاء الدين المحمدي ليحقق الأُولىٰ، ويمنع الأُخرىٰ.

* * *

مشكلة الخير والشَّر

كانت مشكلة الخير والشر لغزاً كبيراً لا يحل، وقد نجم عن الخطأ في فهم هذه المشكلة، أن ظهرت أفكار خاطئة أدت إلى ظهور مذاهب خلقية متضاربة، كما نجم عنها فساد كبير في الأخلاق، وضعف في

الشعور بالمسؤولية. فمثلاً نتج عن نظرية انتقال الخطيئة بالوراثة، وغيرها من النظريات المشابهة الكثيرة، أن استحال الإنسان إلى آلة صماء من آلات الشر، لا حول له، ولا قوة، ولا اختيار(6)، ولكن نبي الإسلام بسط هذه المشكلة، وقربها إلى الإفهام، فقرر أن الله سبحانه وتعالى هو مصدر الخير كله، كما قال تعالىٰ في كتابه العزيز ﴿مَا أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النساء: ٧٩]، فالطبيعة الإنسانية نقية كاملة، وسوء استعمال الأشياء هو الذي يولد الشر، فالأفيون والزرنيخ (الرَّهَج الأبيض) إذا استعمل كل منهما في الأغراض التي خلق لها، كان خيراً ونعمة، وإن أُسيء استعماله كان شراً ونقمة؛ بل إن خيرالنعم الإلهية في أفق العين الإنسانية الضيق، تصبح ضارة إذا أفرط الإنسان في استعمالها. والنَّار التي تجلب للإنسان الراحة والسعادة، تدمر كل شيء أتت عليه، إذا سَهَا الإنسان أو أهمل، فأساء استعمالها.

وكذلك الإفراط في شرب الماء، وهو شراب غير ضار، يؤدي إلى مرض الاستسقاء، كما أن الإفراط في الطعام يؤدي إلى سوء الهضم، وما يتبعه من الأمراض الذي لا عدَّ لها. ولكل شيء قدر ووقت معلوم، فإذا تجاوز قدره، أو استعمل فيما لم يخلق من أجله، انقلب من خير إلى شر. فالدواء المُسْهِل ضد الدواء القابض، فأيهما خير وأيهما شر؟ لا ريب أن كليهما يأتي بفائدة جُلَّى إذا استعمل في وجهه الصحيح، وكلاهما يؤدي إلى ضرر بالغ إذا تجاوز حده، أو أخطأ وقته. وجملة القول أنَّ كل شيء إذا

(6) موقف إبليس: ﴿قَالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقعُدَنَّ لَهُم صِراطَكَ المُسْتَقيمَ﴾، (الأعراف ١٦)، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْـوَيتَني لأُزَيِّنَنَّ لَهُم في الأَرْضِ وَلأُغْوِينَّهُم أَجْمعينَ﴾، (الحِجْـر ٣٩). وهي عقيدة إجبار.

وموقف الأنبياء عليهم السَّلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغفِرْ لي فَغَفَـرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحيمُ﴾، (القصص ١٦)، وهي عقيدة اختيار.

استعمل بالقدر الموزون فخير، وإذا حدث خطأ في استعماله أو تطبيقه فشر. ويوجه القرآن الكريم نظرنا إلى هذا المبدأ الأساسي، مبدأ القدر الموزون والحد المعلوم، الذي هو ميزان الكون كلِّه، في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمٰنُ، عَلَّمَ القُرآنَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ البَيانَ، الشَّمْسُ والقَمَرُ بِحُسْبانٍ، والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَانِ، وَالسَّماءَ رَفَعَهـا وَوَضَع المِيزانَ، أَلَّا تَطْغَوا في المِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا المِيزَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٩].

* * *

الأُخوة العامة

لا غنى للإنسان عن المجتمع، كما لا يستطيع أن ينعم بالسعادة من دونه. فللإنسان حاجات ومآرب كثيرة، يعجز عن قضائها بمحض مجهوده الشخصي، فكان لا بد للفرد من أن يجتمع بأبناء جنسه، ليتعاونوا جميعاً على قضاء حاجاتهم. ومن ثم وجب أن يكون الفرد في خدمة المجتمع، والمجتمع في خدمة الفرد. وإذا لم نكبح جماح الأَثرة في نفوسنا، جلبت علينا كثيراً من الأضرار، وخلقت لنا كثيراً من المتاعب. فالظلم، والاضطهاد، والجرائم، والأضرار، والمنازعات، والحروب، كل أولئك نتيجة للتضارب الغريب بين غريزة الأثرة، وغريزة الاجتماع، المركوزتين في الطَّبيعة الإنسانية.

ولذا يجب أن نضحي ببعض رغباتنا في سبيل غيرنا، وأن نغرس في نفوسنا روح الأُخوة، لنهذب فيها غريزة الأثرة. ولا أعدو جانب الحق إذا قلت إن محمداً صلى الله عليه وسلم قد وفق في الاهتداء إلى العلاج الصحيح لهذا الداء، فقد وضع أُسس الأُخوة العالمية، ونجح في تثبيت دعائمها في خلال حياته. وبهذا النظام استطاع أن يشفي بلاد العرب من أدوائها.

ولأول مرة في التاريخ تلقى العالم من محمد صلى الله عليه وسلم تلك المباديء الواسعة الأفق، التي تساعد على توطيد دعائم الأخوة بين شعوب العالم قاطبة (7). وقد كان عيسى عليه السلام تخالجه هذه الرغبة، ولكنها ظلت حلماً من الأحلام. ولم يحدث قط في تاريخ المسيحية ما يدل على وجود روح الأُخوة العالمية. ولكن الإسلام شاهد تلك الأُخوة التي جمعت بين الكبير والصغير، والغني والفقير، والأبيض والأسود، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً، إنَّ العالم يسير اليوم نحو الوحدة العالمية، وإذا قدَّر لهذه الوحدة أن تصبح حقيقة واقعة في يوم ما، فلن تقوم إلا على المباديء الإسلامية. وفي هذه المناسبة يجدر بي أن أشير إلى مذهب المسلمين في الألوهية، كان الإله ـ قبل الإسلام ـ إلهاً قَبَلياً في كل مكان سواء في الغرب والشرق، فكان يُعرف بأنه إله إبراهيم ويعقوب، وكان يعرف بأنه «مزدا» الأسلاف المشهورين في فارس؛ ولكن القرآن يحدثنا عن «رب العالمين» ومعناه الإله الذي خَلَقَ كلَّ العوالم، وكلَّ الأمم والأجناس، وكفل لهم الرزق، وهيأ لهم أسباب الحياة، دون تمييز بين إنسان وإنسان.

إنَّ العالم اليوم يُلح في طلب السلام، ولكن السلام لا يزال بعيداً. وقد وضعت الحرب الكبرىٰ أوزارها لتمهد السبيل إلى حرب أخرى أشد هولاً، قد يستعر أُوارها في أي وقت، فتأتي على الأخضر واليابس. ولكن لا سبيل إلى السلام إلا إذا أحب كل إنسان لأخيه ما يحب لنفسه، وتوطدت روح الإخاء الصحيح بين الناس، على اختلاف الألوان والأجناس.

إذهب إلى مكة تشاهد رواية الإخاء تمثَّل في موسم الحج، تلاشت حواجز الفوارق التي أقامها الإنسان، وسكنت ريح الأهواء، الَّتي أثارتها

---

(7) ﴿يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أكرمَكُم عِنْدَ اللهِ أتقاكُم إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، (الحجرات ١٣).

الأجناس والألوان. وظهر الناس على اختلاف مراتبهم، بلباس واحد، لا فرق بين الدَّهمـاء والأعيان. ولا تسمـع في هذه الجمـوع الحاشـدة على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم إلا قول بعضهم لبعض حسب السن: يا بُنَي ويا أبتاه، يا أخي ويا أختاه، يا بنيتي ويا أُمَّاه! كل يسعى في خدمة أخيه، ويأبىٰ أن يأخذ عوضاً عما قُدِّم إليه، كل يبذل ما عنده ليعطيه لأخيه. كل يفرح إذا خلت ذات يده ليغْنى فاقة أخيه. وما كان للأثرة أن يرتفع لها صوت في هذه الظروف. ويستمر هذا المشهد ـ مشهد الإخاء الصحيح في مكة ـ خمسة أشهر على الأقل في كل عام، حتى لقد سُميت مكة بحق مدينة السَّلام... [حذفت هنا بضعة أسطر، حول من المسؤول عن تعكير صفو العالم الإسلامي سنة ١٩٢٥م، وقت تأليف الكتاب].

* * *

الوحدة العالمية

لقد وضع محمـد صلى الله عليه وسلم أسـاس الوحـدة العالميـة، وأعلن لأول مـرة في التاريـخ أن جميـع الأديـان جـاءت من عنـد الله في البداية، وأن الله بعث النبيين في كـل أمة، وأنـه ما من أمـة إلَّا خلا فيهـا نذير[8]. ثم أوجب على المسلمين أن يؤمنوا بأنبيـاء الله، لا يفرقـون بين محمد وغيره من الرسل[9]. وقرر أن جميع هؤلاء الأنبياء جاؤوا من عند الله بدين واحد. ولكن خَلَف بعدهم خلْف بدَّلوا وغيَّروا في الدِّين، مما أدى إلى الخلاف بين الأديان[10].

---

(8) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، (فاطر ٢٤).

(9) ﴿.. لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْـرَانَكَ رَبَّنَـا وَإِلَيْكَ المَصِيـرُ﴾، (البقرة ٢٨٥).

(10) ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا=

ولكنهم جاؤوا جميعاً بالحق في بداية الأمر، وشربوا من منهل واحـد، وأنَّى يكون الأمـر بخلاف ذلـك، والناس جميعـاً مخلوقون لـرب واحد. وهل يُتصور أن يَمُن الله على أمة بالغذاء الـروحي، ويترك أخـرى تموت جوعاً، وقد اقتضت حكمته أن يسوى بينهما في المطالب الجسمية؟ كلا! فمقتضى العناية الربانية الشاملة أن يبعث في كل أُمَّة رسولاً، ولا سيما في تلك العصور التي تعذرت فيها وسائل الإتصال بين الأُمم، فلا تستطيع أمة أن توصل إلى غيرها ما وصلها من الوحي الإلهي، لا بل كانت كل أمة بمعزل عن الأمم الأُخرىٰ، بسبب ما بينها من الحواجز الطبيعية والصناعية. ولهذا أرسل الله في كل أمة نذيراً.

على أن الأوضاع الراهنة قد ساعدت على التقريب بين شعوب العالم، واتصال الديانات والثقافات بعضها ببعض. ولكن كل طائفة تتشبث بأهداب مذهبها الخاص، ويأبى الناس قاطبة أن يسيروا في طريق واحد. وإذاً لا يجدُر بهم أن يعترفوا بالمبدأ القائل بأن الأديان الكبرى جاءت كلها من عند الله؟ إن مثل هذا المبدأ إذا أتفق عليه يؤدي إلى التفاهم المتبادل بين الشعـوب، ويقضي على ضيق الأفق في التفكيـر، ويخفف من حـدة التعصُّب الديني الذي يهيج نار العداوة بين الأمم. إنَّ مثل هذا المبدأ في مصلحة السلام، وقـد دعا محمـد عليه الصـلاة والسلام إلى هـذا المبدأ السليم، مبدأ الوفاق والوئام بين جميع الشعوب. نعم إنه يعتبر الآن قضية مسلماً بها. ولكن العالم كان يحتاج في البداية إلى نطق إلهي على لسان رسول من الرسل، تأييداً لهذا المبدأ، حتى يحظى بالقبول عند الجميع. إن الدين عامل كبير من عوامل الوحدة بين الأمم، وأكبر ما يرمي إليه هـو

= وَإِنْ يأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤخَذْ عَلَيْهِم مِيثَاقُ الكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأعراف ١٦٩).

بث روح الوفاق بني الشعوب المتنافرة. ولم يكن العالم في يوم ما أحوج إلى هذا الوفاق منه في الوقت الحاضر. أمَا يحق لنا إذاً أن نقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم قد جاء برسالة حقة وإنه رسول من عند الله حقاً؟

***

كلُّ الأنبياء معصومون

إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه يذهب إلى أبعد من ذلك، فيمجد غيره من الأنبياء، ويدفع عنهم ما ألصقه بهم منقصوهم، وينفي المفتريات والمطاعن التي وجهت إليهم، وإنه لمن دواعي الأسف أن كثيراً من الناس يحاولون أن يرفعوا من شأن أنبيائهم، بالحط من قدر غيرهم. ولعل المبشر المسيحي هو أعظم الناس وِزْراً في هذا السبيل، حتىٰ إنَّ أنبياءه لم يسلموا من لسانه. وإني لأعترف بالعجز عن فهم عقليته، فبينما تراه يؤمن بنبوة كثير من أنبياء بني إسرائيل، إذا به يعدِّد ما اقترفوا من ذنوب وآثام، وبذلك يقدح عرضاً فمن قال عنهم الكتاب المقدس «إنهم يسيرون مع الرب باتضاع، وإنهم أبناؤه المولودون منه»، فبربك حدثني: أي إله هذا الذي يؤمن به هؤلاء المبشرون الكاذبون، الذي يصطفى لرسالته أمثال هؤلاء الآثمين الأشرار، ليكونوا قدوة للناس؟

ولكن الدوافع التي تدفع هؤلاء الذين ينتقصون «زمرة الأنبياء الأطهار» لا تخفي على أحد، فإن تأليه المسيح لا يتم في منطق هؤلاء الحمقى إلا بالانتقاص من قدر غيره، فلذلك سلقوا الجميع بألسنة حداد، تأييداً لهذا المظهر الغريب من الحب الإلهي، إله أحب عبيده حباً جماً إلى درجة أنه بذل دماء ابنه ليخلص البشرية!!

ثم اتهموا خصومهم بأنهم عصابة من (اللُّصوص والنَّشالة)، ونَبزُوهم بغير ذلك من الألقاب اللاَّذعة، ولكنَّ خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه

عليه جاء ليبرىء هؤلاء القوم الكرام مما نسب إليهم، فأكبر من قدرهم جميعاً، وصرَّح تصريحاً عاماً بأن جميع الأنبياء - حيثما كانوا - عدول أبرار، معصومون من الذنوب. ثم خص كلًّا منهم بالثناء، الَّذي قضى على كل افتراء، فصرح بصدق إبراهيم ويوسف عليهما السلام، وقد غمزهما الكتاب المقدس في صدقهما، ونزه لوطاً عليه السلام مما نُسب إليه من السوء(11). ولا يستطيع أحد أن يجادل في مبلغ ما يدين به عيسى عليه السلام في هذا المعنى إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه، فقد محا القرآن بكلمة واحدة، ما علق في أذهان اليهود الذين استدلوا على كذب ما ادعاه، بما ورد في الفقرة الثانية في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر تثنية الاشتراع. ولكن القرآن يسمي عيسى روح الله، ويقرر أنه بريء من مسِّ الشيطان. وبذلك نزه أخلاق مريم، ومولد عيسى، عن كل شَين وعيب.

* * *

(11) في سفر التكوين ١٩/ ٣٠ - ٣٧: وصعد لُوطٌ من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه، لأنَّه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كلِّ الأرض، هَلُمَّ نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أنَّ البكر قالت للصغيرة: إنِّي قد اضطجعتُ البارحة مع أبي، نسقيه خمراً اللَّيلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه، فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك اللَّيلة أيضاً، وقامت الصَّغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم، والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بن عَمِّي، وهو أبو بني عَمُّون إلى اليوم.

وفي القرآن الكريم (الأنعام ٨٦ و ٨٧): ﴿وَإِسمَاعِيلَ وَاليَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلًّا فَضَّلنا عَلَى العَالَمِينَ، وَمِنْ آبائِهِم وَذُرِّيَّاتِهِم وَإِخْوانِهِم وَاجْتَبَيْنَاهُم وَهَدَيْناهُم إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وفي سورة الأنبياء ٧٤ و ٧٥: ﴿وَلُوطاً آتيناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيناهُ مِنَ القَرْيَةِ الَّتي كَانَت تَعْمَلُ الخَبائِثَ إِنَّهُم كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقينَ، وَأدخَلْناهُ في رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالحينَ﴾.

التَّسامح الدِّيني الكامل:

ولأول مرة في التاريخ نادىٰ محمد صلى الله عليه وسلم بأنه: ﴿لا إِكْراهَ في الدِّين﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وعمل بمقتضى هذا المبدأ! واحترم الاختلاف في الرأي، وشجع الاجتهاد في الدين، وأباح الحرية الدِّينية. وقد كان الاعتقاد بأن كل إنسان مسؤول أمام الله وحده عن عقيدته الدينية أمراً لا عهد للناس به حتىٰ ذلك الوقت. والتاريخ حافل بذكر الحروب والإضطهادات الدينية، والعالم المسيحي كان ولا يزال مسرحاً لأسوأ ضروب الاضطهاد من جراء التعصُّب الديني، وبذلك كان العالم ـ من هذه الناحية ـ بحاجة إلى من يصلح أمره، فجاء محمد صلوات الله وسلامه عليه، فلم نعد نسمع في الإسلام باضطهاد أمثال جاليليو أو لاتيمر وغيرهما[12]. نعم إن المسلمين يُشَدّدون النكير على البدع الدينية، ولكنهم لا يعاقبون عليها. ولو أن الزمن تقدم بدين إنج مئة عام لقُدم للخازوق بتهمة الزيغ والضلال، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم يقرر أن كل إنسان مسؤول أمام الله وحده عن معتقداته الدينية، وليس لإنسان الحق في أن يُحقق معه، أو يضطهده بسبب ما انعقدت عليه سريرته، ثم يحرم الاضطهاد الديني، فيقرر أن الإنسان لا يعاقب في الدنيا على عدم إيمانه أو خطأ اعتقاده، وإنما يعاقب في الآخرة، وأنه ليس مسؤولاً في هذه الدنيا إلَّا عن أعماله الظاهرة، وبذلك دعا إلى التسامح الدِّيني الذي لم يكن للناس عهد به، بل إن الكنيسة لا تزال تنكره حتىٰ اليوم، كما يدل على ذلك مذهب أثناسيوس. هذا ومحمد صلى الله عليه وسلم يضع التسامح الديني العام موضع التنفيذ، فهو يحمي أرواح أهل الديانات الأُخرى وأملاكهم، مثلهم في ذلك مثل المسلمين، ثم يسمح لهم باتباع

(12) من العلماء الذين حُرِّقوا أو اضطهدوا بسبب أبحاثهم العلمية.

دينهم، والمحافظة على شعائرهم الدينية، ويمنح المسيحيين امتيازات. ولم يحدث قط أن ديناً فاتحاً أعطى لرعاياه من الضمانات ما هو أكرم مما ورد في هذا العهد الذي أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نَجران[13] فيما يلي:

«ولنجران وحاشيتها[١] جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله، علىٰ أموالهم وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبِيَعهم[٢]، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يُغَيَّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن[٣] من كهانته، وليس عليهم دنية، ولا دم جاهلية ولا يُحشرون[٤]، ولا يعشَّرون[٥] ومن سأل منهم حقاً فبينهم النَّصَف[٦] غير ظالمين ولا مظلومين».

وقد منح المجوس في بلاد العرب امتياز مماثل. ونقتطف هنا بضع فقرات من كتاب[٧] النبي صلى الله عليه وسلم إلى فَرُّوح بن شخسان، رئيس أحد معابد النار:

(13) نَجْرَانُ: مدينة في شمالي اليمن على حدود عسير، وفي معجم البلدان ٢٦٦/٥: نجران في مخاليف اليمن من ناحية مكّة، ونجران الباب: الخشبة التي يدور عليها.

(١) حاشيتها: أي أطرافها.

(٢) البيع جمع بيعة وهي الكنيسة.

(٣) الكاهن عند اليهود والنصارى من يقدم الذبائح والقرابين، والكهانة حرفة الكاهن.

(٤) لا يحشرون أي لا يندبون إلى المغازي، ولا تضرب عليهم البعوث.

(٥) لا يعشرون أي لا يؤخذ منهم العشر، [في الزكاة].

(٦) النصف والإنصاف إعطاء الحق.

(٧) (المعرب) هذه الفقرات مقتطفة من نسخة عهد نشرها حمشيدجي جيجي بهائي نيت من أعاظم مجوس الهند سنة ١٢٢١ اليزدجردية الموافقة سنة ١٨٥١ م. وهذه الوثيقة تفتقر إلى إثبات، ولم يرد ذكرها في كتب التاريخ. ولعل الدليل على أنها مكذوبة أنها سقيمة الأسلوب.

«هـذا كتاب من رسـول الله صلى الله عليه وسلم بمهـدى فروح بن شخسان أخي سلمان الفارسي رضي الله عنه، وأهـل بيته من بعـده، وما تناسلوا من أسلم منهم، أو أقام على دينه. . .

وهذا كتابي أن له ذمة الله، وعلى أبنائه، وعلى دمـائهم وأموالهم، في الأرض التي أقـاموا عليهـا، سهلها وجبلهـا، وعيونهـا ومـراعيهـا غيـر مظلومين ولا مُضَيق عليهم. ومن قرىء عليهم كتابي هذا، فليحفظهم (أي المجـوس) ويبـروهم، ويمنـع الـظلم عنهم، ولا يتعـرض لهم بـالأذى والمكروه».

ولأهل الذِّمة[1] في الإسلام ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، كمـا قال علي كرم الله وجهه «دماؤهم كدمائنا». وقد ظلت روح التسامح هـذه مرعية في كلِّ مكان في ظل الحكم الإسلامي حين كان في إبَّان سطوته. ففي عهد الخليفة الأول [أبي بكر الصِّدِّيق] كتب قائده ـ خالد بن الوليد ـ كتاباً للنصارىٰ أَمَّنهم فيه على أنفسهم، وحريتهم وأموالهم، وصرح فيهم أنهم «لا يُمنعـون من ضرب النـواقيس، ولا من إخراج الصلبـان في يـوم عيدهم» وأَقرَّ الخليفة هذا الصلح. وبعد فتح مصر أبقى الخليفة عمر رضي

(١) يطلق على رعايا الدول الإسلامية من غير المسلمين اسم أهل الذِّمة، وهذه الكلمة حافلة بالمعاني، فهي تدل على الأمان الذي يتمتع به غير المسلم في ظل الحكم الإسلامي.
ومعنى أهل الذمة أهل العَقْد الذين يعيشون في دار الإسلام في أمـان أي أن كل مسلم مسؤول عن سلامة أرواحهم وحريتهم وأملاكهم.
(المعرب) عقد الذمة هو عقد يتولاه الإمام أو نائبه من جـانب، والذِّمي من جـانب آخر على أن يترك كل من الجانبين القتال مؤبـداً. والآثار التي تتـرتب على هذا العقـد هي عصمة النفس لقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾، إلى قـوله: ﴿حَتَّى يُعْـطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَـدٍ وَهُمْ صَاغِـرونَ﴾، [التوبـة: ٢٩]، وعصمة المـال لأنها تـابعة لعصمـة النفس. وعن سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال «إنما قبلوا عقـد الذمـة لتكون أمـوالهم كأموالنا، ودماؤهم كدمائنا».

الله عنه على الأوقاف المحبوسة على الكنائس المسيحية، ولم يتعرض لها بشيء، وظل يدفع الرَّواتب التي قررتها الحكومة السابقة لـرجال الـدِّين. وفي عهد عثمان رضي الله عنه شهد بَـطْريق مَرُو المسيحي في كتـابه إلى أسقف فارس بروح التَّسامح عند المسلمين.

* * *

مشروعية القتال

ولأوَّل مرةٍ في التَّاريخ، بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم للنَّاس وجه الصواب في استعمال السيف. وقد دلَّ تاريخ الأديان وغير الأديان على أن الحسام لم يستقر في غمده، في يوم من الأيام. وقد امتشقه أنبياء الهندوس واليهود، فلا الشريعة اليهودية، ولا الشريعة الهندوكية، تنطوي على حب السلام. وقد صرح «أمير السلام» أيضاً [يعني السيد المسيح] أنـه جاء لا «ليُلقي على الأرض سلاماً، لكنْ سيفاً»، [متىٰ: ١٠/٣٤]، وجاء «ليكمل الناموس والأنبياء» [متىٰ: ٥/١٧]، وكانت أحكام دينه تسمـح باستعمـال السيف[14]، وقـد شن أتباعـه الحرب. والـواقع أنـه لو كـانت سنحت له الفرصة المناسبة، للجـأ إلى السيف. ولكنَّ الفرصـةَ لم تتهيأ. وإذا كـان

---

(14) حارب شارلمان السكسونيين ثلاثاً وثلاثين سنة بوحشية وعنف، حتى أخضعهم قسراً وبـالسَّيف إلى المسيحية (تـاريخ أوربـة في العصـور الـوسـطى (فيشـر) ١/٦١، وفي الدنمارك نشر الملك كنوت Cnut المسيحية في ممتلكاته بالقوة والارهاب، (الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد ص ٣٠)، وفي روسية نُشِرت المسيحيَّة على يد جماعة اسمها: إخـوان السَّيـف (Bretheren of the Sword)، وفـي النـروج قـام الـملك (أُولاف ترايجفيسون) بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول في المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم أو بنفيهم وتشريدهم.. ولن نتحدَّث هنا عما ارتكبه المبشرون المسيحيون الذين رافقوا رحـلات الكشوف الجغـرافية من أبشـع الأعمال الَّتي لا تليق بـإنسان، والَّتي كـان من نتائجها إبادة شعوب كاملة في الأمريكتين وأسترالية، ولكن في الحاشية التالية فكرة بسيطة عن ذلك.

بُطرُس قد نهى عن اخترا‌ط السيف، فلأن الـوقت لم يكن ملائمـاً، ولأن استعمال القوة كان من شأنه أن يجلب البلاء عليه، وعلى أتباعه. زد على ذلك أن ما لم يفعله عيسى بنفسه، قد فعله أتباعه على الوجه الأتم. وقد تحقق ما تنبأ به من شر مستطير، فإن المسيحيين يصرفون الشطر الأكبر من ثروتهم وذكائهم في اختراع الوسائل التي تؤدي إلى إطلاق السَّيف، وإيقاد نار الحرب في العالم، لا سعياً وراء غاية إنسانية نبيلة، بل إرضاءً لشهـوة البغي والعدوان، وطمعاً في السَّلب والنَّهب[15].

على أني أقـول إن امتشاق الحسـام قـد يصبـح أحيـانـاً من أسمى الواجبات الإنسانية، فإن الإنسان لا يمكن أن يكون مرتاح الضمير إذا وقف مكتوف اليدين، يتفـرج على انتهاك حـرية شعب مـظلوم، أو إذا تعرضت الحرية الدينية إلى الأخطار. على أنه كثيـراً ما تَعْـرض في الحياة مـواقف يصبح استعمال السَّيف فيها ضرورة ملجئة، ولكن الناس كثيراً ما يسيئـون استعمال السلاح، ولـذلك كـان حقاً على النبي الـذي أرسله الله أن يبين للناس الظروف التي يحق فيها استعمال السَّيف.

ولقد كان عيسى عليه السلام على استعداد لإطلاق السيف والنار في

(15) جاء في كتاب «تبدُّد أوهام قسيس» لفرانز غريس «Franz Griese»، [مطبعة دار الطباعة ـ الضياء ـ بوينوس أيرس ـ الأرجنتين]:
ـ في أمريكا الجنوبية حمل المبشرون الصَّليب بيـد محمول ومـرفوع، وبـاليد الأُخـرى السَّيف مصلوت ومشهور، فقد أرغموا وأكرهوا وأجبروا وألزموا الهنود الحمر سكان البلاد الأصليين على اعتناق الدين الرسولي الروماني. إن أُمماً كبرى ذوات ثقافات زاهية باهرة قد أُزيلت وأُبيدت ومُحيت ببساطة وبسهولة من عالم الوجـود، وكل ذلـك باسم الـدين النصراني، إن تاريخ الأمم النصرانية، وأكثر من هذا تاريخ الكنيسة بالذات فهو مضرَّج بالدماء وملطَّخ، ولربما أكثر تضرجاً وتلطخاً ودماء من أي شعب وثني آخر من العالم القديم، فالحسام الرفيق الأوحد للصَّليب أينما سار وحل ومشى وارتحل.

العالم، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم اضطر إلى ذلك، فأباح استعمال السيف في المواطن الثلاثة الآتية:

١ ـ انقاذ البيوت المخصصة لعبادة الله من الدمار، سواء أكانت صوامع أم بِيَعا أم صلوات أم مساجد: [﴿ الَّذينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهم بِغَيْرِ حَقٍّ إلاَّ أَنْ يَقُولوا رَبُّنا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِمَتْ صَوامِعُ وبيعٌ وصَلواتٌ وَمَسَاجِدُ يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً ﴾]، [الحج: ٤٠].

٢ ـ إقرار الحرية الدينية. ويقضي القرآن بأن لكل إنسان الحق في أن يختار لنفسه ما يدين به. وليس له الحق في أن يفرض معتقداته الدينية على غيره باضطهاده، أو بغير ذلك من الوسائل. ومن فعل ذلك وجب على المسلم أن يقاتله، حتى ولو كان المعتدى عليه يهودياً أو نصرانياً، وكان المضطهد مسلماً: [﴿وقَاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونكُم وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ الله لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ، وَاقتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُموهُم وأَخرِجوهُم مِنْ حَيْثُ أَخرَجُوكُم والفِتنةُ أشدُّ مِنَ القَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُم عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فإن قَاتلُوكُم فاقتلُوهُم كذلك جَزاءُ الكافرين، فإن انتهوا فإنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَقَاتِلُوهُم حتَّىٰ لا تكُونَ فِتنَةٌ ويكونَ الدِّينُ للَّهِ فَإِنِ انْتَهَوا فَلاَ عُدْوانَ إلاَّ عَلَىٰ الظَّالمينَ ﴾]، [البقرة ١٩٠ ـ ١٩٣].

٣ ـ في حالة الدفاع عن النفس: [﴿ أُذِنَ للَّذينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِم لقدير ﴾]، [الحج: ٣٩].

ولكن يجب على المسلم في كلِّ حالة من هذه الحالات أن يوقف القتال إذا جنح الخصم إلى السلم. ويُستدل من العهد القديم على أن بعض أنبياء بني إسرائيل استلوا السيف في سبيل قضية مشكوك في عدالتها، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقاتل في سبيل الحق

والعدل، بيد أن أهل الغرب قد تسممت أذهانهم بالمطاعن المغرضة التي وجهت إلى الإسلام، حتىٰ عَمُوا وَصمُّوا عن الحق.

* * *

المساواة بين الناس ورفع شأن المرأة

لقد أدت عقيدة التوحيد الخالص إلىٰ تقرير حقيقتين (الأُولىٰ) أَنَّ النَّاس سَواسِيَة، (والأُخرىٰ) أَنَّ الكون مسخر للجنس البشري كلِّه، فأما الحقيقة الأُولى فقد نشأ عنها كافة المبادىء الديمقراطية الصحيحة النافعة، وأمَّا الأُخرى فقد أدت إلى تشجيع البحوث العلمية، فأما الروح الديمقراطية الإسلامية فحقيقة معروفة للجميع. ولكن سأقصر كلامي هنا على ما أصاب المرأة من خير ونعمة على يد النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

كان الناس يعاملون المرأة قبل الإسلام كأنها متاع من أمتعة البيت، ولم يحدث في أي دين أو شعب متمدن قبل الإسلام أن تمتعت المرأة بالمكانة اللَّائقة التي تعتبر حقاً طبيعياً لها، بل كانت تعتبر شراً لا بد منه، ولكنها لقيت على يد المسيحية أسوأ معاملة. والواقع أن قصة الفتنة المذكورة في سِفْر التكوين [16]، التي أنبنت عليها العقيدة الأساسية في الدين المسيحي، قد أضرت بمركز المرأة ضرراً بليغاً.

ويعتبر موقف الإسلام وموقف المسيحية من المرأة على طرفي نقيض، فقد رفعها الإسلام من الدَّرْك الأسفل إلى مستوىٰ يكافىء مستوى الرجل، بينما كبَّلتها النَّصرانية في أغلال الرِّق، في الوقت الذي بدأت تتخلص منه على يد المدنية الرومانية التي كانت تكافح في سبيل رفع

---

(16) سفر التكوين ٣/١٧: وقال لآدم لأَنك سمعت لقول امرأتك وأكلتَ من الشجرة الّتي أوصيتك قائلًا لا تأكل منها ملعونة الأَرض بسببك، بالتَّعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل..

مركزها، ولكن المسيحية جاءت كالعاصفة الثلجية، فقضت على تلك الجهود في المهد. وهذا القول ـ وإن كان صحيحاً من الوجهة التاريخية ـ سيدهش كثيرين ممن اعتادوا أن يصدقوا ما يزعمه الكتاب المسيحيون خلاف ذلك.

ولكن إذا كان المسيح نفسه ـ على ما يبدو ـ لا يبالي بالمرأة، وإذا كان التابعون الأولون الذين شادوا صرح الكنيسة، وحل فيهم روح القدس ـ كما يزعمون ـ لم يفعلوا شيئاً يؤدِّي إلى إصلاح شأن المرأة، بل رموها بكل نقيصة، وعاملوها معاملة شائنة، وإذا كانت الدول المسيحية قد استمرت تعاملها على هذا النحو عدة قرون حتَّى أمس القريب الذي بدأت فيه المرأة تثبت وجودها، فكيف يسوغ لهم القول بأن المسيحية قد أحلت المرأة منزلاً كريماً؟

أما الشريعة اليهودية فلم تكن في صالح المرأة إذ أن الحكم الإلهي الذي نصه: «وإلى رَجُلكِ يكون اشتياقُك وهو يَسُودُ عليك» [التكوين: ٣ ـ ١٦]، قد أنزلها منزلة متاع البيت، وكذلك كان حالها في المجتمع اليهودي.

ومن جهة أخرى، يجب ألا يغرب عن البال أن عيسى عليه السلام لم يأت «لينقض الناموس بل ليتممه» (17) وقد كان يعبر عن استهجانه لكل ما يرى فيه مساساً بالناموس، ولكن صمته في حق المرأة يدل على أنه لم يفكر قط في إصلاح حالها، مع أن إنهماك قومه في الملذات والشهوات أضر بالمرأة ضرراً كبيراً.

---

(17) «لا تظنُّوا أنِّي جئت لأنقض النَّاموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأُكمل»، (متَّى ٥/١٧).

كانت الوثنية مصدر فكرة الإله المتألِّم، وفكرة المخلِّص المصلوب، ثم ساعد الحادث المحزن الذي وقع للمسيح في حياته، على إدماجهما في المسيحية. وكانت أسطورة الفتنة في سفر التكوين بمثابة حلقة جميلة وصلت بين الفكرتين، فهي التي أوحت نظرية زلة آدم، وزلة الجنس البشري بسببه - وهي نظرية لا يعرفها اليهود إطلاقاً ولا يسلمون بها الآن - ولكن ابتكرها كتاب رسائل القديس بولس تعزيزاً للنظرية الوثنية التي تذهب إلىٰ الفداء بالدم. وإلى هنا تبدو الفكرة جميلة ولكنها لم تعد بأية فائدة على المرأة، بل إن مسؤولية الهلاك الذي حلَّ بالإنسان بسبب هذه الخطيئة الأُولى، قد وقعت كلها على رأس المرأة.

«إن آدم لم يُخدع، ولكن المرأة خُدعت، فوقعت في المخالفة»، ومن ثم سقطت المرأة من أعين الَّذين يعدون هذه الكلمات من كلام الله، ويؤمنون بزلة آدم. وهذا يفسر لنا الخطة القاسية الَّتي اتخذها الآباء الأولون، وبناة الكنيسة الحقيقيون، إزاء المرأة، مترسمين في ذلك آثار القديس بولس. والواقع أن ما لقيته المرأة من الهوان على يد هؤلاء الآباء، يعد نتيجة منطقية للمعتقدات المسيحية. وإليك مثلاً واحداً منها ما يقوله ترتليان مخاطباً النساء: «أما تعلمن أن كل واحدة منكن حواء؟ إنَّ حكم الله على جنسكن لا يزال قائماً في هذا العصر، والجريمة، بحكم الضرورة لا تزال قائمة. أنتن باب الشيطان! أنتن الآكلات من الشجرة! أنتن أول من خالف الشريعة الإلهية! أنتن اللائي هدمتن صورة الله بمثل هذه السهولة!».

إن حماة المسيحية من أهل الثقافة الحديثة، قد يرون في هذه «المطاعن المقدسة»، الصادرة من هذا الأب شيئاً من الشطط والعنف المأثور عن أهل القرون الوسطى، ولكنهم لا يستطيعون أن ينكروا عقلاً أن

لها سنداً من المنطق الصحيح الَّذي يسهل إدراكه، لأنه إذا كان المسيحيون يعتقدون ـ ولا يزالون يعتقدون حتى اليوم ـ أن الخطيئة موروثة، وأن عقابها هو العذاب المؤبد، كانت التبعة في هذا العذاب تقل على عاتق المرأة، لأنها هي التي فتحت باب البلاء على البشرية. «إن المرأة هي مطية الشيطان»، وهي «العقرب الذي لا يتردد قط عن لدغ أي إنسان» وهي «الأفعى التي تنفثُ السم الزُّعاف» وهي «اللعاب الذي يسيل من فم الأفعوان». هذه بعض البركات التي فاضت على المرأة من رجال لهم شأن كبير في الكنيسة، كالقديس برنار، والقديس أنتوني، والقديس جيروم، والقديس سيبريان، والقديس بولس الذي يعد في نظري أبا عُذْر هذا القول. ولعل السبب في حقده على المرأة أنه خطب فتاة يهودية فأبت أن تتزوجه. وكانت هذه الفتاة بنت الكاهن الأكبر. قل ما شئت! فإنه إذا كانت عقيدة الخطيئة الأصلية هي الحجر الأساسي في المسيحية ـ إذ ليس الاعتقاد في الكفارة، وألوهية المسيح إلا نتيجة لهذه العقيدة ـ كانت المرأة تستحق كل ما قاله فيها هؤلاء الآباء. ومن الجائز أن المثقفين من أهل العصر قد لا يقرونه، ولكن السبيل الحق لإثبات براءة المرأة هو الكشف عن زيف هذه المعتقدات، وإذا تقرر ذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الفضل على المرأة في هذه المسألة بالذات، لأنه أول من نفى هذه العقائد السخيفة، ونفى نظرية الخطيئة المركوزة في الفطرة، وصرح بأن كل مولود يولد على الفطرة خالياً من الخطيئة، وأن فتنة آدم وحواء كانت بلاء مشتركاً بين الرجل والمرأة على حد سواء، فلا المرأة هي التي أغوت الرجل، ولا الرجل هو الذي أغوى المرأة، ولكن الشيطان هو الذي أزلَّهما، ودلاهما بغرور.

وفي الوقت الذي كانت الكنيسة المسيحية تشنع فيه على المرأة،

وكانت بقية العالم تعاملها بمثل هذه القسوة جاء محمد صلوات الله عليه لإنقاذ الموقف، فسما بالمرأة إلى مكان رفيع الذُرىٰ لم تحلم به من قبل، إلى مكان لا مطمع بعده لمستزيد.

وفي الوقت الذي كان الآباء المسيحيون يتغنون بأن المرأة خلقت للرجل، لا أن الرجل خلق للمرأة، كان محمد صلى الله عليه وسلم يعلن على الملأ أنَّ «النِّساء شقائق الرجال» في معرض البيان للآية الدالة على أن الرجل والمرأة سواء في أصل الخلقة: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهَا رِجَالاً كَثيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذي تَسَاءلونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إنَّ الله كان عليكم رقيباً﴾ [النساء: ١]، ، هذا ويطلق القرآن الكريم على المرأة اسم «المُحْصِنَة»، وليس المعنى أن المرأة «أحبولة الشيطان» ولا أنها «باب الشيطان» بل المعنىٰ أنها «حصن حصين من الشيطان». وأنها منار الفضيلة والعفة، الذي يحمي الإنسان غائلة الغرق، حينما تتقاذفه أمواج الشهوة الهوجاء. يقول الكتاب المقدس: «وإلىٰ رَجُلِكِ يكونُ اشتياقُكِ، وهو يسود عليك»، [التكوين: ٣ ـ ١٦]، ولكن محمداً يقول: «المرأة راعية في بيت زوجها»، يقول القديس بولس «لتَصْمُت نساؤكم في الكنائس، لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن، بل يخضعن كما يقول الناموس أيضاً»، ولكن القرآن يقول: ﴿ولَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالمعروفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وليست المرأة هي «العقرب الذي لا يتردد قط عن لدغ أي إنسان»، ولكنها «لباس للرجل، والرجل لباس لها» [18] . وليست المرأة مصدر الشرور والآثام كما يسميها

(18) ﴿أُحِلَّ لكُم لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُم هُنَّ لِبَاسٌ لَكُم وَأَنْتُم لِبَاسٌ لَهُنَّ . . ﴾، (البقرة ١٨٧).

الآباء المسيحيون، ولكنها مصدر «المودة والرحمة» [19] كما يقول القرآن الكريم. ويزعمون أن عيسى عليه السلام قال لأمه «أيتها المرأة، مالي ولكِ»، أوِّل هذه الكلمات كما شئت! وفسرها كما أردت، فإن المسيحيين حتى اليوم يعملون بها، فترى الأبناء في الغرب، يرفلون في حلل الثراء، بينما تكتوي أمهاتهم بنار الفاقة والشقاء، وتراهم ينبذون الأمهات نبذ النواة في الفلاة، على حين أن المسلم لا يألو جهداً في برِّ أُمه وتوقيرها لقوله صلى الله عليه وسلم: «الجنَّة تحت أقدام الأمَّهات». ثم إن الزواج الموفق في الغرب قد يكون كورقة النصيب كما يقول بعضهم، ولكن الإسلام يُوجب على الرجل أن يتخذ من زوجته أعز صاحب له، وأن يتخذها شقيقة له، ويعاملها معاملة كريمة، وكيف يكون الأمر بخلاف ذلك، وقد فُرض على المسلم أن يطيع نبيه الذي يقول: «خياركم خيركم لنسائه»، «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي».

سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما حقُّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: أن تُطعمَها إذا طَعِمْت، وتكسُوَها إذا اكتسيتَ، ولا تضرب الوجه ولا تُقَبِّحْ، ولا تَهْجُر إلا في البيت».

«لا تضربوا إماءَ الله».

«استوصوا بالنساءخيراً».

«لا يَفْرِكْ مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خُلُقاً رضيَ منها آخر».

ولم يمض ربع قرن من الزمان على اجتماع الآباء المسيحيين في ميكان الذي تقرر فيه بعد لأي جواز دخول المرأة في الجنة على أن تكون

---

(19) ﴿وَمِن آياتِهِ أَن خَلَقَ لَكُم من أنفُسِكُم أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إليها وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يتفكَّرون﴾، (الروم ٢١).

مجردة من الخصائص الجنسية، حتى جاء القرآن يزف إليها هذه البشرى: ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ أَنْتُم وَأَزْوَاجُكُم . . ﴾ [الزخرف: ٧٠]، ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحَاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾، [النحل: ٩٧].

وفي الوقت الذي كان الناس يشكُّون فيه أن باب الأعمال الصالحة مفتوح أمام النساء كان القرآن ينادي: ﴿إنَّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ وَالمؤمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ وَالقانِتِينَ والقَانِتَاتِ والصَّادِقِينَ والصَّادِقَاتِ والصَّابِرِينَ والصَّابِراتِ والخَاشِعِينَ والخَاشِعَاتِ وَالمُتَصَدِّقينَ وَالمتصدِّقاتِ وَالصَّائِمِينَ والصَّائماتِ والحَافِظِين فُروجَهُم والحَافِظَاتِ والذَّاكرِينَ اللهَ كثيراً والذَّاكِرَاتِ أَعدَّ اللهُ لَهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾، [الأحزاب: ٣٥].

إنه الجهل المطبق، والتعصب الأعمىٰ لا غيرُهما اللَّذان يدفعان خصوم الإسلام إلى الزعم بأنَّ النساء ليست لهن أرواح. ولست بحاجة إلى إعمال الفكر في نقض هذا القول الهُراء، فإنه إذا كان للرجال أرواح، وجب أن يكون للنساء أرواح، لأن الله تعالىٰ خلق الرجل والمرأة من نفس واحدة كما دل على ذلك القرآن.

* * *

الإعلاء من شأن الزَّواج

أضفى النبي صلى الله عليه وسلم على الزواج معنى جديداً جليل القدر، وأعلى من شأنه بأن اعتبره وسيلة لتخلق المرء بالأخلاق العالية، وإظهار عواطف الرحمة والمودَّة التي انطوت عليها النفس البشرية. ولا يعزبَنَّ عن بالك أن روح التضحية هي عماد العواطف النبيلة كلها، وأنَّ الزواج حافز طبيعي لهذه الروح، يساعد على ظهور آثارها. فالرَّجل والمرأة ـ بعد الزواج ـ يعيش كل منهما للآخر ولأولاده، ويضحيان بالنفس

والنفيس في سبيل إسعاد الذرية. ومن ذلك ترى أن الحياة الزوجية تقوي عاطفة المحبة، وتُذْكِي جذوة الشعور، وتبث روح المشاركة الوِجْدَانية، وتعلّم المرء أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وكلما زاد عدد الأسرة، زادت الدواعي لإظهار هذه العواطف النبيلة. وإني أميل إلى الاعتقاد بأن تعدد الزوجات ـ إذا سار طبقاً لأحكام الشَّريعة الإسلامية ـ كان عوناً على الوصول إلى تلك الغاية، على ما فيه من المتاعب والمشاق، إذ كان العدل بين الزوجات في الحب والمعاملة من أشق الأُمور. وإذا وفق الزوج في ذلك لم يكن رجلاً عادياً بيقين؛ ولكنه إن لم يفعل فإنه يأثم إن زاد على واحدة، كما نص على ذلك القرآن ويُعدّ النبي صلى الله عليه وسلم ـ في هذا الشأن ـ شخصيةً مثالية، فلم يحدث قط أن اشتكت إحدى نسائه من محاباته لغيرها من النساء؛ بل كان ـ على العكس ـ يراعي العدل بينهن في المعاملة بصورة تدعو إلى العجب والدهشة. ولم يكن للاعتبارات الشَّهوانية أي دخل في تعدد زوجاته، فقد كانت حياته كلها حياة زهد وتقشف، مجردةً من كل ما يحرك الشهوة. وقد كان في عُنْفوان شبابه، حين تزوَّج لأوَّل مرة أرملة في سن الأربعين، هي السيدة خديجة، ولم يتزوج عليها حتى ماتت رحمها الله تعالى. وكان سنه وقت وفاتها اثنتين وخمسين سنة، ثم تزوج إمرأة عذراء هي السيدة عائشة في وقت اضطر فيه لمجاهدة أعداء الإسلام، وحصدت فيه الحرب كثيراً من أرواح أصحابه، الَّذين بذلوا دماءهم في سبيل مرضاته، وتركوا أراملهم في حاجة إلى الحماية والرعاية، فشرع تعدد الزوجات لمواجهة هذه الضرورة. ويجب ألا يعزب عن البال أن كثيراً من هؤلاء الأرامل اللائي انتقلن إلىٰ كنف النبي صلى الله عليه وسلم قد تجاوزن سن الزواج، فلم يكن هناك أي مأرب نفسي، أو معنى شهواني، في زواجه بهن، بل إن هذا الزواج أتاح للنبي صلى الله عليه وسلم أن يُبيِّن للناس أن المرأة التي لم تُؤتَ حظاً من

الجمال جديرة بعطف الرجل وتقديره، حتى ولو كانت زوجته هو على جانب من الجمال.

* * *

تعدد الزوجات

يجب ألا يغيب عن البال أن مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة ليس من مبادىء المسيحية، فقد كان تعدد الزوجات فاشياً في العالم المسيحي منذ قرون قلائل في أوساط العامة، وفي أوساط رجال الدين أنفسهم، كما كان مباحاً في كافة الديانات والأمم المتمدنة الأُخرىٰ. ومما لا نزاع فيه أن المسيح عليه السلام لم يكن مُشَرِّعاً، ولم يذكر شيئاً عن هذا الموضوع، إذ كان يتمسك بشريعة موسى عليه السلام، ويحرص على اتباعها. وقد كان آل يعقوب يشجعون تعدد الزوجات شرعاً وعملاً، إلى حدٍّ يبدو غريباً في نظر أهل الوقت الحاضر، إذ كان في وسع أي شيخ من شيوخ بني إسرائيل أن يُؤْوي ٥٠٠ زوجةٍ تحت سقف بيته. وقد حاول عيسى عليه السلام ـ فيما حاوله ـ أن يحدّ من إغراق قومه في الشهوات والملذات، ولكنه لم يفكر في الحد من تعدد الزوجات، وكان فاشياً بينهم، وأول من فكر في سن قانون بقصر الزواج على واحدة، هو الامبراطور جُسْتنيان الروماني، وهو مشرع وثني. ولكن هذا القانون ظل هدفاً لحملات المسيحيين طيلة قرون عدة، حتىٰ انتهى به الأمر إلى أن صار عاطلاً، شأنه في ذلك شأن كثير من الفضائل الرومانية الأخرىٰ.

وقد جاء الإسلام ليصلح المساوىء المنتشرة في العالم كلِّه، بما في ذلك نظام تعدد الزوجات، فوضع له قيوداً شديدة بحيث صار أقرب إلى المستحيل في الأحوال العادية، وصار لا يخلو من الفائدة في بعض الظروف الخاصة. فمن المعلوم أن البيت الذي يخلو من الأطفال بيت تُخيِّم عليه الوحشة كأنه القبر، وقد تظل الزوجة الأُولىٰ عقيماً عدة سنين،

وفي هذه الحالة لا بد للزوج من أن يَنْكِح زوجة أُخرىٰ حتىٰ يسعد بإنجاب الذرية. وفي الهند يتم هذا الزواج غالباً بناء على رغبة الزوجة الأولى نفسها. ولهذا تقرر نظام تعدد الزوجات في الإسلام لمواجهة هذه الحالات الاستثنائية. ومما ينهض حجة على تأييد هذا النظام أن عدد النساء قد يزيد أحياناً على عدد الرجال، ولا سيما في أثناء الحروب وأعقابها، فيباح التعدد درءاً للمفاسد الخلقية والاجتماعية. وقد نزلت الآيات القرآنية التي أباحت التعدد بشروط معينة، حينما زاد عدد النساء في المدينة أيام الغزوات. وكيفما كان الأمر، فإن الغريزة الجنسيَّة من الغرائز الحيوية التي لا تزول إلا بالموت. ولا يخفى أن قمع الميول النفسية وكبتها مضر بالصحة، وأن العزوبة قد أدت إلى الفساد الخلقي في كل زمان ومكان. ومن حق الرجل والمرأة أن يعيشا في ظل زواج شرعي استجابة للمطالب الطبيعة، بدلاً من الإباحيَّة المطلقة التي تجلب الأضرار على المجتمع. أليس التعدد المبني على القواعد الشرعية الإسلامية هو العلاج الوحيد في مثل هذه الظروف؟ إننا لا ندافع عنه، لكنْ نلجأ إليه على سبيل العلاج، ولا جُناح في تركه لأنه لا يمس أصلاً من أصول الشَّرع.

ولا تزال أوروبة منذ نشبت الحرب تواجه هذه المشكلة نفسها، فقد نتج عن الحرب أن زاد عدد النساء على الرجال زيادة هائلة.

أضف إلى ذلك أن حياة العزوبة مخالفة للطبائع البشرية، وضارة بالصحة، بل تعد إثماً، إذا كان الإثم معناه كل ما من شأنه أن يعوق البشرية عن التقدم والرقي.

ولكن هل خلا العالم المسيحي من تعدد الزوجات؟ إننا إذا صرفنا النَّظر عن جميع الاعتبارات، وجدنا أن الزواج في حقيقته المجردة إنَّما هو اتصال بين الرجل والمرأة. ولكن اهتمامنا بالأجيال المقبلة، وحرصنا على

ثبوت نسب الأولاد إلى الآباء، يدفعنا إلى تقديس الرابطة الزوجية. وإذا نظرنا إلى الزواج من حيث هو، وجدنا أن المسيحيين في الغرب أشد من المسلمين إغراقاً في الاستكثار من النِّساء. وحسبك أن المسلم يلجأ إلىٰ التعدد فيما ندر (وفضلاً عن ذلك فإن هذا التعدد يخضع للقواعد الشرعية) على حين أن المسيحي يفعل ذلك دون أن يرعى إلَّاً ولا ذمة، أو يسير على مقتضى القواعد الشرعية ولكن يا لَسُخرية القدر، فإن ما يفعله المسلم مما يؤدي إلى العواقب السليمة يُوصَم بأنه جريمة، يسميها القانون تعدد الزوجات، على حين أن ما يرتكبه المسيحي مجاهراً مستهتراً، لا يقع تحت طائلة القانون، ولا يُعَاقب عليه! إن التشريع يجب أن يكون بمنأى عن العاطفة، وأن يهدف إلى إصلاح حال المجتمع الإنساني وإسعاده. وهناك آفتان قد عجز الناس منذ بدء الخليفة عن علاجهما: بهيميةُ الإنسان الجامحة إذا تحكمت فيه الشهوة، وضعفُ المرأة إذا غلبتها الشهوة على أمرها. وماذا تكون النتيجة؟ كثرة أولاد الزنا، وما يصيب النساء من معرة وشقاء! فهل جاء الدين أو المدنيَّة بعلاج لهاتين الآفتين؟ إن البلاد الإسلامية قد سَلِمت منهما. وهل في شرعة الإنصاف أن يجني الآباء على الأطفال الأبرياء بعد أن جاؤوا بهم إلى هذه الدار على غير اختيار؟ وأن يحرموهم من الميراث والانتساب إليهم؟ لقد اضطرت إنجلترة إلى الاعتراف (بأطفال الحرب) لحد ما. وبذلك أيدت ضمناً مبدأ تعدد الزوجات، ولكن ذلك كان تدبيراً وقتياً. ثم أقدم أهل المروءة والإنسانية على إنشاء (دور الإنقاذ) و(مستشفيات اللقطاء) لإنقاذ هذه الضحايا البريئة ـ الذين جنى عليهم الفساد ـ من البؤس والعوز. ولكن ما بال تلك الوصمة التي تظل عالقة بهم طول حياتهم، والبلاء الذي نزل بأمهاتهم!؟ أما كانوا في غنى عن هذا كلِّه، لو أن القانون سمح للرجال بأن يتخذوا من هؤلاء الأمهات زوجات أخرى لهم يعشن في عزة وكرامة، إذا كانت الزوجة

الأولى لا تستطيع، لأسباب مختلفة، أن تحقق الغاية من الحياة الزوجية؟؟

على أن تعدد الزوجات كان فاشياً قبل الإسلام، ولم يكن له ضابط ولا قيد من حيث العدد. فكان للرجل أن يتزوج من النساء من يشاء، ولكن الإسلام حدد عدد الزوجات اللائي يباح للمرء أن يتزوج بهن إذا دعت الضرورة. على أنه قد تَعْرِض حالات يتعين فيها التعدد، قمعاً للشهوة، ودفعاً للغُلمة. ومن مزايا الإسلام أنه دين واسع الأفق، ينظر إلى الشر من زوايا متعددة. ومن ذلك الناحية الصحية؛ فالمرأة تعرض لها ظروف في حياتهما الزوجية تحتم على الرجل اعتزالها لأسباب صحية. من ذلك الحيض الذي يعتريها أسبوعاً كل شهر، وأيام الحمل والرضاعة التي قد تستمر ١٨ شهراً. ففي هذه الظروف يتعين على المسلم أن يعتزل زوجته، حرصاً على صحتها، وصحة أولادها، ولهذا أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نكبح جماح شهواتنا، وأشار علينا بعدة وسائل تساعدنا على الوصول إلى تلك الغاية، منها الصوم. ولكنه لم يرد بأية حال أن يترك ثغرة ينفذ منها الفساد الخلقي، ولذا آثر أن يسمح للزوج بأن يقترن بزوجة أخرى من أن يخالف القوانين الصحية، أو يخرق حجاب العفة، على ألا يزيد عدد زوجاته على أربع.

إن من يدافع عن المساواة بين الرجل والمرأة قد يطالب بتعدد الأزواج. ولكن إذا صرفنا النظر عن أن المرأة لا الرجل هي التي تعرض لها العوائق التي ذكرناها آنفاً، وجدنا من الأسباب الأُخرىٰ ما يوجب تحريم تعدد الأزواج، فمنها ما يتعلق بالصحة، ومنها ما يتعلق بتربية الأطفال. فالتحقق من صحة الأبوة مثلاً أمر ضروري عند ولادة الطفل، لضمان الوفاء بالالتزامات الخاصة بتربية الأطفال. وفي حالة تعدد الزوجات، يمكننا أن نتحقق من معرفة الأم والأب كليهما، ولكن إذا تعدد الأزواج لم نستطع

معرفة الأب. يضاف إلى ذلك أن تعدد الأزواج تنتج عنه كثرة الأمراض التناسلية، وهي تفشو بكثرة في بعض المناطق المرتفعة من جبال الهملايا حيث تشيع عادة تعدد الأزواج. وقد أصبح الآن من المقرر أن المرأة هي مصدر هذه الأمراض، ولكنها تعود فتصبح هي أول ضحاياها. واتصال المرأة بأكثر من رجل واحد مَجْلَبة لهذه الأمراض.

* * *

الغاء الرق

جاءت الأديان تترى، وتوالت المدنيات واحدةً في إثر أخرى، ولكن حال الأرقاء ظل على ما هو عليه، لم يعبأ بهم أحد. شأنهم في ذلك شأن النساء. وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أول من أخذته الشفقة بهذه الفئة المنكوبة، التي ذهبت ضحية العسف والجور. فألغى جميع أنواع الرق ما عدا سبي الحرب، وشرع سنناً لتحسين حال هؤلاء، وأمر بأن يعاملوا كما يعامل الأحرار، حتى كاد الرقيق أن يختفي في عصره. ورفع مكانة الرقيق حتى صار عبدُ اليوم، ملكَ الغد.

* * *

الخمر والميسر

ويجدر بي أن أذكر من اصلاحاته المتعددة تحريم الخمر والميسر، وهما آفة الإنسانية. وقد بدأ العالم الغربي اليوم، يقوم بحملة على الخمر، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم أدرك ضرر الخمر والميسر في وقت لم يكن الناس يرون فيهما إثماً، كما يرجع إليه الفضل في إنقاذ ربع العالم من عواقبهما السيئة.

* * *

احترام العلم والمنطق

كان محمد صلى الله عليه وسلم أول من شاد صرح التعاون بين العلم والدين، فلم يفرض على أتباعه عقائد جامدة، حَتَّم عليهم التسليم

بها، بل جعل الحق والمنطق محك الحقائق الدينية. وليس في أصول الإسلام ما يصادم العقل، أو ينبو عن الفهم.

فضَّل محمد صلى الله عليه وسلم طلب العلم على العبادة، وقرر أن عبادة الله الحقة هي التفكر في الكون بُغْيةَ تسخيره لما فيه خير الإنسانية [20]، وحثَّ على طلب العلم، فلم يمض على الإسلام سوى قرن من الزمان حتى حدثت نهضة عظيمة في مختلف العلوم الكونية في البلاد الإسلامية.

وقد كان الناس في الجاهلية يعبدون كل مظهر من مظاهر الطبيعة، من قشور البيض إلى النجوم إلى السحاب إلخ فما أن نادى صلى الله عليه وسلم بأن الكون كله مسخَّر للإنسان حتى أصبحت آلهة الأمس المُقَدسة، آلات اليوم المُسَخَّرة. ويقول صلى الله عليه وسلم في الحث على طلب العلم والتعلم:

كلمةٌ من الحكمة يسمعها المؤمن، فيعملُ بها ويُعلِّمها، خيرٌ له من عبادة سنة.

يرجُح مداد العلماء على دم الشهداء.

من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة.

طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم.

تعلَّموا العلم، فيه يُعرَفُ الحلال من الحرام، وهو منارُ الجنة، وهو الأنيسُ في الوحدة، والصاحبُ في الخلوة، والدليلُ على الدين، والمُصَبِّرُ

---

(20) ﴿أَوَلَم يَرَوا كيفَ يُبدِيءُ اللَّهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إنَّ ذلكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ، قُل سِيرُوا في الأَرْضِ فَانظُروا كيفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِيءُ النَّشأةَ الآخِرَةَ إنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾، (العنكبوت ١٩ و٢٠).

على الضراء، والوزيرُ عند الأَخِلاَّء، والقريبُ عند الغرباء.

* * *

عموم الرسالة

ما أكثر الديانات المنتشرة في العالم! ومع ذلك تعتقد كل طائفة أن الدين الذي تدين به، هو دين الله الحق دون سواه، وبالتالي هو الدين العالمي، الذي اختاره الله للناس كافة. ولعل المبشرين المسيحيين على وجه الخصوص، هم أكثر الناس لَغَطاً بهذا القول.

إن وجود دين عام أمر يجيزه العقل، لا سيما وأن العالم اليوم على ارتباط وثيق في سائر أجزائه، ولكن أوجه الخلاف في أمهات العقائد، كثيرةٌ بين الديانات الموجودة في العالم اليوم. ومن شروط الدين العالمي أن يعرض لكافة المسائل الخلافية، ويبين وجه الحق فيها، ويقرر الحجج التي تؤيد العقائد التي يرى قبولها، ويكشف عن زيف العقائد التي يرى رفضها. وفي هذا الصدد يجدرُ بي أن أعرض لبعض أمهات العقائد التي اختُلف فيها، وأدت إلى الملل والنحل التي نشاهدها اليوم. وأول ما نلاحظه أن بعض الأديان يقوم على أساس الدعوة إلى الله، ويجعل الإيمان بالله هو المحور الذي يدور عليه الدين كله. وبعضها لا يتعرض لذكر الله قط، كديانة بوذا وكونفوشيوس اللتين قامتا على أساس الدعوة إلى الأخلاق، لا إلى الله. والذين يؤمنون بالله، منهم من يعبده طبقاً للوحي الإلهي، ومنهم من يعتقد أنه يمكنهم معرفته، والوصول إليه بأنفسهم؛ وبعبارة أخرى لا يؤمنون بضرورة الوحي الإلهي، ولكنهم يعتقدون أن القلب إذا صفا أصبح كالمرآة المجلوَّة، تنعكس فيها الإرادة الإلهية. ومن هؤلاء منكرو الوحي في لندن، والبراهمةُ في الهند. أما الذين يؤمنون بالوحي فطائفتان: طائفة تعتقد أن الروح الإنساني إذا فارق الجسد، لا يعود قط إلى الهيكل الترابي، وطائفةٌ تذهب إلى أن الأرواح تتناسخ، وتظل

حبيسة على وجه الأرض، تفارق جسماً، وتتقمص آخر. وهذا هو مذهب إعادة تجسد الأرواح. وعلاوة على ما ذكرناه، تتضارب الأفكار تضارباً كبيراً في تفهم الحقائق الدينية في كل مذهب من هذه المـذاهب.

هـذا ويجب أن يحتوي الـدين العالمي على مـا يشفي غليـل كـل طالب، ويجيب على سؤال كل سائل ينتمي إلى أي مذهب من الذاهب. ويجب أن يتكفل بالإجابة عن ذلك كله صاحبُ الدين نفسُه.

ولقد قرأت الكتاب المقدس كله فلم أجد فيه ما يصلح أن يكون ردّاً على المبادىء التي تخالفه في الديانات الأُخرى، فليس فيه مثـلاً ما يـرد على القائلين بإعادة تجسد الأرواح، ولم تُؤْثر عن المسيح كلمة واحدة في هذا الشأن، فكيف يطمع المسيحيون أن يكون دينهم دينـاًعالميـاً؟ ثم إن لكل إنسان نبيه الخاص الذي يؤمن به ويحترمه، وقـد يكون في التعـاليم التي تنسب إليه بعض الخطأ، ولكن ما لهذا النبي من مكانة شخصيـة في نفوس أتباعه، يجعلهم يتمسكون بأهداب دينه على عِلَّاته. وهذا بعينه هو حال أهل الغرب اليوم، فإن شخصية عيسى المحبوبة ـ ولا شك عندي في أنها كذلك ـ هي الرابطة القوية التي تجمع بينهم، وإن كان الجم الغفير من المسيحيين لا يؤمنون بالمبادىء المسيحية التقليدية.

ومن خصائص الدين العالمي أن يزيل الخلاف والشذوذ، ويصحح الأوضاع. وقد حل النبي صلى الله عليه وسلم المشكلة، حين صرح بأن جميع الرسل بما فيهم عيسى عليه السلام قد جاؤوا من عنـد الله بالحق، ولكنه اختلط بالأساطير والعقائد الشائعة، فلا غرو أن يكون محمد صلوات الله عليه سيد المرسلين من هذا الوجه. وذلك لأن الدين الذي جاء به دين وافٍ شامل، يُقرّ كل ما جاء به غيره من حق، ويدافع عنه دفاعـاً تستسيغه الأفهام، وينبُذ ما عداه من باطل، لأسباب تقرها العقول. وكـذلك الـدين

المحمدي يعالج كل ناحية من نواحي النفس والأخلاق الإنسانية، ويُضَمِّن كل ذلك في تعاليمه، على عكس الكتب السماوية الأُخرىٰ، ولا سيما ما ينسب إلى عيسى عليه السلام. وهكذا كان محمد صلى الله عليه وسلَّم معلم الدين الكامل، لكمال دينه، وإلمامه بكل صغيرة وكبيرة.

* * *

دين الحياة

وفي هـذه المنـاسبـة أحب أن أشيـر إلى أمـر واحـد يعـد في رأيي المتواضع لب الدين، والمقصد الأسمى الذي جاء الدين لتحقيقه، ألا وهو تزكية النفس الإنسانية وترقيها حتى تميز بين الخير والشر، فإن الله تعـالى أودعنا الروح الحيواني، وأوجب علينا أن نسمو به إلى مرتبة القداسة حيث تنعكس فيه الأخلاق الربانية. وليس يخلو دين من الأديان من شيء يساعد على تحقيق تلك الغاية، بَيْد أن محمداً صلى الله عليـه وسلم يدلنـا على أقصر الطرق وآكدها [21]. فبينا تطالبنـا الأديان الأخـرى أن نحمل نفـوسنا على التقشف، والزهد، وتعذيب النفس، وقطع كل العلائق الدنيوية، في سبيل تزكية الرُّوح، وتنمية القوى الباطنة، نرى محمداً صلى الله عليه وسلَّم لا يطالبنا بقطع العلائق الدنيوية، بل بتنظيم حياتنا علىٰ الوجه الذي يوصلنا إلى الغاية المرجوة. ولا يطالبنا بتقسيم الأسبوع إلى يوم للرب، ويوم للقلب، بل يطلب إلينا أن نصرف كل دقيقة من دقائق حياتنا في طاعة الله، لأنها ملك لله. ولهذا يدعونـا محمد صلى الله عليـه وسلم أن نصلي لله، خمس مرات في اليوم علىٰ الأقل، لنناجي الله بعد كل فترة مهمة من فترات حياتنا اليومية، ونتلو في الصلاة آيات من الذكر الحكيم من شأنها أن تصبغ

---

(21) آكدها: أكَّد العهد والعقد: لغة في وكَّده، و(وكَّد) العقد والعهد: أَوثقه، [اللِّسان: أكد و وكد]، فالمعنى: أَقصر الطُّرق وأَوثقها.

أعمالنا بالصبغة الروحية لنعمل صالحاً في الفترة التي تتخلل الصلوات. ويريد منا محمد صلى الله عليه وسلم أن نُكوِّن أُسرة ويرشدنا إلى الوسيلة التي تجعل الأُسرة مزرعة لغرس الأخلاق الفاضلة، وتهذيب الروح. أما الميول البهيمية، والشهوات الجسدية، وهي أكبر مشكلة في حياتنا فلا يشير علينا بقتلها، كما أشارت بعض الديانات الأُخرى، بل يدعو إلى كبحها، وضبطها، ويطالبنا بتهذيب الميول الوضيعة، حتى تصبح أخلاقاً عالية، وتتغلب فينا الروحانية على البشرية. وبذلك يتحقَّق فينا المثل الفارسي الذي يقول «أيديهم في الدنيا، وقلوبهم مع الله»، وأعود فأقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان أول من دعا إلى هذا المبدأ.

الباب التاسع

المثل الأعلى في البيان

يتضمن كل دين من الأديان عقائد خاصة تسمى (أُصول الدِّين) كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ويوم البعث والحساب. وهذه العقائد تعُد ركناً جوهرياً في سائر الأديان، ولكنها كانت تُفرض على الناس على أنها عقائد لا تقبل المناقشة، ولم يحاول أحد قط قبل ظهور الإسلام أن يفسرها على ضوء العقل. وكانت المعجزات هي الوسيلة الوحيدة لتدعيم الإيمان بهذه العقائد بحجة أن صدورها من قوم لهم القدرة على الإتيان بالمعجزات يجعلها بمنأى عن الشك. ولكن بمجرد إنتهاء المعجزة، كان الناس يعودون في الكفر[1]. ولا أُريد في هذا المقام أن أُطيل القول في هذا الموضوع. وحسبي أن أقول إنَّ المعجزات كانت

---

(١) يقول دين إنج: «إذا كان الكون كلُّه ذا قصد وغاية، فليس في وسعنا أن نتبيَّن مقاصد خاصة لا تظهر إلاَّ في ظروف خاصَّة، وعليه تكون القوانين السَّارية في الكون ذات قصد وغاية، شأنها في ذلك شأن القوانين الأُخرىٰ، وإذا كانت هذه القوانين صادرة من موجود قدير عليم، وجب أن تسير بانتظام واطراد، فإنَّ الآلة الَّتي تحتاج إلى إصلاح هي آلة مختلة، ولكن الآلة الَّتي ليس وراءها رأس مفكر لا يصح أن تسمَّىٰ آلة على الإطلاق، وقد أُثبت العلم وجود الانتظام والاطراد في شؤون الكون، وهذا يعزِّز الاعتقاد بوجود خالق مفكر واحد.

وسيلة من وسائل الإقناع، تعزز الإيمان بصانعها في أثناء حياته، ولكنها سُرعان ما تصبح في ذمة التاريخ، وتذهب في عِداد الأساطير، وتفقد سلطانها على الأجيال التالية. هذا ولا يخفى أن الله تعالى وهب الإنسان ملكة العقل والتفكير. ومن حق هذه الملكة ـ باعتبارها هبةً إلهية ـ أن تُستعمل فيما خلقت له على الوجه الأكمل، وأن يُتاح لها أن تُثبت وجودها. وليس من المعقول أن يُكلَّف المرءُ بشيء لا تحتمله العقول، ومصداقُ ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والقرآن حافل بأمثال العبارات الآتية الواردة في ذيل الآيات التي تحيل الإنسان على الظواهر الكونية إثباتاً للحقائق القرآنية.

﴿إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لَقْومٍ يَعْقِلُون﴾، [الروم: ٢٤]، ﴿إنَّ في ذٰلِكَ لآيةً لقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، [النحل: ٦٥]. ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيةً لقَوْمٍ يَتَفَكَّرون﴾، [النحل: ٦٩]. ﴿إن في ذلِكَ لآياتٍ لقَوْمٍ يُؤْمِنُون﴾ [النحل: ٧٩]. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦]، ﴿كذلك نفصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَعْلَمُون﴾ [الأعراف: ٣٢]، ﴿إنَّ في اختلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦]. ﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

فأنت ترى أن القرآن يخاطب العقل، والفكر، والذكر، والعلم، والتقى، والصبر، والشكر، فلا هو يتعسف في فرض الحقائق، ولا هو يعتمد في إثباتها على الخوارق. على أن الناس بدأوا يشعرون ـ حتىٰ في أيَّام عيسى نفسه ـ بضرورة تحكيم العقل في العقائد الدينية، فقد رفض رجل من الصَّدُّوقيين أن يؤمن بالحياة بعد الموت، وطلب دليلاً عقلياً على

البعث. ومن الجائز أن المستوى العقلي العام في ذلك الوقت لم يكن له قِبَلٌ بفهم التفسير العقلي لهذه المباحث العالية، ولذلك أجابه عيسى بقوله: «وأما من جهة قيامة الأموات أفما قرأتم ما قِيل لكم من قِبَل الله القائل، أنا إله إبراهيم، وإله إسحق، وإله يعقوب، ليس الله إله أموات بل إله أحياء». على أن ذلك القول لا يمكن أن يقنع رجلاً متشككاً من أهل العصر، بل قد يرى فيه مغالطة منطقية لأنه يتضمن دعوى تفتقر إلى إثبات.

ومن العقائد المشتركة بين جميع الأديان عقيدة الجنة والنار، إذ لا قيمة للدين الَّذي لا يؤمن بالحياة بعد الموت، ولكنَّ الإيمان بالجنة والنار حجر عثرة في سبيل الكثير من الناس، وقد أدى بهم إلى إنكار وجود الله. وقد كان الإنسان في طور الطفولة العقلية يؤمن كل الإيمان بجغرافيَّة الجنة والنار، ولكن لما ارتفع شأن العقل والعلم، أنارت هذه العقيدة الشَّك في النفوس. وقد مزق المذهب الكُوبرنيقي خريطةَ الجنة والنار المسيحية كل مُمَزَّق، وأثّر في تلك العقيدة من نواح أُخرى، ولهذا اشتد اضطهاد العلم والثقافة فترة من الزمن. واستمرت هذه الحال عدة قرون حتى أنكر الناس هذا الاضطهاد، واتجهوا وجهة جديدة، فقالوا إن العلم والدين أمران مختلفان، وفي وسع الإنسان أن يُخصِّص لكل منهما شِعْباً من القلب فارغاً. واستقامت الحال على ذلك فترة من الزمن، ولكنها لم تدم طويلاً أمام تقدم العلم السريع، واضطرت الكنيسة في الغرب أن تلتمس وسيلة للتوفيق بين العلم والدين، ولكن هيهات أن تتفق العقائد الزائفة مع العلم الصحيح. ومن جهة أخرى أدت روح التسامح الحديثة إلىٰ فتح أذهان الناس، وإفضائهم بما يساورهم في أعماق نفوسهم من زيف العقائد الدينية المزعومة، دون أن يَخْشوا لومة لائم. وقد أفضت هذه الصراحة إلى إقلاق بال الكثيرين من أتباع الأديان قاطبة، وأدت إلى زعزعة إيمانهم. ولكن

الإسلام وحده ظل بمنجاة من هذا الإضطراب، إذ سار مع العلم جنباً إلى جنب منذ البداية، وقد شاهد العالم بعد ظهور الإسلام نهضة عظيمة في العلوم والمعارف، وكان المسلمون أوَّل من حمل لواء العلوم الحديثة. ومع ذلك لم نسمع أنَّ أحداً ارتد عن الإسلام سَخْطةً لدينه، والسر في ذلك أنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم أقام دينه على رِكزة العقل. وإذا كانت مهمة الأنبياء هي غرس الإيمان في نفوس أتباعهم بما جاؤوا به من عند الله، أفلا يكون محمد صلى الله عليه وسلم هو العَلَم الفرد الذي حفظ على الملايين من الخلق نعمة الإيمان؟

هذا وتختلف طريقة القرآن في الدعوة عن غيره، وتعتبر أكثر اتفاقاً مع روح العصر، لأنه ينهج في بيان مبادئه نفس الطريقة التي أدَّت بأهل العلم الحديث إلى الإيمان بوجود «عِلَّةٍ أُولىٰ مفكرة»، الأمر الَّذي حال دون انتشار الإلحاد في الإسلام. فترىٰ القرآن مثلاً يستشهد بالطبيعة عند الكلام على البعث فيشير إلى استمرار الحياة، وإطراد النظام في الكون، دون أي خلل، ويشير إلى أن انقطاع النمو المسمى عادة بالموت، الذي يطرأ فجأة على كل كائن حساس، لا يخرج عن كونه فترة انتقال من حال إلى حال، في طريق التَّرقي إلى الكمال. وفي هذه الفترة تظل الحياة كامنة حِقْبة من الزمن تسمىٰ البرزخ في العربية، ومعناه الحقيقي السُّكُون. هكذا تموتُ الأشياء ثم تبعث. ويمكن تقريب ذلك بما يحدث في المملكة النباتية في فَصْلَي الخريف والربيع. وفي هذا يقول القرآن الكريم رداً على منكري البعث: ﴿أَإذا مِتْنا وَكُنَّا تُرَاباً ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعيدٌ، قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرضُ مِنْهُم وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ، بَلْ كَذَّبوا بالحَقّ لمَّا جَاءَهم فَهُمْ في أَمْرٍ مَرِيجٍ، أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إلىٰ السَّمَاءِ فَوْقَهُم كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَاهَا وَما لَهَا مِنْ فُرُوجٍ، وَالأَرضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ

بَهيجٍ ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ، وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وحبَّ الحصيدِ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ، رِزْقاً للعبَادِ وَأحيينَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الخُرُوجُ﴾، [ق: ٣ ـ ١١].

ثم يشيـر القـرآن إلى ظـاهـرة النـار، التي تنبعث من الخشب، في معرض البرهنة على استمرار الأشياءوبقائها، في أثناء انتقالها من حال إلى حال، أو استعادتها صورتها الأولى، فيقول:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَه قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلقٍ عَليم ، الَّذي جَعَـلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَـرِ الأخْضَرِ نَـاراً فَإذَا مِنْـهُ تُـوقِـدُونَ، أَوَلَيْـسَ الَّـذِي خَلَقَ السَّمَـواتِ والأرْضَ بِقَـادِرٍ عَلىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُـوَ الخَـلَّاقُ العَلِيمُ﴾، [يس: ٧٨ ـ ٨١].

فالشجرة الخضراء هي مزيج من ضوء الشمس وبعض الغازات، وقد سميت بحق (زجاجة الضوء المخزون) وبيان ذلك أن الشجرة تمتص ـ في أثنـاء نموهـا ـ كميـة من ضـوء الشمس، بـالإضـافـة إلى بعض الغـازات الأُخرىٰ. وعندما تحترق الشجرةُ، ينفصل ضوء الشمس عما امتزج به من الغازات. ويحدثنا العلم أيضاً أن كميـة الضوء المنفصـل، تعادل الكميـةَ التي امتصتها الشجرةُ من الشَّمس في أثناء نموها، كما أن الشجـرة تحُول بعد احتراقها إلى ما كانت عليه قدْراً ونوْعاً. وهذا مثل مناسب يوضح بقاء المادة سليمة في جوهرها، على الرغم من زوال الصور العرضية التي تطرأ عليها.

ولو كان البعث عبارة عن تركيب العنـاصر بعـد انحلالهـا، لم يكن ذلك محلاً لإثارة الشك، ولكن استمرار الحياةبعد الموت هو الذي يحتاج إلى إيضاح. وقد أشار القرآن إلىٰ بيان ذلك في الآيات التي استشهدنا بها

فيما سبق. وجملة القول أن القرآن يؤيد بالظواهر الطبيعية كل مبدأ من مبادئه. وإذا كان العلم الحديث يؤمن بوجود مدبر واحد وراء الكون، ولا يؤمن بتعدد الآلهة سواء أكانت هذه الآلهة هي القوى الطبيعية (التي لا يؤمن بها إلاَّ الملاحدة) أو الأوثان التي هي من صنع البشر، فما ذلك إلا لأن القوى الطبيعية تعمل متعاونة بحيث يكمل بعضها بعضاً في سبيل الغاية الواحدة. وقد سبق القرآن إلى بيان هذه الحقائق وفسر هذه الأسرار بطريقة يفهمها العالم والجاهل، فيذكر ما يلي في تعدد الآلهة:

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ وأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُم أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَإِلهٌ مَعَ الله بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعدِلُونَ، أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلها أَنْهَاراً وَجَعَلَ لها رَواسيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرينِ حَاجِزاً أَإِلهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ، أَمَّن يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأَرض أَإِلهٌ مَعَ الله قَليلاً ما تَذَكَّرونَ، أَمَّن يهْدِيكُم في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْرىٰ بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ أَإِلهٌ مَعَ اللهِ تعالَىٰ اللهُ عَمَّا يُشْركونَ، أَمَّن يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَمَن يرْزُقُكُم مِنَ السَّماءِ وَالأَرْض أَإِلهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ، قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمواتِ والأرض الغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ، بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُم فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٠ ـ ٦٦].

وقبل أن أختم هذه الناحية من الموضوع أُحب أن أَقول شيئاً واحداً، وهو أنه إذا كان الدين شُرع لتعريف الخلق بالحق وإرشادهم إلى السير على النهج الذي يحقق غاية الخالق (مع العلم بأن الخلق لهم الحظ الأكبر من هذه الغاية) فإنَّه يبدو لي أن أسمى واجبات الرسول الإلهي هو بيان الحقائق الدينية على نحو يفهمه الناس على اختلاف مداركهم وثقافتهم.

إنَّ المذهب المادي قد عصف بالحياة الدينية في الغرب لخلو الدين من المنطق الصحيح من جهة، وغلبَة الإيمان الأعمى من جهة أُخرىٰ، ولكن العلم جاء في الوقت المناسب ليوقف موجة الإلحاد التي طغت على المسيحية، ولكنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم سبق إلى ما قام به العلم، وليس أدل على ذلك من أن القرآن قد دلَّل على وجود الله بنفس البرهان الذي اكتشفه العلم في كتاب السكون[1].

ويطول بي الحديث إذا أنا أوردت النصوص القرآنية الدالة على العقائد الدينية التي سبق لي ذكرها. على أني أحب أن أقول هنا كلمة أو كلمتين عن المنحى الذي ينتحيه القرآن في إثبات وجود الله. إن علم الإلهيات الحديث يستدل على ذلك بنظرية القصد ـ وهي أهم نظريات هذا العلم ـ وفحواها أنَّ الأشياء خُلقت لتحقق غرضاً من الأغراض، كما يستدل بأن الكائنات تتعاون ويُتَمِّم بعضها ما يقوم به البعضُ الآخر في سبيل الغاية الواحدة، وبخضوع الكون كله لقوانين ثابتة لا تختلف. وقد جاء العلم ـ كما سلفت الإشارة ـ فأيد علم الإلهيات في هذا السبيل. ولكن القرآن قد

(1) ﴿قُلْ أَرَأَيتُم شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُوني مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُم شِرِكٌ في السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتَاباً فَهُم عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إلَّا غُرُوراً، إن اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالأَرضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتا إِن أَمْسَكَهُما من أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إنَّهُ كانَ حَليماً غَفُوراً﴾، (فاطر ٤٠ و ٤١).
﴿ خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلقى في الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُم وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلنا مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَنْبَتْنا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريم ، هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَروني مَاذَا خَلَقَ الَّذينَ مِنْ دُونِهِ بِلِ الظَّالمونَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾، (لقمان ١٠ و ١١).
﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، (الأنبياء ٣٣).
﴿ وَلَقَد خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِنْ طِين، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكِين، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظاماً فكَسَوْنا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقينَ﴾، (المؤمنون: ١٢ و ١٣ و ١٤).

سبقهما إلى ذكر هذه الأدلة كلها، فهو يلخص نظرية القصد، ووحدة الكـون في سـورة واحـدة: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَـهٌ واحـدٌ لا إلـه إلَّا هُـوَ الـرَّحمنُ الرَّحيمُ﴾ ـ الَّذي يعلم ما تحتاجون إليه فيدبره قبـل ظهور الحـاجة إليـه، والذي يجازي على الحسنة أضعافاً مضاعفة بمحض فضله ورحمته ـ ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ واختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ والفُلْكِ الَّتي تَجْرِي في البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ من مَاءٍ **فأحيا بِهِ الأرْضَ بعد موتِها وَبَثَّ فيها مِن كُلِّ دابَّةٍ** وَتَصْريفِ الرِّياحِ والسَّحابِ المُسَخَّرِ بَينَ السَّمـاءِ والأرضِ لآياتٍ لِقَـومٍ يَعْقِلُون﴾ [البقرة: ١٦٣ . ١٦٤]. تـأمـل الكلمـات الموضـوع تحتها خط تجـد أنها تشيـر إلىٰ القصـد والغـرض، فاختلاف الليل والنهار يغير المناخ، ويؤثر في الهواء، ويغير اتجاه الرياح، ويؤدي بذلك إلى تعاقب المطر والجفاف على الوجه المطلوب، ثم يـأتي موت الأرض وإحياؤها. وكل ذلك بما فيه حياة الإنسان نفسه يتوقف على ميل محور الأرض عن مستوى المدار. فهل كل هذا محض مصادفة لا يدل على القصد؟ أليست كل هذه الأشياء حلقات في سلسلة واحدة، كُلٌّ يعمل في محيطه الخاص، ومع ذلك يتعاون مع غيره على تحقيق الغاية المشتركة ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، هذه حقائق علمية لم تكتشف إلَّا حَديثاً. ولا يسع الإنسان سوى التسليم بأن القرآن جاء من عند الله إذا علم أنه كشف عن هذه الأسرار، في وقت كان فيه الجهل والخرافات يسيطران على عقول البشر.

وهل يجرؤ أحد على القول بأن الكون خالٍ من القصد؟ قلِّب البصر فيما ترى حـولك من مـظاهر الكـون، تجد أنـه ما من شيء إلا ولـه صلة بحياتك، تجد كل شيء يدل على قصد واحـد وغرض واحـد، تجد يـداً واحدة وراء الكون كله. تأمل كذلك قوله تعالى: ﴿الَّذينَ يَذْكُرونَ اللهَ قِياماً

وَقُعوداً وَعَلىٰ جُنُوبِهِم وَيَتَفكَّرونَ في خَلْقِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا (أي الذي يرزقنا ويحفظ علينا حياتنا) ما خَلَقْتَ هذَا باطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران، ١٩١].

إن الكائنات التي كانت العقول تحار في إدراك سرها حتى أمس، قد ظهر اليوم أنها خُلقت لحكمة عظيمة. نعم، هناك من الكائنات ما لا عَدَّ له يعجز العقل عن إدراك الغرض الذي خلقت من أجله، ولكن ما عرف منها حتى الآن قد دل على أنه خلق ليحقق غرضاً من الأغراض. وبعد فإذا كنا قد اهتدينا ـ وتؤيدنا نصوص القرآن الكريم في ذلك أيضاً ـ إلى أنَّ النظام الحاضر للمجموعة الشمسية ـ فيما يتعلق بالكوكب الذي نعيش فيه ـ ينطوي قطعاً على القصد في وجوده وحركاته، وأنَّ كل ذرة من ذرات العالم المادي لازمة لحسن سيره، كان لنا كل الحق في أن نفترض ـ بطريق القياس ـ أن كل شيء في الطبيعة ينطوي على فائدة لنا، وأنه مسخر لنا بتقدير «عقل» ما هو الذي نسميه «الله» ولا يهم مطلقاً أن نعرف الطريقة المثلى للانتفاع بهذه الفائدة. يقول الله تعالى في كتابة العزيز: ﴿اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ من الثَّمراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ في البَحْرِ بِأَمرِهِ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهار**، وَسَخَّرَ لَكُم الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دائِبَيْنِ **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهارَ**، وَآتاكُم مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم، ٣٢ ـ ٣٤].

لاحظ الكلمات الموضوع تحتها خط في هذه الآيات، وتصور مبلغ الأشياء التي توصل الإنسان إلى استخدامها في قضاء مصالحه وحاجاته، ثم خبرني: هل فكرت في أمر، وأردت إنفاذه، فلم تجد في الوجود كل الوسائل اللازمة لتنفيذه؟ هل تستطيع بعد ذلك أن تزعم أن الوجود خُلِقَ

باطلاً خالياً من القصد والغرض؟ أمّا خضوع الكون للقوانين الإلهية أي خضوع المادة للعقل وبالتالي أسبقية وجوده عليها، فيقول القرآن فيه:

﴿وَللهِ يَسْجُدُ ما في السَّمواتِ وَمَا في الأَرْضِ. . . .﴾، [النَّحل: ٤٩]، ﴿وآيةٌ لَهُمُ اللَّيلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فإذَا هُم مُظلِمُونَ،وَالشَّمْسُ تَجْري لمستقرٍّ لها ذلك تَقْديرُ العَزيزِ العَليمِ، والقَمَرَ قدَّرناهُ مَنَازِلَ حَتَّى عادَ كالعُرْجُونِ القَديمِ، لا الشَّمسُ ينبغي لها أن تُدركَ القمرَ وَلاَ اللَّيلُ سَابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].

تدل هذه الآيات على أَن المجموعة الشمسية تخضع لقانون إلهي، وتشير في معرض التَّدليل على وجود هذا القانون إلى النظام السَّاري بين كل الكواكب بدقة رياضية تحول دون حدوث أقل تصادم بينها، وإن كان قد تبين ـ حتى الآن ـ أن كثيراً منها غير منتظم في سيره، وسأستشهد بالأرض على سبيل المثال. نشأت الأرض من حرارة الشمس ثم تقلبت في مراحل التطور المختلفة حتى انتهت إلى صورتها الحالية. ثم أخذت ـ بحكم قانون الجاذبية ـ تدور حول الشمس في مدارٍ بيضوي الشكل، ومحورها مائل عن مستوى المدار، فهل لم يكن في وسعها أن تسير في طريق دائري؟ ولماذا يميل محورها عن الوضع العمودي بمقدار ٢٣,٥ درجة بدلاً من ٦٧,٥ درجة مثلاً؟ وكان من الممكن كذلك أن يكون محورها موازياً لمدارها. ولو كان الوضع الحالي خالياً من القصد لكان من الجائز أن تتخذ الأرض أية صورة من الصور، أو تسير في أي طريق. وإذا كان قانون الجاذبية هو السبب في دورتها حول الشمس ليس غير، فما هو هذا القانون «الناتج عن المصادفة»(2) الذي جعل محورها مائلاً وهي تسير

(2) إن المصادفة مرفوضة علمياً، لقد حسب العالم السويسري تشارلز يوجين إمكان تشكُّل جزيء بروتيني واحد عن طريق المصادفة فكانت: (١) إلى (١٠)^١٦٠، أي ١ يقابله ١٠=

في مدارها؟ وما هذا التناقض في الألفاظ - قانون ومصادفة - ومع ذلك نسمح لأنفسنا بهذا التناقض الغريب لا لشيء إلا لكي نتحاشى الاعتقاد في وجود الخالق سبحانه.

ويلذ لي في هذا الباب أن أجادل كل من يدعي أن دينه دِينٌ عالمي، فإذا كان يطمع مني أن أدخل في دينه، وجب عليه قبل كل شيء أن يبرهن لي على فساد العقائد والمبادىء التي ينص عليها ديني، ثم يعرض عليَّ الدليل العقلي على صحة العقائد التي يريد أن يحملني على قبولها، ويجب أن يكون ذلك كله مؤيداً بنصوص من كتابه المقدس، لأنني لا أقبل أن أؤمن بإله أبكم لا يُبين، بل يحتاج إلى مساعدتي في الدفاع عن قضيته، فعلى المبشرين المسيحيين أن يأتوا بحججهم التي تثبت وجود الله من كلام المسيح نفسه، ثم ليأتوا بنص كلامه الدال على ألوهيته، وعلى صحة ما يدَّعونه من الكفارة والأسرار، وليَدَعُوا صاحب الدين نفسه يتولى عرض القضية، بدون مساعدة من القديس بولس وغيره ممن دنسوا دينه الطاهر بالوثنية.

يضاف إلى ذلك أن جميع الطوائف غير المسيحية لها عقائدها

= وأمامها ١٦٠ صفراً، فهل للمصادفة فرصة؟ كما حسب (يوجين) أيضاً الزمن اللاّزم لحدوث هذا التفاعل إذا تمَّ عن طريق المصادفة، فكان الزَّمن اللاَّزم لحدوث هذا التفاعل مصادفة (١٠)^٢٤٣ سنة، أي ١٠ وأمامها ٢٤٣ صفراً، وإن الكمية اللاَّزمة لحدوث هذا التَّصادف من مواد الكرة الأرضية هو بحجم كرة ضخمة يحتاج الضوء لكي يقطع نصف قطرها ١٠^٨٢ سنة ضوئيَّة أي ١٠ وأمامها ٨٢ صفراً من السِّنين الضَّوئيَّة، وهذا الحجم يفوق حجم الكون بأجمعه بما فيه أبعد النجوم الَّتي يستغرق ضؤوها ٢ × ١٠^٦ سنة ضوئية ليصل إلينا، فالمصادفة مرفوضة علماً وعقلاً، لأن أبسط الخلايا الحيَّة، تظل أعقد ملايين المرات من أكثر الأدمغة الإلكترونية تعقيداً، فالحياة في الواقع تبدو أمراً خارقاً، ومعجزة لا مكان لها في عالم عقلاني.

المخالفة للمسيحية، فعلى المسيحيين - إذا أرادوا أن يحملوا الناس على الدخول في دينهم - أن يأتوا من كلام المسيح نفسه بما ينقض هذه العقائد ويفندها. فلنفرض جدلاً أن شخصاً يؤمن بتناسخ الأرواح، ولكنه لا يؤمن بضرورة الوحي الإلهي، ولا يؤمن بالرسل والملائكة، ولا بالبعث والحياة الآخرة، بل يؤمن بقدم المادة (وهذه خلاصة بعض العقائد المختلف عليها بين الأديان السائدة في الامبراطورية [البريطانية])، فهل في الكتاب المقدس ما يهدم هذه العقائد، فيتمهد بذلك الطريق أمام المسيحية، لِمَا تقرر من أن الهدم يجب أن يسبق البناء؟

إنك لو أنعمت النظر فيما يُنسب إلى المسيح عليه السلام أو تلاميذه بما فيهم القديس بولس الذي لا يلتزم حدود المنطق، لما وجدت فيه ما يشفي الغليل. ففيمَ إذن هذه الأموال التي تنفق بسخاء على الإرساليات الأَجنبية؟ إن غير المسيحيين يبرهنون على صحة عقائدهم بالأدلة العقلية والمنطقية. أمَا يجدر بالمسيحيين أن يقرعوا الحجة بالحجة، ويحاربوا أَعداءهم بنفس سلاحهم؟

ومن الظواهر العجيبة التي تحار فيها الأَفهام بادىء الرأي ما هو مشاهد من فشل البعثات التبشيرية حتى في أوساط الجهلاء، وما هو مشاهد من انتشار الإسلام حتى في أوساط العلماء. ولكني أدلك على أحد الأسباب التي تميط اللِّثام عن هذا اللغز. ذلك أن القرآن ورسول الإسلام يعتمدان على العقل والمنطق، ويستشهدان بالظواهر الكونية على صحة العقائد التي يناديان بها، وفساد العقائد التي يرفضانها. ولم يكن محمد [صلى الله عليه وسلم] يدري شيئاً عن أي دين من الأديان غير السامية، ومع ذلك ترى القرآن - في سورة يس وغيرها من السُّور - يعالج موضوع تناسخ الأرواح علاجاً شافياً، ويُفَنِّد بالدليل كل ناحية من نواحي هذه

العقيدة. أما موضوع الوحي الإلهي فالقرآن يعالجه بأسلوب جميل في سورة النَّحل، ويبحث فيه بحثاً عقلياً، يشمل جميع نواحيه. فمثلاً: هل الوحي ضروري؟ ولماذا تكرر نزوله في مختلف الأمم والأقطار؟ وما أسبابه ومكانه وزمانه وكيفيته، ونهائيته، وما الداعي للتمسك ببعض الكتب الإلهية دون بعض مع وجود الكثير منها مما يتيح للمرء أن يختار ما يشاء؟ ثم يسأل بعضهم: فلنسلم ـ كما يقول القرآن ـ بأن الكتب السماوية السابقة قد دخلها التحريف والتبديل، أفما كان من الممكن تمييزُ ما اشتملت عليه من الحق، مما شابها من الباطل الدخيل؟

هذه هي الأفكار المختلفة التي ترد على بال كل مفكر، وبعضُها حديث العهد، ومع ذلك يعالجها القرآن جميعاً بأوضح بيان. ولقد بحثت هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً في كتابي المسمى (ضرورة الوحي). ولكن ضيق المقام لا يسمح بأن أورد هنا بعض محتويات هذا الكتاب.

الباب العاشر

المثل الأعلى للأسوة الحسنة

كان النبي صلى الله عليه وسلم خير أُسوة للناس، ويحق لي أن أَقول إنَّه النبيُّ الوحيد الَّذي مارس بالفعل، جميعَ المبادىء الَّتي كان يُلقِّنها للناس، ولن تجد في القرآن حكماً أَو أَمراً لم يعمل به النبي صلى الله عليه وسلم. وقد تقرأ لغيره كثيراً من الخطب والمواعظ والآراء الخيالية في الفضائل والأخلاق، ولكنك لا تجد لأَقوالهم صدَىً في أفعالهم. أَما النبي صلى الله عليه وسلم فهو نسيجُ وَحدِه في هذا المجال، إذ كان يمارس بالفعل، كلَّ ما كان يدعو إليه بالقول.

ولا يَعزُبَنَّ عن بالك أن وجود الشيء بالقوة، ليس دليلاً على وجوده بالفعل، فالفضائل السلبية ليست فضائل على الإطلاق، في حق معلم الأخلاق، لأَنَّها لا تكلفه عناءً، ولا تعود على الناس بفائدة، إذ الناسُ في حاجة إلى من يوضح لهم بطريقة عملية، ما يُلقَى عليهم من الدروس الخُلُقية. وقد يلقي الإنسان على غيره مواعظَ في العفو، وخُطباً في التَّواضع، ولكنَّ هذا التعليم الشَّفهي، لا يُعد دليلاً على اتصافه بما يعظ الناس به، وإنَّما الدليل هو تخلُّقه فعلاً بتلك الأخلاق. ثم لا يخفى عليك أن الإنسان لا يستطيع أن يعلم غيره ما لم يجربه هو بنفسه «وهل يَعرفُ

الشـوقَ إلا من يكابـده؟»، وإن من أراد أن يعلم الناس دروسـاً في الصَّبر والحلم، وجب أن يقاسي أشد المحن كمـا قاسىٰ محمـد وعيسىٰ عليهما السَّلام، على أن عيسى عليه السلام لم تتهيأ له الفرصة كما تهيأت للنبي صلى الله عليه وسلم ليُحقق بالفعل ما دعا إليه بالقول. والحق أنَّ من لم يمـارس أحوال الحيـاة، لا يمكن أن يكون قـدوة كاملة للنـاس من جميع الـوجوه. ولكـل صفةٍ من الصفـات الخُلُقية شـروط خاصـة يتوقف عليهـا ظهورها، ومتىٰ لم تتوافر هذه الشروط في المرء، تعذرت نسبة هذه الصفة إليه. ولا بد أن يذوق المرء كأس الضراء والسـراء ،حتى تظهـر فيه سـائر الأخلاق.

وقـد تقلب النبي صلى الله عليـه وسلم في كثيـر من أطـوار الحيـاة المختلفة من لدن كـان يتيماً إلى أن صـار مَلِيكاً، وَعَـرَضَت له في حيـاته حوادثُ متنوعة، اقتضت ظهورَ كثيـر من الأخلاق المختلفـة، فكانت كـل حادثة بمثابة محكّ لأخلاقـه، ولكنها كـانت تكشف في كل مـرة عن كرم معدنه. ولا ريب أن الناس بحاجة إلى المثل الكامل الذي يحتذونه في كل ضرب من ضروب الحياة. ولا ريب كذلك أن هذا المثل الكامل يتجلى في حياة النبي صلى الله عليه وسلم بأبلغ معانيه. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ملكاً، وسياسياً، ومحاربـاً، وقائـداً، ومشرعـاً، وقاضيـاً، وفاتحـاً، ومهاجراً، ومضطهَداً، وتاجراً، وصديقاً، وابناً، وأباً، وزوجاً، وجاراً، كل ذلك يتجلى بأجمل صورة في مِرآة حياته، وإذا أردنا الوقوف على حقيقـة أخلاقه. فما علينا إلا أن نقلِّب النظر في سجل أفعاله وأعماله من غيـر ما حاجة إلى مراجعة مواعظه وأقـواله. ويُعـد النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الناحية المثل الأعلىٰ، والقدوةَ الصالحة للجنس البشري كلِّه في سائر عصور التاريخ.

فالعفو ـ إذا أخذناه مثلاً ـ ألفيناه يقتضي شروطاً معينة، ما لم تتوافر في المرء كان في دعواه كاذباً. أوَّل هذه الشروط أن يلقَىٰ أشد الإساءة من أعدائه، وثانيها أن تدور الدائرة على هؤلاء الأعداء، فيقعون في قبضته، ويصبحون تحت رحمته، وثالثها أن يملك هو القدرة على القصاص منهم. وحكم الرحمة في ذلك حكم العفو، لا يستطيع أن يظهرها إلاَّ من وجد غيره تحت سلطان رحمته. وليس مجرد الدعوة إلىٰ الرحمة دليلاً أو قرينة علىٰ أن صاحبها موصوف بها على الحقيقة، اللَّهم إلاَّ إذا كان في وَضْع يسمح له باستعمال الرحمة. أَضف إلى ذلك أن الجاني أو المعتدي يعد العفو عنه تحقيراً لشأنه، إذا صدر هذا العفو من المَجْنِيِّ عليه، المغلوب على أمره. فعيسىٰ (كما يزعمون) دعا الله وهو على الصَّليب أن يعفو عن مُعَذبيه، وهذا ينبىء عن طيب سريرته، بيد أنه كان في وضعٍ أبعدَ من أن تتوافر فيه الشروط اللازمة لظهور صفة الرحمة، فهو لم يقهر أعداءه، ولم يخرَّ هؤلاء الأعداء صرعىٰ تحت قدميه، يرجون رحمته ويخشون عذابه. وإنك لو قلَّبت النظَّر في تاريخ الأديان، لما وجدت فيها سوىٰ مثل واحد توافرت فيه الشُّروط الثلاثة السَّابقة على ظهور العفو، أَلَا وهو محمد صلى الله عليه وسلم. تأمل دخوله مكة دخولَ الظَّافر المنتصر، وقد خرت جزيرة العرب صريعة تحت قدميه وأصبحت مكة ـ قلعةُ العدو ـ تحت رحمته، فلو شاء لقطع رؤوس القوم، الَّذين كانوا بالأمس أَلدَّ أَعدائه، الذين اتخذوه هُزُواً، وأمعنوا في اضطهاده والاستخفاف به. ولو أَنَّه عاقبهم بذنبهم، لكان مُحقًّاً، ولم يكن ملوماً. وقد عاقب كثير من أنبياء بني إسرائيل أَعداءهم، وعاقبوهم بشدة. وكذلك عاقب رامشَنْجه وكِرِشْنه ـ من أنبياء الهندوس وآلهتهم ـ أعداءهم من غير ما شفقة ولا رحمة. ولم تظهر فضيلة العفو قط بصورتها الكاملة في تاريخ أي دين من الأديان حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم، ولولاه لظلت هذه الفضيلة معطلةً إلىٰ الأبد.

«لم يكن للأغراض الشخصية أي دخل قط في أعماله صلى الله عليه وسلم، بل كان يرفض كل مظهر من مظاهر الخضوع والتسليم، كما كان ينبذ كلَّ مظهر من مظاهر الأبهة والسلطان. ولما جاء إليه أعداؤه والمتغطرسون، وهم صاغرون، قال لهم: يا معشر قريش! ماذا ترون أني فاعل بكم؟. كانوا قساة القلوب، غِلاظ الأكباد، ولكنهم كانوا يعلمون حقَّ العلم أنه أُشرِب في قلبه الرحمةَ فقالوا: خيراً: أَخٌ كريم وابن أَخٍ كريم. فقال: لا تثريب عليكم اليوم! اذهبوا فأنتم الطُّلقاء. وكان منهم هِند بنت عُتبة [1] أحدِ أشرافهم. وكان عتبة أشد الناس اضطهاداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه طوالَ السنوات الثلاثَ عشرة التي أقاموها بمكة. ولم تكن هند أقل من أبيها عداوة حتى لقد بلغ بها الحال أن مضغت كبد حمزة ـ عم النبي ـ في غزوة أُحُد. وخشِيت هند أن تواجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءت إليه، على وجهها نِقاب، حتىٰ لا يعرفها. ولكنه عرفها في الحال، ولم يشر أدنَىٰ إشارة إلى هذا الحادث الأليم. وهل أدل على ما طُبع عليه النبي صلى الله عليه وسلم من حب العفو والصفح، وسريانِ هذه الخصلة في نفوس أصحابه بتأثير حاله ومقاله، من أن هذه السيدة نفسها أصبحت أم الخليفة الأول في الدولة الأُموية؟

وكذلك كان أبو سفيان من أَلد أعدائه، وكان له القِدْح المعلَّى في الغزوات. التي شنتها قريش، وهو الذي غمزه في حضرةِ هرقل، ومن ثم لم يجرؤ على مواجهته دون أن يلتمس له شفيعاً عنده، فجاء بالعباس،

---

(1) هند بنت عتبة (ت ١٤ هـ/٦٣٥ م) أُم معاوية بن أبي سفيان تزوجت أباه بعد مفارقتها لزوجها الأوَّل الفاكه بن المغيرة المخزومي، كانت ممن أهدر النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم دماءهم يوم فتح مكة، وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، فجاءته مع بعض النسوة في الأبطح، فأعلنت إسلامها، ورحب بها، وأخذ البيعة عليهن، شهدت اليرموك، وحرَّضت على قتال الروم.

ولكنَّ النبي صلى الله عليـه وسلم لم يكن بحاجـة إلى شفيـع، فـأعـطىٰ أبو سفيان الأمان دون قيد ولا شرط، ونُوديَ في الناس: من دخل بيت أبي سفيـان فهو آمن. وكـان من أعدائـه أيضاً هَبَّـار بن الأسود[2]، الـذي يُعَدُّ مسؤولاً ـ بوجه مـا ـ عن قتل السيـدة زينب[3]، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما كان فتحُ مكة ضاقت عليه الأرض بما رَحُبت حتى أزمع الهرب إلى بلاد فارس حرصاً على حياته، ولكنه عدل عن الرحيل وجاء إلىٰ النبي صلى الله عليـه وسلم فقال لـه: «يا نبيَّ الله! لقـد هربت منـك في البلاد، وأردت اللحاق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتَك، وصلتَك، وصفحَك عمن جهل عليك، فاصفح عن جهلي، وعما كان يبلغك عني، فإني مقر بسوء فعلي، معترف بذنبي»، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد عفوت عنك»، وكان عِكْرِمـة بن أبي جهل من ألـد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم، وأشدهم إيذاء له، فخـرج هاربـاً إلى اليمن يوم الفتـح حتىٰ استأمنت له زوجتُه من النبي صلى الله عليه وسلم، وأدركته باليمن، فردته

---

(2) هَبَّار بن الأسود (ت بعد ١٥ هـ/بعد ٦٣٦ م)، جاء هبَّارُ النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم في الجعرانة ـ بعد فتح مكة ـ فأسلم، وفيه قال صلى الله عليـه وسلَّم: «الإسلام يَجُبُّ مـا قبله».

(3) زينب بنت سيد البشر محمد بن عبدالله القرشية الهـاشمية كبـرى بناتـه، تزوج بهـا ابن خالتها أبو العاص بن الرَّبيع، وولدت له علياً وأُمامة، فمات عليُّ صغيراً، وبقيت أُمامة فتزوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بعد موت فاطمة الزهراء، توفيت زينب رضي الله عنها سنة ٨ هـ/ ٦٣٠ م.
جـاء في الطبـري ٢/ ٤٧٠، وابن هشام ٢/٢١٦، الاكتفـاء ١/ ٩٤ بشأن هجـرة زينب رضي الله عنها: فلما فرغت من جهازها قدَّم لها حموها كنانة بن الربيـع بعيراً فـركبته، وأخذ قوسه وكنانته، ثم خرج بها نهاراً يقود بها، وهي في هودج لها، وتحـدث بذلـك رجال قريش، فخرجوا في طلبها حتى أدركوهـا بذي طَـوَى، فكان أوَّل من سبق إليهـا هَبَّار بن الأسود فروَّعها برمح وهي في هودجها، وكانت حاملاً، فلما ريعت طـرحت ذا بطنها.. إلى نهاية الخبر.

إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رآه قام إليه، فاعتنقه، وقال: مرحباً بالراكب المهاجر.

وإنك لو قلبت صفحات التاريخ ونظرت في مآثر الأمم المتمدنة، قديمها وحديثها، لما وجدت رجلاً آخر استطاع أن يضرب هذا المثل الرائع في التخلق بالفعل، بما يعدو إليه الناس بالقول. وفي هذا المقام يجدر بي أن أشير إلى ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من وضع دماء الجاهلية، التي كانت من أوابد العرب قبل ظهور الإسلام. فكانوا إذا قُتل لهم أحد يأخذون بثأره، مهما تطاول الزمن. وكان ربيعة ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم يعيش في طفولته في كفالة بني ليث، فقتله قوم من قبيلة هُذَيل، ولم يؤخذ بثأره، وانتقل حق الأخذ به إلىٰ النبي صلى الله عليه وسلم، فقال في خطبة الوداع: وإنَّ كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دمُ ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب.

وإذا كان القرآن الكريم يفصِّل لنا الأخلاق على اختلاف أنواعها، فإن حياة النبي صلى الله عليه وسلم تصورها لنا بألوانها الحقيقية. وقد تقلب من لدن كان يتيماً إلىٰ أن صار ملكاً في جميع مراتب الحياة، فمارس صروفها، ووفَّىٰ بحقوق المراتب كلها. وبذلك صار المثل الأعلى للقدوة الكاملة. فقد كان طفلاً، وشاباً، وشيخاً، وولداً، وأَخاً، وزوجاً، وجاراً، ورفيقاً، وجندياً، وقائداً، وفاتحاً، ومهاجراً، ومضطَهداً، وتاجراً، وملكاً، وقاضياً، ورجلاً في السَّراء والضراء. وكان في كل هذه المراتب على اختلافها هو هو لم يتغير من البداية إلى النهاية. وكان مثال السيد الكامل - أو (الجنتلمان) الحقيقي كما يقول الإنجليز - ثابتاً على العهد، لم يتغير طبعه ولا خليقته، ولا اختلفت معاملته للناس، ولا تغير أسلوب معيشته.

وقلما نجد ناحية من نواحي الحياة، أو حادثاً عارضاً من حوادثها، أو

حالة من حالاتها، إلاَّ وجدت في أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله ما يرشدك إلى الطريق السَّوي، وإلا وجدت فيها نوراً يهديك الصراط المستقيم، إذا أظلم عليك السبيل، وحار الدليل.

ومن فضائله صلى الله عليه وسلم أنَّه لم يفرض علينا شرائع جامدة محددة، يُحتم علينا اتباعها دون بحث ولا مناقشة. كلا! فإنه يشجع الرأي والاجتهاد، ويرشدنا إلىٰ مبادىء سمحة واسعة الأفق، تشمل شؤون الحياة المختلفة؛ ويترك لنا حرية التصرف طبقاً للظروف على هدى هذه المبادىء. هذا، وحياة النبي صلى الله عليه وسلم تفسير بليغ للقرآن الكريم، ولسنا بحاجة إلى الرجوع للمفسرين نستفتيهم في بيان الأحكام والفرائض التي تضمنها القرآن، فنحن نقرؤها واضحة جلية في صحف أفعاله صلى الله عليه وسلم. وكل ما أمرنا الله به، أو نهانا عنه، نجده مشروحاً في سجل أعماله. وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تستشهد بما كان صلى الله عليه وسلم يفعله حين تُسأل عن تفسير بعض الآيات القرآنية الخاصة بالأحكام العملية، كما كانت تتلو بعض آيات الذكر الحكيم، حين تُسأل عما كان صلى الله عليه وسلم يفعله في بعض الأحوال الخاصة. وجدير بالذكر أن كثيراً من المفسرين يسيرون على هذا النهج نفسه، فيستشهدون بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله في بيان أحكام القرآن التي تنيف على ٥٠٠ حكم وأمر، وكلها تتجلى في حياته. وكل ما ذكرته في عفوه صلى الله عليه وسلم، إن هو إلا تفسير لما أمر به الذكر الحكيم. وأزيد هنا ما ذكره القرآن الكريم في شأن تحرير العبيد ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾، ففي هذه الآية دعوة صريحة إلى أمر عملي هو «أن نحب أعداءنا» وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أسبق أتباعه إلى اتباع هذا الأمر. وفي وسعي أن أذكر كثيراً من

الأمثلة في هذا الباب، ولكني سأكتفي هنا بإيراد بعض الأمثلة التي تخلقه بالآداب القرآنية، التي تتطلب قوة خلقية خارقة للعادة.

* * *

الوفاء بالعهد

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِم خَاشِعُونَ، . . . وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِم رَاعُونَ﴾، [المؤمنون: ١ و٢ و٨].

لو أن هذا الأمر الإلهي نُفّذ على الوجه الأكمل، لكان العالم اليوم غير ما هو عليه. ولكننا نجد النبي صلى الله عليه وسلم قد وفَّىٰ به على الوجه الأكمل. ولقد استشهدت في صحيفة ١٣٦ ـ ١٣٨ ببعض الأمثلة التي يحسن بالحكومات المسيحية أن تتخذها نبراساً لها في احترام المعاهدات، التي يعقدونها كل يوم، ويتجلىٰ مقدار تقديسهم لها، في شدة الحرص على خرق نصوصها. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه حاكماً يعقد المعاهدات مع أعدائه، ويشترطون عليه شروطاً جائرة ليست في مصلحة الدَّعوة، فكان يقبلها، ويحافظ عليها في ظروف لو وُجد فيها الغربيون، لَطوَّعت لهم ضمائرهم الإقدام على نقضها. وكان عدد المسلمين في غزوة بدر أقل من عدوهم بكثير، وخرج رجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشهدا بدراً، فأخذهما كفار قريش، ولكنهم خلوا سبيلهما بعد أن أخذوا منهما عهد الله وميثاقه ليَنصرفان إلى المدينة، ولا يقاتلان معه، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبراه الخبر، فقال لهما «انصرفا. نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم»، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة إلى معونة رجل واحد.

* * *

عدله صلى الله عليه وسلم

وليست رعاية العدل بأيسر من رعاية العهد، ولا سيما إذا كان أحد طرفي الخصومة ينتمي إلىٰ معسكر العدو. ولكن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يأمُرُ بِالعَدْلِ والإحسَان﴾ [النحل: ٩٠]. ويقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعدِلُوا هُوَ أَقرَبُ للتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

ولم يكن أحد أحرصِ من رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة العدل، يروى أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخْزُومية التي سرقت. فقالوا: من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلَّم! قالوا: ومن يجترىء إلا أُسامةُ [بن زيد]، حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم! فكلَّمه أُسامة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أُسامة! أَتشفعُ فِي حدٍّ من حُدود الله؟»، قال أُسامة: «استغفر لي يا رسول الله!»، فلما كان العَشِي، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً، فأثنىٰ على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإنما أَهلك الناسَ قبلكم، أَنهم كانوا إذا سرق فيهم الشَّريف تركوه، وإذا سرق الضَّعيف أقاموا عليه الحد. والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها. (البخاري).

ولما دنا أَجله صلى الله عليه وسلم، نادى في الناس. أَيُّما رجلٍ كنت أصبت من ماله شيئاً، فهذا مالي فليأخذ، وأيما رجلٍ كنت أصبت من عرضه شيئاً، فهذا عرضي فليقتصَّ. واعلموا أنَّ أولاكم بي رجل كان له من ذلك شيء، فأخذه أو حلَّلني، فلَقِيت ربي، وأنا طيب النفس. فلم يقم إليه أحد من الناس إلا رجلاً واحداً قال يا رسول الله! إن لي عندك ثلاثة دراهم. فدُفِعت إليه في الحال. (الطبقات)

وبينما كانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم قَسْماً، أقبل رجل

فأَكَبَّ عليه، فطعنه رسـول الله صلى الله عليه وسلم بعُـرجون كـان معه، فجرح بوجهه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعال فاستقد. قال: بل عفوت يا رسول الله. (أبو داود).

كان النبي صلى الله عليه وسلَّم يعتبرالناس سَواسية كأسنان المُشْط، فكان يعامل فقيرَهم كغنيهم، شريفهَم كوضيعهم، سيدَّهم كخادمهم، دون ما نظر إلى مراتبهم أو منازلهم. فمثلاً كان يعامل سَلمان، وصُهَيباً، وبِلالاً - وكانوا عبيداً فأُعتقوا - معاملة الأحرار من أشراف قريش، فقد روي أن أبـا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال، فقالوا: والله، ما أخـذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. فقال أبو بكـر: أتقولـون هذا لشيـخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبره الخبر. فقال: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم! لئن كنت أغضبتهم، لقد أغضبت ربك. فأتاهم أبو بكر، فقال: يا إخوتاه! أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي! (مسلم).

وكان قريش في وقت الحج، يقفون في مكـان خاص بـالمزدلفـة، لأنَّهم كانوا يكرهون الاختلاط بعامة الناس، لما يرونه من كرم أحسابهم، والمزية عليهم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكره أن يتابع قريشاً على ذلك، وظل قبل الإسلام وبعده، يقف مع الناس حيث يقفون. أضف إلى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم، لم يتخـذ لنفسه في المـوقف مكانـاً ظليلاً يكون له خاصة، بل كان يقول «الرجل أحق بمجلسه» إذا سبق إليه. (المسند).

* * *

الإيثار (روح التَّضحية)

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسيراً﴾ [الإنسان: ٨].

﴿والَّذينَ تَبَوَّءوا الدَّارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا

يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِم حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ علىٰ أَنْفُسِهِم وَلَوْ كانَ بِهِم خَصَاصةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

كانت التضحية من أخص الصِّفات التي يمتاز بها النبي صلى الله عليه وسلم. كان يحب أولاده، وكانت ابنته فاطمة كثيراً ما تأتي لتزوره، فكان إذا رآها قادمة عليه، قام إليها، وأجلسها في مكانه، إظهاراً لحبه لها. ومع ذلك لم يكن في بيت ابنته خادم، فكانت تطحن بالرحى حتى مَجَلت يداها[4]، وتستقي بالقربة حتى أَثَّرت في نحرها. وعلمت فاطمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه سَبْيٌ فذهبت تستخدمه، ولكنها استحيت أن تسأله فرجعت. فذهب عليٌّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشكا إليه ما يلقى هو وزوجه من العناء، وسأله أن يُخْدمهما من السَّبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله لا أُعطيكما، وأدع أهل الصُّفَّة[5] تطوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم. (أبو داود والمسند).

وروي أن امرأة أهدت إلىٰ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بُردة، فأخذها محتاجاً إليها. فرآها عليه رجل من الصحابة، فقال: يا رسول الله ما أحسنَ

---

(4) مَجِلَت يدُه، ومَجَلَت تَمْجَل وتَمْجُل مَجَلاً ومُجُولاً: نَفِطَت من العمل فَمَرَنَت وصَلُبت وثَخُن جلدها وتعجَّر وظهر فيها ما يشبه البَثْرَ من العمل بالأشياء الصُّلبة الخشنة، (اللِّسان: مجل).

(5) أَهل الصُّفَّة: قال ابن سعد في طبقاته الكبرى ١/٢٥٥: كان أهل الصُّفَّة ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلَّم لا منازل لهم، فكانوا ينامون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في المسجد ويظلون فيه ما لهم مأوى غيره، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يدعوهم إليه بالليل إذا تعشَّى فيفرقهم على أصحابه، وتتعشى طائفة منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وقال أبو هريرة: رأيت ثلاثين رجلاً من أهل الصُّفَّة يُصَلُّون خلف رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ليس عليهم أردية، وقال واثلة بن الأسقع: رأيت ثلاثين رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلُّون خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأُزُر، أنا منهم.

هذه، اكسُنيها. فخلعها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعطاها له. فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم، لامه أصحابه، فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي صلى الله عليه وسلم محتاجاً إليها، ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئاً فيمنعَه. فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي صلى الله عليه وسلم، لَعلّي أُكفَّن فيها. (البخاري).

كانت الحوائط [البساتين] أحب أنواع العَقَار إلى العرب. وقد أوصى مُخَيْريق بأمواله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي سبعة حوائط: الميثَب، والصافية، والدلال، وحُسْنَىٰ، وبُرقة، والأعواف، ومَشْربة أُم إبراهيم. ولكنَّ النبي صلى الله عليه وسلَّم جعلها صدقة أي وقفاً تُقسم غلتها في أهل الحاجة. (فتح الباري).

تزوج أحد الصحابة، وليس عنده ما يُولم به لأصحابه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «اذهب إلى عائشة، فقل لها فلتبعث المِكْتَل الَّذي فيه الطعام»، فأتاها فقال لها ما أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: هذا المكتل فيه سبع آصُع شعير، لا والله إن أصبح لنا طعام غيره. (المسند)

ونزل رجل من غفار ضيفاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن في بيته عشاء سوى قليل من لبن عنزة، فحلبها لضيفه، وبات هو ليلته طاوياً. (المسند).

* * *

حُسْنُ المعاملة

﴿وأوفُوا الكَيْلَ إذَا كِلْتُم، وَزِنُوا بِالقِسطاسِ المُسْتَقِيم ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٥].

﴿إنَّ اللهَ يَأمُرُكُم أَنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أَهْلِها﴾ [النساء: ٥٨].

﴿قَدْ أَفْلَحَ المؤمِنُونَ. . . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِم وَعَهْدِهِم رَاعُونَ﴾، [المؤمنون].

كان النبي صلى الله عليه وسلم مبسوط اليد بالإنفاق، لأنه كان مطبوعاً على الكرم والجود، حتى إذا لم يجد ما ينفقه، حصل عليه بالدَّين. وقد توفي يوم توفي ودرعه مرهونة عند رجل من يهود، بوَسْق من شعير، إذ كان اليهود هم أهل الغنى والثراء في المدينة. ولعل خير شهادة له بالأمانة وحسن المعاملة، أن العرب كانوا يسمونه بالأمين قبل مبعثه، لما كانوا يعرفون من أمانته، وحسن معاملته.

أتى السائب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشهد شهادة الحق، وكان السائب تاجراً، فجعل الناس يُثنون عليه. فقال صلى الله عليه وسلم: أنا أعلمكم به. فقال السائب: صدقت! بأبي وأمي! كنت شريكي فنعم الشريك. كنت لا تداري ولا تماري. (أبو داود).

استلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من رجل بِكْراً[6]، ثم قضاه أفضل من سِنّه، وقال: إن خِيَارَ الناس أحسنهم قضاء. (مسلم).

وجاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يتقاضاه ديناً كان له عليه، فاشتد عليه حتىٰ قال له: أحرِّج عليك إلا قضيتني. فانتهره أصحابه، وقالوا: وَيحك! أتدري من تُكلم؟ قال: إني أطلب حقي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هلاَّ مع صاحب الحق كنتم؟ (ابن ماجة).

ابتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم من رجل من الأعراب جَزُوراً بوَسْق من تمر الذخيرة، فرجع إلى بيته، فالتمس له التمر، فلم يجده. فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا عبدالله إنا قد ابتعنا

---

(6) في اللِّسان: البِكْرُ: النَّاقة الَّتي ولدت بطناً واحداً.

منك جزوراً بوسق من تمر الذخيرة فالتمسناه، فلم نجده. فقال الأعرابي: واغدراه! فنهنهه الناس وقالوا. قاتلك الله، أتغدر رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً. ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا عبدالله! إنا ابتعنا جزائرك، ونحن نظن أن عندنا ما سميناه لك، فالتمسناه فلم نجده. فقال الأعرابي. واغدراه! فنهنهه الناس، وقالوا قاتلك الله! أتغدر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً»، فلما رآه لا يفقه عنه، بعث به إلى امرأة عندها تمر، وأوصاها أن تُوفيه الذي له، فلما رجع الأعرابي، مر بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهو جالس في أصحابه، فلم يتمالك حين وقعت عيناه على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال ـ متأثراً بما شاهد من كرمه وحسن معاملته ـ «جزاك الله خيراً، فقد أوفيت وأطبت»، (المسند).

أقبل قوم في ركب، ونزلوا قريباً من المدينة وكان معهم جمل أحمر، واتفق أن مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بهم. فسألهم عن ثمن الجمل، فأخبروه بثمنه، فقبله دون أن يَسْتوضعهم شيئاً. ثم أخذ برأس الجمل حتىٰ دخل المدينة فتوارى عنهم، فتلاوموا بينهم، وقالوا: «أعطيتم جملكم من لا تعرفونه؟». وكانت معهم ظَعِينة، فقالت: لا تلاوموا، فإنني ما رأيت وجه رجل أشبهَ بالقمر ليلة البدر من وجهه، تريد أن رجلاً كالنبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يعرف الغش. فلما كان العشاء بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتمر وطعام، وأمرهم أن يأكلوا، ويكتالوا حتى يستوفُوا ثمنهم، (الدارقطني).

أراد النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة حُنين أن يشتري سلاحاً من صَفوان [بن أُميَّة]، وكان لا يزال على الكفر فقال: يا صفوان! هل عندك

سلاح؟ قال: «عارِّية أَمْ غصباً؟» قال: لا، بل عارية، فأَعاره ما بين الثلاثين إلى الأربعين درعاً، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم حُنيناً، فلما هُزِمَ المشركون، جُمعت دروع صفوان، ففقد منها أدراعاً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصفوان: إنا قد فقدنا من أدراعك أدراعاً، فهل نغرَم لك؟ «قال: لا، يا رسول الله، لأن في قلبي اليوم ما لم يكن يومئذٍ»، (أبو داود).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتىٰ بجِنازة يسأل: هل على صاحبكم دَيْن؟ فإن قالوا نعم، أبىٰ أن يصلى عليه، وقال لهم: صلوا على صاحبكم، (البخاري).

* * *

كراهية الأثرة والتميُّز على أصحابه

﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم . . .﴾ [الكهف: ١١٠].

كان النبي صلى الله عليه وسلم يشارك أصحابه فيما يقومون به من الأعمال اليدوية. وبعد أن هاجر إلى المدينة، كان أول همه أن يقيم فيها مسجداً، وهو المسجد الذي عرف فيما بعد باسم المسجد النبوي. وقد ساهم النبي صلى الله عليه وسلم في بناء هذا المسجد كأي شخص آخر من العمال، فكان ينقل اللَّبِن. وقد حاول الصحابة أن يكفوه العمل، فيأتي الرجل ويقول: بأَبي وأُمي يا رسول الله! أعطني أكْفِك.

وحدَّث البراء قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الترابُ جلدةَ بطنه، (البخاري).

وكان صلى الله عليه وسلم في سفر، فأمر أصحابه بإصلاح شاة.

فقال رجل: عليَّ ذبحها. وقال آخر: عليَّ سلخها. وقال آخر: عليَّ طبخها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وعليَّ جمع الحطب. فقالوا: يارسول الله نكفيك العمل. فقال: قد علمت أنكم تكفوني، ولكن أكره أن أتميز عليكم، وإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً على أصحابه، (الزرقاني).

لم يكن مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر عدد كافٍ من النَّواضح، فكان كل ثلاثة على بعير. وكان علي بن أبي طالب، وأبو لبابة [رفاعة بن عبدالمنذر] زميلَيْ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان إذا كانت عُقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالا: نحن نمشي عنك. فقال: ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا أغنى عن الأجر منكما، (المسند).

* * *

نهيه عن الإطراء

﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا...﴾، [آل عمران: ١٨٨].

لا شك أن منشأ الشرك هو المبالغة في توقير الصالحين، والتغني بالثناء عليهم. ولقد فَطِنَ النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فكان يقول: لا تُطروني كما أطرت النَّصارىٰ ابنَ مريم. إنما أنا عبدالله ورسوله، (البخاري).

وروي عن قَيْس بن سعد قال: أتيتُ الحِيرَة فرأيتهم يسجدون لِمَرْزُبَان(7) لهم فقلت: رسول الله أحق أن يُسجَد له. قال: فأتيت النبي

(7) المَرْزُبَان: عند الفُرس: الرئيس في مقاطعة أو ولاية، وهو بمكانة المحافظ اليوم.

صلى الله عليه وسلم، فقلت: إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فأنت يا رسول الله أحق أن نَسجد لك. قال: أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟ قال: قلت «لا» قال: فلا تفعلوا، (أبو داود).

وعن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ بن عفراء قالت: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليَّ صبيحة بُنِيَ بي، فجلس على فراشي كمجلسك مني، فجعلت جُوَيريات يضربن بدُفٍّ لهن، ويندُبن من قُتل من آبائي يوم بدر إذ قالت إحداهن: «وفينا نبيٌّ يعلم ما في غد» فقال: دعي هذه، وقولي الذي كنت تقولين»، (البخاري).

* * *

خفض الجناح ولين الجانب والحياء والتواضع

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنتَ لَهُم. . .﴾، [آل عمران: ١٥٩].
﴿وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً. . .﴾، [الإسراء: ٣٧].
﴿قُل للمُؤْمِنينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهم. . .﴾، [النور: ٣٠].
﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّي الفَوَاحِشَ. . .﴾، [الأعراف: ٣٣].
﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأَرْضِ هَوْناً﴾، [الفرقان: ٦٣].

جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أشد حياء من العذراء في خِدرها، وكانت حركاته وأفعاله تَنِمُ عما طُبع عليه من الحياء، فكان لا يشافه أحداً بما يكره حياءً وكرمَ نفس، ويمشي بين الناس في غير ظهور ولا حفل، ولا يرفع صوته بالضحك، بل كان جُلُّ ضحكه التبسم. وكان إذا كره شيئاً لم يصرح بكراهيته له لشدة حيائه، ولكن يظهر في وجهه أثر كراهيته له.

لم يكن العرب يحفِلون كثيراً بأمر الحياء، فكانوا يستحمون عُراة،

ويطوفون بالبيت عراة. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكره كل ما يخدِش وجه الحياء، وينهي الرجل أن يدخل الحمام إلا بإزار، كما كان ينهي أن يطوف الرجل بالبيت وهو عُريان. وقد روي عنه أنه قال: احذروا بيتاً يقال له الحمام. قالوا يا رسول الله، إنه يذهب بالدَّرَن، وينفع المريض. قال: فاستتروا. ولم يكن في بلاد العرب نفسها حمامات عامة، ولكنها كانت في البلاد المتاخمة لها. ولهذا السبب نفسه قال صلى الله عليه وسلم: إنَّها ستُفتح لكم أرض العجم، وستجدون فيها بيوتاً يقال لها الحمامات، فلا يدخلنّها الرجال إلا بالأُزر.

ويُروي أن نسوة من أهل حِمص، دخلن على أم سَلَمة [هند بنت أبي أُميَّة، زوج النبي] فسألتهن من أنتن؟ فقلن: من أهل حمص. فقالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أيُّما إمرأةٍ نزعت ثيابها في غير بيتها، خرق الله عنها ستراً. وروى أبو داود في سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن دخول الحمامات، ثم رخَّص للرجال أن يدخلوها في المآزر، ولكنه لم يرخص للنساء. وكان مُعاذ بن جبل يَؤُم بالناس في أحد أحياء المدينة، فكان يقرأ في الصلاة بطوال السور، فأتى رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فشكا إليه معاذاً، وقال «والله يا رسول الله، إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا». ويقول ابن مسعود الأنصاري إنه لم ير النبي صلى الله عليه وسلم في موعظة أشد غضباً منه يومئذٍ، ثم قال: «إن منكم مُنَفِّرين، فأيكم صلىٰ بالناس فليتجوَّزْ، فإنَّ فيهم الضعيفَ والكبير وذا الحاجة»، (البخاري).

كان النبي صلى الله عليه وَسَلَّم يستأني في أمر العقاب، ويتروى في إقامة الحدود، ويُؤْثر عليها العفو ماستطاع ،جاء إليه رجل فقال يا رسول الله إنِّي أصبت ذنباً، ثم طلب إليه أن يقيم عليه الحد، فأعرض عنه. فلما

قضى النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة، قام الرجل، فأعاد القول. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أليس قد صليت معنا هذه الصلاة..؟» قال: بلى. قال: فإنها كفّارة ذنبك.

وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يميل إلى التَّشديد على أتباعه، بل كان يجنح إلى التخفيف والتيسير في الأحكام والكفارات، جاء إليه رجل فقال: هلكت، فقال: وما ذاك؟ قال: وقعت بأهلي في رمضان. قال تجدُ رقبه؟ قال: لا. قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا، قال: فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟ قال: لا. قال فجاء رجل من الأنصار بعَرَق ـ والعَرَق المِكتل من التمر ـ فقال اذهب بهذا، فتصدق به. قال: على أَحوَج منا يا رسول الله؟ والذي بعثك بالحق، ما بين لابَتَيْها ـ يعني الحَرَّتين ـ أهلُ بيت هم أحوج منا. قال: إذهب، فأطعمه أهلك، (البخاري).

* * *

كراهيته للمدح والثناء

كان النبي صلى الله عليه وسلم يكره المدح بطبعه، حتى ولو كان صادقاً، ولا يقبله حتىٰ ولو وُجه لشخصه. روي أن رجلاً ذُكر عنده، فأثنى عليه رجلٌ خيراً. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وَيْحَك! قطعت عنق صاحبك ـ يقوله مراراً ـ إن كان أحدكم مادحاً لا محالة، فليقل: أحسب كذا وكذا. وجاء الأسود بن سريع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! إني حمدت ربي تبارك وتعالى بمحامد ومدح، وإياك. فقال: أما أن ربك تبارك وتعالى يحب المدح. هات ما امتدحت به ربك تبارك وتعالى. قال: فجعلت أُنشده، فجاء رجلٌ، فاستنصتني له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل الرجل فتكلم ساعة ثم خرج، ثم أخذت أُنشده،

ثم رجع بعد، فاستنصتني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله! من ذا الذي تستنصتني له؟ فقال: هذا رجل لا يحب الباطل.
(المسند)

* * *

الخُلُقُ العظيم

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

حدث عباد بن شرحبيل قال أصابتني سَنَة، فدخلت حائطاً من حيطان المدينة، ففركت سنبلاً، فأكلت وحملت في ثوبي، فجاء صاحبه فضربني وأخذ ثوبي، فأتى بي النبي صلى الله عليه وسلم، فذكَر ذلك له، فقال له: ما علَّمتَ إذ كان جاهلاً، ولا أطعمتَ إذ كان جائعاً. فأمره، فردَّ عليَّ ثوبي وأعطاني وسَقاً[8] من طعام، (أبو داود).

استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ائذنوا له، بئس أخو العشيرة. فلما دخل ألَان له الكلام. فقالت عائشة: يا رسول الله! قلتَ الَّذي قلتَ، ثم ألنت له الكلام. فقال: أي عائشة! إن شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه.

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً يوماً، فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه، فجلس عليه. ثم أَقبلتَ أُمُّه،

(8) الوَسْقُ والوِسْقُ: مكيلة معلومة، وقيل: هو حمل بعير، وهو ستون صاعاً بصاع النبي صلى الله عليه وسلَّم، (اللِّسان: وسق)، وصاع النبي الشرعي عند الحنفية ٣٢٩٦غ، وعند الشافعية والحنابلة والمالكية ٢١٧٥ غ، (انظر كتاب: الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، لأبي العباس نجم الدِّين بن الرفعة الأنصاري المتوفى ٧١٠ هـ/١٣٠١ م تحقيق الدكتور محمد أحمد إسماعيل الخاروف ـ جامعة الملك عبد العزيز).

فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر. ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجلسه بين يديه.

وبينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقسم لحماً، إذا أقبلت امرأة تريد أن تراه، فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل احترام، وبسط لها رداءه، فجلست عليه. يقول الرَّاوي: فقلت من هي؟ فقالوا: أمُّه التي أرضعته[9]. (أبو داود).

* * *

* *

*

(9) حليمة السَّعْدية (ت بعد ٨ هـ/بعد ٦٣٠ م): حليمة بنت أبي ذؤيب عبدالله بن الحارث بن شِجْنة بن جابر السَّعدي البكري الهوازني، من أُمهات النبي صلى الله عليه وسلَّم في الرَّضاع، كانت زوجة الحارث بن عبدالعُزَّى السَّعْدي من بادية الحديبية.. قدمت مع زوجها بعد النبوة فأسلما، وجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلَّم يوم حنين، وهو على الجعرانة، فقام إليها وبسط لها رداءه فجلست عليه، ولها رواية عن النبي صلى الله عليه وسلَّم روى عنها عبدالله بن جعفر، (ذخائر العقبىٰ في مناقب ذوي القُرْبى ٢٥٩..).

الباب الحادي عشر

معدن الفضائل كلها

إن ضيق المقام يحول دون تفصيل القول في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في شتى مناحيها، لأن الشخصية الفذَّة في التاريخ التي اجتمع فيها ما تفرق في أهل الفضل من الكمالات. فزهده، ومروءته، وكرمه، وقصده، وسعة صدره، وحلمه، وهمته، ووفاؤه وثباته في الشَّدائد، وتواضعه مع علو منصبه، ورفقه بالحيوان، وحبه للأطفال، وشجاعته، وإقدامه، وشهامته، وإقامته للعدل.. كل أولئك يحتاج إلى مجلدات للوفاء بحق هذه الشخصية الخارقة للعادة.

وفيما يلي وصف لأخلاقه نقلاً عن الإمام الغزالي، وهو أحد العلماء المشهورين عند الأوروبيين. ولم أزد على ما ذكره إلا القليل. وقد يجد القارىء فيه شيئاً من التكرار لما سبق أن ذكرت، ولكن عذري للقارىء هو أني أردت أن أدل الذين يزعمون في هذا البلد (إنجلترة) أَنَّهم حجة في التاريخ الإسلامي، على مادة غزيرة ما كان أجدرهم أن يقتبسوا منها إذا كانوا يحرصون حقاً في الكتابة عن النبي صلى الله عليه وسلم على توخي الحقيقة والإنصاف. ولكنهم للأسف يعالجون هذا الموضوع بروح يختلف عن هذا المعنى، فتراهم يحتجون بالواقدي ـ وهو راو خيالي ـ بدلاً من أن

يرجعوا إلى أَقوال الثقات من المسلمين.

كـان صلى الله عليه وسلم أحلم النـاس، وأشجع النـاس، وأعدل الناس، وأعف الناس، وأسخى الناس، لا يبيت عنده درهم ولا دينار، وإن فضل شيء، ولم يجد من يعطيه، وفَجَأه اللَّيل، لم يأوِ إلى منزله حتىٰ يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه. لا يأخذه مما آتاه الله إلا قوتَ عامِهِ فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير، ويضع سائر ذلك في سبيل الله، لا يُسأل شيئاً إلَّا أعطاه. ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتىٰ إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء. وكان يخصِف النعل، ويرقَـع الثوب، ويخـدُم في مهنَة أهله. وكان أشد الناس حياء، لا يثبت بصره في وجه أحد «وكان يكرم العظماء، ويرحم الضعفاء، ويتكبـر على المتكبرين، فـلا عجب أن ظفِر باحترام الناس وإعجابهم».

وقد عاتبـه الله تعالى لإعـراضه عن رجـل أعمى[1] أتاه وهـو يدعـو أشراف قريش إلى الإسلام، فقال: يا رسول الله علِّمني ممـا علَّمك الله! فجعل يعرض عنه، ويقبل على الآخـرين، فنزل فيـه سورة عَبَس، فكـان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه بعدها، ويقول: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، واستخلفه على المدينة مرتين.

وكان صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة الحر والعبد، ويقبل الهدية ولـو أنها جـرعة لبن أو فخـذ أرنب، ويكافىء عليهـا، ويأكلهـا ولا يأكـل

---

(1) عبـدالله بن أُمِّ مكتـوم: عمـرو بن قيس بن زائـدة بن الأصم، (ت ٢٣ هـ/٦٤٣ م)، صحابي، كان ضرير البصر، أسلم بمكة، وهاجر إلى المدينة بعـد وقعة بـدر الكبرى، وكان يؤذِّن لرسول الله صلى الله عليه وسلَّم في المدينة مع بلال، وكـان النبي يستخلفه على المدينة يصلي بالنَّاس، في عامَّة غزواته، وحضر حرب القادسية ومعه رايـة سوداء وعليه درع سابغة، فقاتل ـ وهو أعمى ـ ورجع بعدها إلى المدينة، فتوفي فيها، قبيل وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الصدقة، ويجيب دعوة الأَمَة والمسكين. يغضب لربه ولا يغضب لنفسه، وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه. عُرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين، وهو في قلة وحاجة إلىٰ إنسان واحد يزيد في عدد من معه، فأبى وقال: أنا لا أنتصر بمشرك. وكان مرَّةً يعصب الحجر على بطنه من الجوع، ومرةً يأكل ما حضر، ولا يرد ما وجد، ولا يتورع عن مطعم حلال. إن وجد تمراً دون خبز أكله، وإن وجد شِواءً أكله، وإن وجد خبز بُرٍّ أو شعير أكله، وإن وجد حلواً أو عسلاً أكله وإن وجد لبناً دون خبز اكتفى به، وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله. لم يشبع من خبز بُرّ ثلاثة أيام متوالية حتىٰ لَقِي الله تعالى إيثاراً على نفسه، لا فقراً ولا بخلاً. وكثيراً ما كان يطوي الأيام، لا يدخل فمه طعام، وتمضي الشهور لا توقد في أبياته نار، إن هو إلَّا التمر والماء، وذلك كله في أيام المدينة التي كان فيها صاحب النفوذ والسلطان، ومع ذلك كان يُصلح ثوبه، ويحلب شاته.

وكان صلى الله عليه وسلم يجيب الوليمة، ويعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويذهب إلى بيوت المساكين ليعزي المصابين، ويواسي المنكوبين، ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس. ولم يُرَ أكرم منه لضيفه دون مَنٍّ ولا مباهاة، وكان لا يأكل وحده، بل يدعو أصحابه ليأكلوا معه.

وكان أبلغ الناس في غير تطويل وكان دائم البشر. وكان يخزُن لسانه إلا فيما يعنيه. وكان يتكلم بكلام يبينه، فصلٍ يحفظه من جلس إليه. وكان الحياء والرفق والصبر والإيثار والكرم يَغلب على طبعه ولا يهوله شيء من أمور الدنيا، ويلبس ما وجد فمرَّةً شملةً، ومرةً بُردَ حِبرة يمانياً(2)، ومرةً

(2) الحِبَرَةُ والحَبَرَةُ: ضربٌ من برود اليمن مُنَمَّر، والجمع حِبَرةٌ وحِبَرات، (اللِّسان: حبر).

جبةَ صوف. وكان خاتمه فضة، يلبسه في خنصره الأيمن والأيسر.

يركب ما أمكنه: مرة فرساً، ومرة بعيراً، ومرة بغلة شهباء، ومرة حماراً، ومرة يمشي راجلاً حافياً بلا رداء، ولا عمامة، ولا قلنسوة، يعود المرضى في أقصىٰ المدينة. يحب الطيب، ويكره الرائحة الرديئة، ويجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم. لا يجفو على أحد. يقبل معذرة المعتذر إليه. «وكان يعامل ألد أعدائه بالحلم والرفق. أما أعداء الله والدين فلا تأخذه بهم رأفة. وكان في ساعة النصر ينسى كل ما وُجِّه إليه من السخرية والأذىٰ والبغي والعدوان، ويشمل بعفو وصفحه أشد الناس إجراماً في حقه».

وكان لا يقول إلا حقًّاً في الرضى والغضب، جُلُّ ضحكه التبسم، من غير قهقهة. يرى اللعب المباح فلا ينكره، ويسابق أهله. وتُرفع عليه الأصوات فيصبر. وكان له لقاح وغنم، يتقوت هو وأهله من ألبانها. وكان له خدم وإماء لا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس. ولا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى، أو فيما لا بد منه لصلاح نفسه. يخرج إلى بساتين أصحابه، لا يحتقر مسكيناً لفقره وزمانته، ولا يهاب ملكاً لملكه، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستوياً. قد جمع الله له السِّيرة الفاضلة، والسِّياسة التامة، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، نشأ في بلاد الجهل والصحارى، فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق، والشيم الحميدة، والخصال السنية. وكان أوفى الناس ذمة لمن دخل في عقده، وأعذب النَّاس حديثاً.

وما شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً بشتَيمة من المؤمنين إلا جعل لها كفارة ورحمة، وما لعن إمرأة قط ولا خادماً بلعنة. وقيل له وهو في القتال: لو لعنتهم يا رسول الله! فقال: إنما بُعثت رحمة، ولم أُبعث

لعَّاناً. وكان إذا سئل أن يدعو على أحد ـ مسلمٍ أو كافر ـ عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له. وما ضرب بيده أحداً قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى. وما انتقم من شيء صُنع إليه قط إلا أن تُنتهك حرمةُ الله تعالى. وما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم، فيكون أبعد الناس منه. وما كان يأتيه أحد، حُرٌّ أو عبد أو أَمَة، إلَّا قام معه في حاجته. وكان أقل مملوك يأخذ بيده، وينطلق به إلى سيده، لينصفه منه أو ليعتقه. ومن حديث أنس: والذي بعثه بالحق ما قال في شيء قط كرهه لم فعلَته؟ وما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مضجعاً: إن فرشوا له اضطجع، وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض. وكان من خُلُقه أن يبدأ من لَقِيَه بالسلام، ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف. وكان إذا لقي أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة، ثم أخذ بيده فشابكه، ثم شد عليها قبضته جالساً أو قائماً، وما أخذ أحدٌ بيده، فيرسلَ يده حتى يرسلَها الآخر.

وكان لا يقوم ولا يجلس إلَّا على ذكر الله. وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف من صلاته، وأقبل عليه، فقال: ألك حاجة؟ فإذا فرغ من حاجته، عاد إلى صلاته.

وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً، ويمسك بيديه عليهما شبه الحَبْوَة. ولم يكن يُعرَف مجلسه من مجلس أصحابه، لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس، وما رُئِيَ قط مادّاً رجليه بين أصحابه حتى لا يُضيِّق بهما على أحد، إلا أن يكون المكان واسعاً لا ضيق فيه. وكان يعود المرضى، ويشيع الجنازة. وكان يكرم من دخل عليه، حتى ولو لم تكن بينه وبينه قرابة أو رضاع. وكان يُعطي كل من جلس إليه نصيبَه من وجهه، حتى كان مجلسه، وسمعه، وحديثه، وتوجهه للجالس إليه. ويقف في

الطريق يستمع لشكوى المساكين ويبسط لهم رداءه يجلسون عليه. وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل. وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطىَ كل من جلس إليه نصيبه من وجهه. وكان مجلسه مجلس حياء وتواضع وأمانة. قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، [آل عمران: ١٥٩]، ولقد كان يدعو أصحابه بكُناهم إكراماً لهم، واستمالةً لقلوبهم، وَيُكني من لم تكن له كُنية، فكان يُدعى بما كَنَّاه به. ويكني أيضاً النساء اللاَّتي لهن الأولاد، واللاتي لم يلدن يبتدىء لهن الكُنية. وكان أرحم الناس بعياله، وتوفي أحد أولاده (إبراهيم) وقد ضمه إليه، وهو في بيت ظِئره، وقد امتلأ البيت دخاناً. وكان إذا مر بالصبية يُقرئهم السلامَ ويقبلهم، ويلتزمهم، ويكنيهم، فيستلين به قلوبهم. وكان أبعد الناس غضباً، وأسرعهم رضا، وكان يقول عند المعتبة: ماله تَرِب جبينُه.

وكان أرأف الناس بالناس، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس. ولم تكن تُرفع في مجلسه الأصوات، وكان إذا قام من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

* * *

بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم

كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وأسخاهم، وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة، لا يمسك شيئاً. وكان عليٌّ رضي الله عنه إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم يقول: كان أجود الناس كفّاً، وأوسع الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وأَلينهم عريكة،

وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أرَ قبله ولا بعده مثله، وما سئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه. وإن رجلاً أتاه فسأله، فأعطاه غنماً سدت ما بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: «أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة»، وما سُئل شيئاً قط فقال «لا». وحُمل إليه تسعون ألف درهم، فوضعها على حصير، ثم قام إليها فقسمها، فما رد سائلاً حتىٰ فرغ منها. وجاءه رجل فسأله، فقال: ما عندي شيء، ولكن ابتع عليَّ، فإذا جاءنا شيء قضيناه. فقال عمر: يا رسول الله! ما كلفك الله ما لا تقدر عليه! فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله! أنفق، ولا تخشى من ذي العرش إقلالاً. فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم، وعُرف البشر في وجهه، وقال «بهذا أُمرت»، ولما قَفَل من حُنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة، فخَطِفت رداءه، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «أعطوني ردائي. لو كان لي عدد هذه العِضاة نَعَماً لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً» (3).

وقد بلغ من شهرة النبي صلى الله عليه وسلم بالكرم والجود، أن جاء أعرابي ـ وقد أُقيمت الصلاة ـ فأخذ بثوبه، فقال إنَّما بقي من حاجتي يسيرة وأخاف أنساها. فقام صلى الله عليه وسلم معه حتى فرغ من حاجته ثم أقبل فصلى. ويقول صلى الله عليه وسلم في حديثه مع أبي ذر [الغفاري،

(3) قال صلى الله عليه وسلَّم: «أَيُّها النَّاس، ردُّوا عليَّ ردائي، فوالَّذي نفسي في يده، لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نَعَماً لقسمته عليكم»، «فلو كان عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً»، وما أَلفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذَّاباً»، (الاكتفاء ١/١٤٩، الكامل في التاريخ ٢/١٨٣، ابن هشام ٤/١٠١، السِّيرة الحلبية ٣/١٣٨، الطبري ٣/٨٩).

جندب بن جنادة] «ما يسرني أن عندي مثل أُحُد ذهباً، تمضي عليَّ ثالثة، وعندي منه دينار. . .» . وأتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البَحْرين، فقال: انثروه في المسجد، ثم خرج إلى الصلاة، ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة، جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه وكان العباس قد أُصيب بفاقة في غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المال ما ناء بحمله. ولم يقم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثَمَّ من هذا المال درهم.

وعن أُمِّ سَلَمة [هند بنت أَبي أُميَّة] - زوجة النبي - قالت دخل على رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وهو سَاهِمُ الوجه، فحسبت ذلك من وجع. فقلت يا رسول الله مالي أراك ساهمَ الوجه؟ فقال: من أجل الدنانير السبعة التي أتتنا أمس، وأمسينا ولم ننفقهن، فكن في خُصْم الفراش، ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قام بعد صلاة العصر مُسرعاً يتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففَزِعَ النَّاسُ من سرعته، فخرج عليهم، فرأى أنهم عجبوا من سرعته، فقال ذكرت شيئاً مِنْ تِبْرٍ عندنا، فكرهت أن يحبسني، فأمرت بقسمته.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحَرِّم الصدقة على نفسه وعلى أهله، ويقول: «إِنِّي لأَنقلب إلى أهلي، فأجد التمرة ساقطة على فراشي، فأرفعُها لآكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة، فأُلقِيهَا».

ويروى أن الحسن [بن علي بن أبي طالب] - سبطَ رسول الله صلى الله عليه وسلم - أخذ تمرةً من الصدقة، فجعلها في فيه، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخرجها من فيه، وقال: «أما علمت أن آل محمد لا يأكلون صدقة».

* * *

بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: «لقد رَأيْتُنَا يوم بَدْر، ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأساً».

وقال أيضاً: «كنا إذا حَمِيَ البأس، ولقي القومُ القومَ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقربَ إلى العدو منه».

وقال: كان قليل الكلام، قليل الحديث، فإذا أمر الناس بالقتال تشمر، وكان من أشد الناس بأساً، وكان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب لقربه من العدو. ولما غشيه المشركون [يوم حُنين]، نزل عن بغلته فجعل يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب»[4].

وفي عام ثمان من الهجرة غزا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حُنيناً، فاستقبلهم بنو هوازن بالسهام، فرشقوهم رشقاً، ما يكادون يخطئون. وكان المسلمون أَقل عدداً من عدوهم، فولى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ولكنه لم يبرح مكانه، ولم يتزحزح، بل طَفِق يركُض بغلته قِبَل الكفار، ولكن أصحابه المخلصين كانوا يكفونها إرادةَ ألا تسرع، وظل النبي صلى الله عليه وسلم هَدَفاً لسهام العدو، وما رئي يومئذٍ أحد كان أشد منه حتى لقد سأل رجلُ البراء [بن عازب] رضي الله عنه[5]،

(4) وقال صلى الله عليه وسلَّم: «أنا ابن العواتك من سُلَيم»، انهزموا وربِّ محمد»، «انهزموا وربِّ الكعبة»، (السيرة النبوية لابن كثير ٦٢٨/٣، الطبقات الكبرى لابن سعد ١٥١/٢).

(5) سئل البراء بن عازب: أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يوم حنين؟ فأجاب: لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر، كانت هوازن رماةً، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم، فاستقبلتنا بالسِّهام، ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه=

وكان شهد يوم حُنين: أكنتم ولَّيتم يوم حنين يا أبا عمارة؟ فقال أشهد على نبي الله صلى الله عليه وسلم ما ولَّى، بل كنا إذا احمرَّ البأس نتقي به، وإن الشجاعَ منا للَّذي يحاذي به.

وعن أنس [بن مالك] خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهلُ المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت، فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم قد استبرأ الخبر، وهو على فرس لأبي طَلحة [زيد بن سهل الأنصاري] عُرْى، وفي عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا.

ويَرْوى ابنُ حنبل في مُسنده الصحيح المشهور أن المسلمين كانوا يوم بدر [الكبرى] يلوذون بالنبي صلى الله عليه وسلم. وكان العدو يومئذٍ كامل العدة والعدد، مزهُوًّاً بقوته، يبعث الرعب في نفوس المسلمين، وكانوا حفنة من المحاربين (لا يزيدون على ثلاثة مئة رجل إلا قليلاً)، فكانوا ـ لافتقارهم في العدة والعدد ـ يتقون من العدو برسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أثبت الناس يومئذٍ جأشاً (6).

* * *

= وسلَّم على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب آخذ بزمامها وهو يقول:

أَنَا النَّبِيُّ لاكَذِبْ أَنَا ابنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ

«اللَّهم نَزِّل نصرك»، قال البراء: ولقد كنا إذا حمي البأس نتَّقي برسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وإن الشُّجاع الَّذي يُحاذي به.

(6) قال علي رضي الله عنه: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلَّم وهو أقربنا من العدو، كنا إذا حمي البأس، ولقينا القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلَّم»، (البداية والنهاية ٣/ ٢٧٩).

بيان عفوه صلى الله عليه وسلم

كان النبي صلى الله عليه وسلم أحلم الناس، وأرغبهم في العفو مع القدرة، حتى لقد أُتي بقلائد من ذهب وفضة، فقسمها بين أصحابه، فقام رجل من أهل البادية فقال: يا محمد! والله لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك تعدل! قال: ويحك! فمن يعدل عليك بعدي؟ فلما ولّى قال: ردوه عليَّ رُوَيداً. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرب، فرأوا من المسلمين غرة، فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسيف صُلْتاً في يديه، فقال: من يمنعك مني؟فقال: «الله»، قال الراوي: فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف، وقال من يمنعك مني؟ قال كن خير آخذ! قال: قل أشهد أن لاإله إلا الله وأني محمد رسول الله، فقال: لا، غير أني لا أقاتلك، ولا أكون معك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فجاء أصحابَه، فقال: جئتكم من عند خير الناس.

وعن أنس أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة ليأكل منها، فجيء بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فسألها عن ذلك، فقالت: أردت قتلك. فقال: ما كان الله ليسلطك على ذلك! قالوا: أفلا تقتلها؟ فقال «لا»[7].

---

(7) لما اطمأن النَّاس بعد فتح خيبر (المحرَّم ٧ هـ) جعلت زينب بنت الحرث، وهي امرأة سلام بن مشكم، تسأل: أي الشّاة أحب إلى محمد؟ فيقولون: الذراع، فعمدت إلى عنزٍ لها فذبحتها وسلختها وطبختها، ثم عمدت إلى سم لا يلبث أن يقتل من ساعته، فسمَّت الشاة، وأكثرت في الذراعين والكتف، إلى آخر الخبر في: ابن هشام ٢١٨/٣، ابن خلدون ٣٩/٢، الطبري ١٥/٣، البداية والنهاية ٢٠٨/٤، الكامل في التاريخ ١٥٠/٢، الرَّوض الأُنف ٦٢/٤، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير ٣٩٤/٣ و٣٩٨..

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة، فقال رجل من الأنصار: هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله، فذُكِر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فاحمر وجهه وقال: «رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وكان صلى الله عليه وسلم يقول: لا يُبلِّغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم، وأنا سليم الصدر.

وكان صلى الله عليه وسلم رقيق البشرة، لطيف الظاهر والباطن، يُعرَف في وجهه غَضَبهُ ورضاه، وكان لا يشافه أحداً بما يكره. دخل عليه رجل، وعليه صفرة، فكرهها، فلم يقل له شيئاً حتى خرج، فقال لبعض القوم: لو قلتم لهذا أن يدع هذه! يعنى الصفرة.

* * *

بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أشد الناس تواضعاً في علو منصبه، وكان يعود المريض، ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، وكان يصنع في بيته مع أهله في حاجتهم، وكان يمر على الصبيان، فيسلم عليهم. وأُتي صلى الله عليه وسلم برجل فأرعد من هيبته، فقال له: هَوِّن عليك! فلست بمَلِك! إنما أنا ابنُ امرأة من قريش، [كانت] تأكل القَديد. وكان يجلس بين أصحابه، مختلطاً بهم، كأنه أحدهم، فيأتي الغريب فلا يدري أيُّهم هو، حتى يسأل عنه، حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلساً يعرفه الغريب، فبنوا له دكاناً من طين، فكان يجلس عليه. وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال لَبَّيك. وكان إذا جلس مع الناس، إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم، وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم، وإن تكلموا في الدنيا تحدث معهم، رفقاً

بهم وتواضعاً لهم. وكانوا ينشدون الشعر بين يديه أحياناً، ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية، ويضحكون فيبتسم هو إذا ضحكوا، ولا يزجرهم إلا عن حرام.

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه، فقاموا له، فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضهم بعضاً. وليس أبلغ في الدلالة على منتهى تواضعه، من أنه كان يكره الألقاب التي كان جديراً بها من غير شك.

ويروى أن رجلاً من أصحابه قال له «يا رسول الله! أنت سيدنا، وذو الطَّوْل علينا» فقال: «السيِّدُ الله. لا يستهوينكم الشيطان. إني لا أُريد أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله تعالى. أنا محمد بن عبدالله، عبده ورسوله»، وجاء إليه رجل، فقال يا خير البرية! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاك إبراهيم عليه السلام. وعن عبدالله الشخِّير قال: إنطلقت في وفد بني عامر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا: «أنت سيدنا»، فقال: «السيِّدُ الله»، قلنا: «وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً»، فقال: «قولوا بقولكم، ولا يَستجْرِينَّكم الشَّيطان»، ومعلوم أن الإنسان يكون أبعد ما يكون عن التواضع إذا رأى نفسه محوطاً بكثرة الأتباع المخلصين الَّذين يفدونه بالمهج والأرواح. ولكنا نجد النبي صلى الله عليه وسلم أشد ما يكون تواضعاً في مثل هذه الحال، فيروى أنه لما دخل مكة فاتحاً، يحيط به أتباعه المتحمسون، طأطأ رأسه حتىٰ كاد يمس واسطةَ الرَّحْل، تواضعاً لله تعالى، وكان جيش المسلمين يزيد على عشرة آلاف رجل، كلهم على استعداد لبذل نفوسهم في سبيله. وعن المِسْوَر بن مَخْرَمَة قال: قَدِمَت على النبي صلى الله عليه وسلم أَقْبِيَةٌ، فقسمها. فقال لي أَبي مخرمة: انطلق بنا إليه عسى أن يعطينا منها شيئاً، فانطلقت معه. فقال: ادخل فادعه

لي! فأعظمت ذلك، فقال: يا بني إنه ليس بجبار. قال: فدعوته له، فخرج صلى الله عليه وسلم وعليه قَبَاء منها، فقال: «خبأنا هذا لك».

كان النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فذبح أصحابه شاة، واستعدوا لطبخها، فقسموا العمل بينهم، فقال صلى الله عليه وسلم «وعليَّ جمع الحطب» فأحس من أصحابه أنهم يريدون أن يَكفوه العمل، فقال لهم «إنني أكره أن أتميز عليكم»، وحدث ذات مرة أن انقطع شِسْعُ نعله، فأخذها رجل من أصحابه ليصلحها، فنزعها رسول الله صلى الله عليه وسلم من يده، وقال: «إنَّها أَثَرَة، ولا أُحب الأثرة»، وجاءه يوماً رجلان من أصحابه، فألفياه يصلح داره، فاشتركا معه، ولما فرغ من ذلك، دعا لهما.

* * *

قبول الهدية والمكافأة عليها

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «تهادوا تحابوا»، وكان عليه الصلاة والسلام يقبل الهدية، ويثيب عليها، ويقول: «تهادوا، فإن الهدية تُضْعف الحب[8]، وتذهب بغوائل الصدر» وكان أصحابه يهادونه. وكان صلى الله عليه وسلم يرسل الهدايا إلى الملوك والأُمراء المجاورين.

وأُهدي إليه أحد أمراء الشام بغلة شهباء كما أهدى إليه المقوقس - ملك القبط - مثل ذلك.

وأهدى إليه ملك الروم مستقة من سندس، فلبسها فترة يسيرة من الزمن، ثم خلعها وبعث بها إلى جعفر بن أبي طالب.

---

(8) ضعف الشيء: مِثْلاه، وأَضعف الشيءَ وضعَّفه وضاعفه زاد على أَصل الشيء وجعله مِثْلَيْه أَو أكثر، (اللِّسان: ضعف).

وكان من عادة النبي صلى الله عليه وسلم أن يقبل الهدية، ويكافىء عليها. ومن ذلك أن ذي يزن ملك اليمن المشهور أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حلة أخذها بثلاثة وثلاثين بعيراً، فقبلها النبي صلى الله عليه وسلم، وأهدىٰ إليه حلة اشتراها ببضعة وعشرين قلوصاً.

أهدى رجل من بني فزارة للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة، فعوضه منها، فتسخطه، فصعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر فقال: يهدي أحدهم، فأعوضه بقدر ما عندي، ثم يسخطه. وايم الله، لا أقبل بعد عامي هذا من العرب هدية إلا من قرشي أو أنصاري أو ثقفي أو دَوْسي».

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرسل إلى أبي أيوب الأنصاري [خالد بن زيد] فضل طعامه ويبعث بالهدايا إلى جيرانه.

وكان صلى الله عليه وسلم يكره أن يكون لأحد عليه مِنَّةٌ حتى ولو كان أبا بكر نفسه، وهو صاحبه الوفي، وصديقه الحميم. فقد عرض عليه إحدى راحلتيه عند الهجرة، فأبىٰ أن يقبلها إلاَّ بالثمن. وأراد صاحبا الأرض التي ابتنى عليها مسجده بالمدينة، أن يهباها له، فأبىٰ أن يقبل الهبة، ودفع الثمن.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فكنت على بكْر صعب لعمر فكان يغلبني، فيتقدم أمام القوم، فيزجره عمر، ويرده. ثم يتقدم، فيزجره عمر ويرده، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر: بِعْنيه. قال: هو لك يا رسول الله. قال: بِعْنيه. فباعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هو لك يا عبدالله بن عمر، تصنع به ما شئت.

* * *

كراهية المسألة

كان النبي صلى الله عليه وسلم رقيق القلب، شديد العطف على المساكين، ولكنه مع ذلك كان شديد الكراهية للمسألة، لا سيما في غير حاجة، فكان صلى الله عليه وسلم يقول: «لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أَعْطَوْه أو منعوه».

جاء رجل من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله فقال: «أما في بيتك شيء؟ قال: بلى، حِلْس نلبس بعضه، ونبسطُ بعضه؛ وقَعْب نشرب فيه من الماء. قال: ائتني بهما، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، وقال من يشتري هذين؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهم. قال: من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثاً؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري، وقال: اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشترِ بالآخر قدوماً فأتني به، فأتاه به، فشد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عوداً بيده، ثم قال: إذهب فاحتطب وبعْ، ولا أَرَينَّك خمسة عشر يوماً. فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترىٰ ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة.

وسأل ناس من الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده. فقال: ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يَسْتعفِفْ يُعِفَّهُ الله، ومن يستغنِ يُغْنِه الله، ومن يتصبر يُصَبِّره الله، وما أُعطيَ أحد عطاء خيراً وأوسعَ من الصبر.

حدث بعد فتح مكة أن دخل حَكِيم بن حِزام في الإسلام، فسأل

النبي صلى الله عليه وسلم، فأعطاه. ثم سأله فأعطاه، ثم قال يا حكيم: «إن هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوةٌ، فمن أخذ بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس، لم يبارك له فيه؛ وكان كالذي يأكل، ولا يشبع؛ واليد العليا خير من اليد السفلى»، وقد بلغ من تأثير هذه النصيحة النبوية في نفس حكيم أنه لم يسأل أحداً شيئاً بعدها طول حياته.

جاء رجلان إلى النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو يقسم الصدقة، فسألاه منها، فرفع فيهما البصر وخفضه، فرآهما جَلْدين. فقال: إن شئتما أعطيتكما، ولا حَظَّ فيها لغني، ولا لقوي مكتسب.

وروى مسلم عن قَبيصَةَ قال تَحَمَّلت حَمالة، فأتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمرَ لك بها»، ثم قال يا قبيصة: «إن المسألة لا تَحِلُّ إلا لأحد ثلاثة، رجلٌ تحمَّل حَمالة، فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجلٌ أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قِواماً من عيش، أَو قال سداداً من عيش، ورجلٌ أصابته فاقة حتى يقومَ ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال سداداً من عيش، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سُحتا يأكلها صاحبها سُحتاً (9).

* * *

إكرام الضَّيف

كان النبي صلى الله عليه وسلم يكرم ضيفه، مسلماً كان أَم كافراً. وقد أنزل وفد النجاشي ونصارى نجران في منزله، وكان يخدمهم بنفسه.

(9) السُّحْت والسُّحُت: كلُّ حرام قبيح الذِّكر، وقيل: هو ما خَبُثَ من المكاسب وَحرُم فلزم عنه العار، وقبيح الذِّكر، (اللِّسان: سحت).

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضافه ضيف وهو كافر، فأمر له بشاة فحُلِبت، فشرب حِلابها ثم أخرى فشربه، ثم أُخرى فشربه، حتى شرب حِلاب سبع شياه.

كان أهل الصُّفَّة لا يأوون إلى أهل ولا مال، وكانوا أضياف الإسلام، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان أكثر الناس مواساة لهم، فقال مرة: من كان عنده طعام إثنين فليذهب بثلاثة، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، فانطلق أبو بكر بثلاثة، وانطلق نبي الله صلى الله عليه وسلم بعشرة.

وكان أبو هريرة [عميربن عامر الدَّوسي]، من الصحابة المعروفين في تاريخ الإسلام بأهل الصُّفَّة. وقد برَّح به الجوعُ ذات مرة، حتىٰ عجِز عن المشي، فقعد على ظهر الطريق، فمر به أبو بكر، فسأله أبو هريرة عن آية من كتاب الله، ما سأله إلا ليُشبعه، فمرّ ولم يفعل. ثم مرّ عمر، ففعل معه مثل ذلك. ثم مر أبو القاسم صلى الله عليه وسلم، فتبسم حين رآه، وعرف ما في نفسه، وناداه أن يلحق به، فتبعه أبو هريرة حتى دخل منزله، فوجد لبناً في قدح، فقال: مِن أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداه فلان لك. فأمر أبا هريرة أن يلحق إلى أهل الصُّفَّة، فيدعُوَهم، فذهب فجاء بهم جميعاً، فقال صلى الله عليه وسلم: «يا أبا هر! خذ القدح فأعطهم».

وحدَّث المقداد قال: أقبلت أنا وصاحبان لي، وقد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الجَهد، فجعلنا نعرض أنفسنا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليس أحد منهم يقبلنا، فأتينا النبي صلى الله عليه وسلم، فانطلق بنا إلى أهله، فإذا ثلاثُ أَعْنُز، فقال صلى الله عليه وسلم: «احتلبوا هذا اللبن بيننا».

وهذا الفَصْل من الكتاب في حاجة إلى مزيد، وكان بودِّي أن أضيف

أَيضاً إلى الكتاب فصلاً آخر، ردّاً على بعض وجوه النقد عند الأوروبيين، لولا أني تلقيت دعوة عاجلة من جنوب إفريقية، فاضطرتني إلى إرجاء ما أُريد أن أضيفه إلى المجلد الثَّاني، بيد أَني أحب أن أقول هنا كلمة عن هذا النَّقد المشار إليه، وهو أن بعض الكتاب هنا قد تعمـدوا ـ لأسباب لا تخفىٰ ـ أن ينقلوا عن الواقدي (وهو كذاب عند المسملين اتِّفاقاً) دون غيره من المؤرخين الثقات الذين كتبوا عن حياة النبي صلى الله عليه وسلَّم.

* * *

* *

*

تمَّ الكتاب

الفهرس

المثل الأعلى في الأنبياء

لَعَلَّ أصدقَ وصف لهذا الكتاب القيّم الَّذي نقدمه اليوم لقراء العربية أنه فتح جديد في السيرة النبوية الشريفة كما قال عنه اللُّورد هِدْلي ـ الانجليزي المسلم ـ في كلمته التي صَدَّر بها هذا الكتاب.

أما الهدف الرئيسي الذي يرمي إليه المؤلف، فيستطيع القارىء أن يستدل عليه من عنوان الكتاب، وهو إثبات أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم هو المثل الأَعلىٰ في الأَنبياء، قد جمع الله فيه ما تفرَّق في سائر الأَنبياء من الكمالات.

هذا والكتاب ـ بعد ذلك ـ قطعةٌ من الأدب الرفيع في أسلوبه وبيانه، صاغه المؤلف من ذَوْب نفسه، وعُصارة قلبه. بأسلوب يرضي الخاصة، ولا ينبو عن فهم العامة.

الموزعون

دار الحكمة اليمانية ج. ع. ي ـ صنعاء ـ شارع القصر الجمهوري ـ ص. ب (١١٠٤١)
برقياً (حكمة) هاتف ٢٧٢٤٧٤، ٧٢٥٨٤ ـ تلكس: HEKMA ٢٩٤٣ YE

دار الكوثر المملكة العربية السعودية ـ الرياض (١١٥٣٤) ص. ب (٥٥٤٩٠)